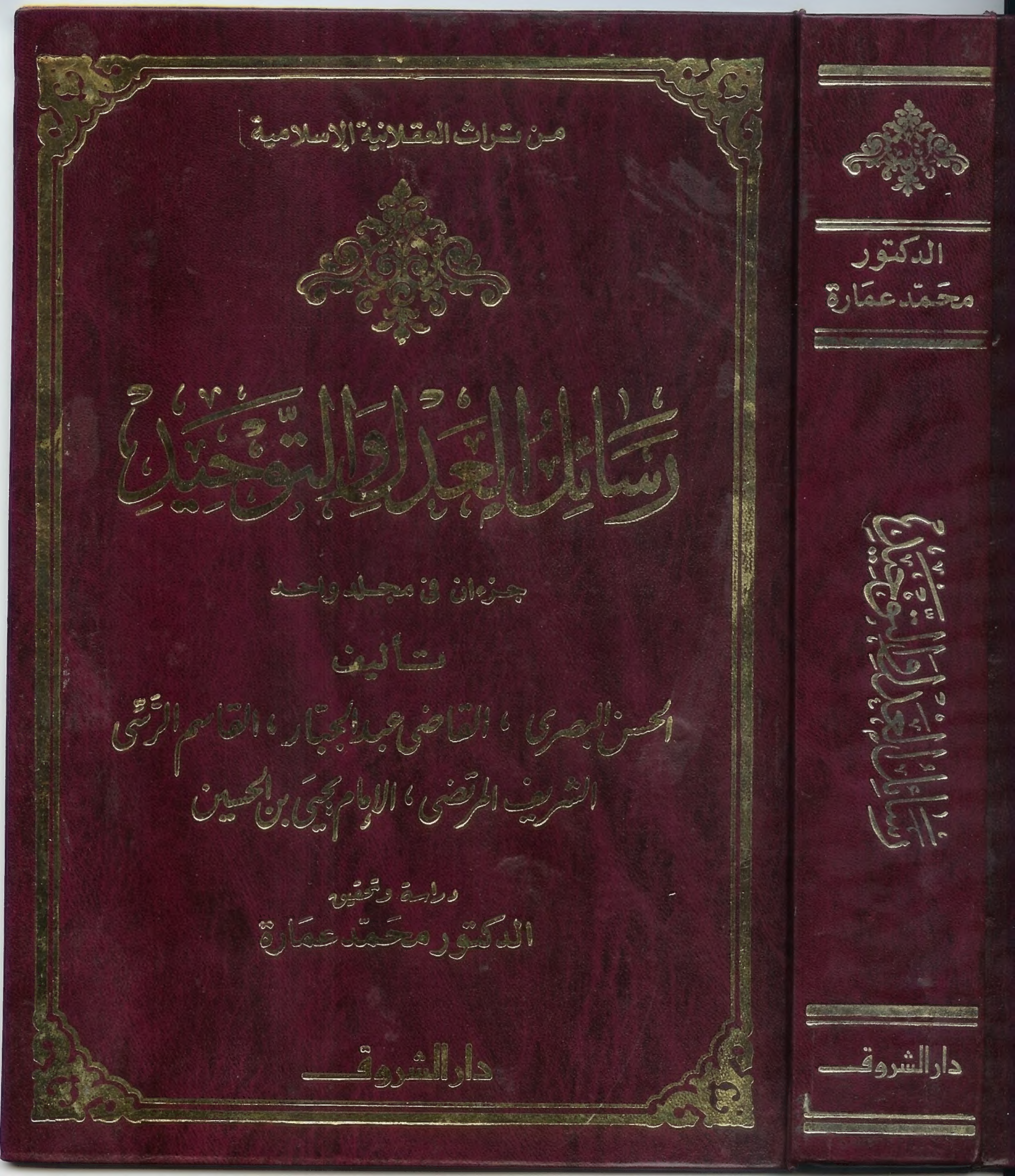
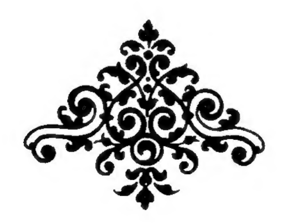

من تراث العقلانية الإسلامية
رسائل العدل والتوحيد
جزءان في مجلد واحد
تأليف
الحسن البصري، القاضي عبد الجبار، القاسم الرسي
الشريف المرتضى، الإمام يحيى بن الحسين
دراسة وتحقيق
الدكتور محمد عمارة
دار الشروق
الدكتور
محمد عمارة
رسائل العدل والتوحيد
دار الشروق

رسائل العدل والتوحيد



الجزء الثاني

تأليف

الإمام يحيى بن الحسين

تمهيد
عن الرسائل، والمؤلف، والمخطوطات

هذه الرسائل التي نقدم بين يديها، والتي يدور الحديث فيها حول موضوعي «العدل» و«التوحيد»، نستطيع أن نقول: إنها من أوفى المصادر العربية الإسلامية القديمة حول هذا المبحث من مباحث الفكر العربي الإسلامي، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنها، وبالذات (كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية) أو في المصادر القديمة في هذا الباب، إذ ليس لدينا من الآثار الفكرية التي كتبت في هذا العصر المبكر كتاب قد حوى بين دفتيه، تقريباً، كل المسائل والشبهات والقضايا التي أثارها أو يمكن أن يثيرها الجدل في موضوع الجبر والاختيار، ومدى الحرية التي يتمتع بها الإنسان، كما حوى هذا الكتاب[1].

ويزيد من أهمية هذه الرسائل أن الفكر الإسلامي الذي تضمنته، من الممكن، بل ومن الضروري أن يتحول بالنسبة لنا إلى «جذور» نصل بها فكرنا المعاصر، و«أصول» ننسج بينها وبين مستقبلنا الفكري الكثير من الخيوط. . لا لأنها جزء عزيز علينا من الماضي والتراث، ولا لأنها رسائل قد كتبت تحت رايات الإسلام، ولا لأنها تمثل نقاء الفكر العربي الإسلامي الأصيل في موضوع الحرية الإنسانية. . لا لكل ذلك فحسب، ولكن للصلاحيات الجمة والشديدة التي تمتلكها أفكار هذه الرسائل، كي تمثل بالنسبة لفكرنا المعاصر «الأصول» و«الجذور»، وذلك دونما أدنى حيدة أو ميل عن الالتزام بالاستنارة وسعة الأفق والموقف التقدمي في الحياة الفكرية والثقافية، وأيضاً في الممارسة العملية لما في هذه الثقافة من قيم وآراء ونظريات.

* * *

---

(١) هذا التقديم الذي نخص به هذا الجزء من (رسائل العدل والتوحيد)، هو إضافة، في الدراسة، خاصة برسائل هذا الجزء؛ آثرنا بها رسائله، وذلك بالإضافة إلى الدراسة التي قدمنا بها للرسائل ككل في الجزء الأول، وهي الدراسة التي تعتبر تمهيداً وتقديماً لكل أجزاء الكتاب.

ونحن إذا ابتغينا بعض الأمثلة التي نبرهن بواسطتها على هذه الدعوى، ونفصل بها هذا الإجمال، فإن في العديد من صفحات هذه الرسائل العديد من الحجج والكثير من البراهين.

فمثلاً... يمتاز الفكر المتقدم والإنساني، والذي يتعاطف أصحابه مع قضية التقدم في عصرنا الراهن، يمتاز هذا الفكر وأصحابه بالانحياز إلى وجهة النظر التي ترى في التاريخ الإنساني والحضارة الإنسانية ثمرات صنعها الإنسان وأبدعتها الجماهير، ومن العبارات الشائعة والمألوفة لنا الآن: «إن الإنسان يصنع تاريخه، وحياته، وحضارته»، وحول هذه القضية تقوم مدارس في مختلف فروع العلوم الإنسانية، تعلى من قدر الإنسان، وتسلط الأضواء على آثاره في الحياة، دون أن يخل ذلك بالتسليم بالقوانين الموضوعية في الطبيعة، بل في الاتجاه الذي يرى في نمو الوعي الإنساني بهذه القوانين الموضوعية السبيل لإحكام سيطرة الإنسان عليها، مما يسهل عليه عملية السيطرة على الطبيعة وتسخيرها أكثر فأكثر لأغراضه في هذه الحياة.

فإذا ما وجدنا في النظريات التي اشتملت عليها هذه الرسائل، وانتصرت لها، حديثاً طويلاً، وحججاً وبراهين تنتصر لهذا الموقف الفكري، وتجاهد كي تثبت أن كل ما يحدث بيد الانسان وفي إطار حياته إنما هو من صنعه وفعله وخلقه وإبداعه.. كان من حقنا أن نرى في هذا الفكر خير جذور وأفضل أصول لفكرنا المعاصر والمستنير الذي نؤمن به ونجاهد لإشاعته في مجتمعنا الحديث.

ذلك أن المستوى الذي طرح به الإمام يحيى بن الحسين هذه القضية، قد تجاوز تلك الصياغات النظرية التي حاول أصحابها التقليل من شأن حرية الإنسان وصلاحياته في خلق حضارته وصنع حياته وتاريخه.. وذلك عندما حدد أن المصطلح الذي يجب ان يطلق على «فعل» الإنسان ليس هو مصطلح «الفعل» و«الصنع» فقط، وإنما هو مصطلح «الخلق» بمعنى «التقدير» و«التخطيط» السابق للإبداع، ثم الإبداع على النحو الذي يحقق هذا «التقدير» و«التخطيط»، وعندما حكم بأن «أفعال» الإنسان إنما هي حقائق موضوعية و«أشياء»، وليست مجرد تصورات ذهنية لفعل لم يقم به الإنسان، فهو عندما يُسأل: «عن الأعمال التي عمل بها بنو آدم.. أشيء هي؟ أم ليست شيئاً؟» يجيب قائلاً: «إنها شيء

وأشياء »، وعندما يُسأل: «من خلق ذلك الشيء»؟ يقول: «إن خالق كل شيء عامله، وعامله فاعله، قال سبحانه ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1] فسمى العاملين خالقين، وقال شاعر من فصحاء العرب:

ولأنت تفري ما خلقت … وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد: أنت تتم ما دخلت فيه وصنعته وتكمل كل ما قمت به وعملته»[2].

* * *

وهو بعد أن يحسم هذا الموقف الفكري، لصالح قدرة الإنسان واستطاعته «خلق» الفعل، يحدد أن كل ما نراه ثمرات لفعل الإنسان في هذه الحياة إنما هو من خلقه، بينما المواد الأولية التي استخدمها الإنسان في الصنع والخلق، وكذلك مادة هذا العالم وأجرام هذا الكون هي من صنع القوة الإلٓهية المسيطرة على هذا الوجود.. فأعضاء الإنسان، مثلاً، ليست من صنعه، وإنما صنعه وخلقه هو ما تأتيه هذه الأعضاء، فالله «لم يكن منه في ذلك كله فعل غير خلق الأداة، خلق الرّجل للمشي فمشى (أي الإنسان)، وخلق الأذن للسمع فسمع، وخلق الأنف للشم فشم، وخلق العين للنظر فنظر، وخلق الفرج للنكاح فنكح، فما ناله الإنسان من تلك الأداة فهو من فعله، وليس من فعل الله فعل عبده.. فالعين: الله خلقها، والنظر إلى الأشياء فعل العبد، واليد: الله خلقها، والإنسان يبطش بها، والرِّجل: الله خلقها، والإنسان بها مشى، فمن الله، سبحانه، خلق الأدوات وإيجاد الالات في الأبدان، وما تفرع منها فمن أفعال الإنسان»[3].

* * *

ونفس هذه القاعدة يطبقها الإمام يحيى على عالم الفعل الإنساني خارج نطاق جوارح الإنسان، أي فيما يتعلق بالعالم الذي يتعامل فيه الإنسان مع الطبيعة، فالله سبحانه، مثلاً، «هو الذي خلق الخشب والحجر والماء والمدر، هو دلَّهم على ذلك، وهم بنوا وعملوا المساكن وكل ما صنعوه من الأماكن، وهو جعل وخلق

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) أنظر (كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية). أجوبة المسائل السابعة والثامنة، وكذلك السادسة.

(٣) المصدر السابق. جواب المسألة السادسة.

الأنعام وجلودها، وهم عملوها بيوتاً. . وكذلك السرابيل التي تقي الحر وقت الحر وتقي القر وقت القر[1]، وكذلك السرابيل اللباس التي تقي وتحرس من البأس، فالله أوجد حديدها ودلهم على عملها، وهم يتولون فعلها وسردها وتأليفها ونسجها»[2].

أي «إن الله، سبحانه، أوجد الأصل الذي نُقِل وصنع وعمل من هذه. . الجلود والكرسف (القطن) والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحدث الذي صرَّفوها به وأحدثوه فيها من عملها ونسجها وصناعتها وغزلها بالأكف والأدوات التي جعلت لهم والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات، فكان الله عز وجل الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات الصانعين لتلك المصنوعات، كذلك الله سبحانه خلق الحجارة والطين، والعباد بنوا الدور وشيدوا ما بنوا من القصور. . ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين وبين أفعال رب العالمين، فما كان من أفعال الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد فليس من أفعال ذي العزة والأياد»[3].

فهو يحسم في هذه النصوص التي تماثلها نصوص أخرى كثيرة جداً في هذه الرسائل ـ قضية قديمة جديدة، تتعلق بحرية الإنسان، وبمدى هذه الحرية وفعاليتها، وذلك عندما يقرر أن كل الأفعال الانسانية الواقعة في إطار عالم الانسان ونطاق حياته وقدرته واستطاعته، إنما هي فعله وصنعه وخلقه وإبداعه.

***

كما تحسم هذه الرسائل قضية أخرى لا زالت مثارة في مباحث الفلسفة الحديثة، وهي الخاصة بنظرية المعرفة، وهل معرفة الانسان منه، نابعة من حياته وظروفه الموضوعية المحيطة به؟ أم أن هذه المعرفة هي المصدر والسبب في هذه الظروف الموضوعية؟ . . وإلى الرأي الأول ينحاز الإمام يحيى عندما يقرر:

١ ـ إن معرفة الخالق طريقها العقل، لا الكتب المقدسة والرسالات.

---

(١) القر: البرد الشديد.

(٢) المصدر السابق. جواب المسألة التاسعة عشرة. والسرد بالنسبة للحديد كالنسج بالنسبة للخيوط.

(٣) المصدر السابق. جواب المسألة الواحدة والأربعين.

٢ ـ وإن معرفة العبادات من حلال وحرام وغيرهما، طريقها الرسل، المجملة تعاليمهم في الكتب السماوية.

٣ ـ وإن المعرفة الانسانية التي جاءت وليدة للتجربة الانسانية، إنما مصدرها تجربة الإنسان في الحياة.

ولقد استدل على أن المعرفة الانسانية كسب للإنسان وفعل له، وليست شيئاً مخلوقاً من قِبَل قوة أخرى غيره، ولا هي شيء ملقى إلى عقله ولبه دون أن يكون من صنعه، بأن الإنسان قد يكون عالماً ثم يفعل، باختياره، ما به يجهل العلم، كالسكر والنوم مثلاً، وأن الإنسان قد يكون جاهلاً بالشيء فيفعل باختياره ما به يصبح عالماً بهذا الشيء، كأن يُحَصِّل أسباب علمه، وتعلمه، وهكذا «فإن المعرفة من العارف، تفرعت من لبه عند استعماله لفكره، واستخراجه ما أمر باستخراجه من التمييز بعقله، وقد نجد المبصر بعينيه يبصر إلى ما يحل له ويحرم عليه، ولو كان البصر من الله لكان الله المُدخِل له فيه، الناظر الباصر، دون الإنسان، إليه»[1].

وهكذا . . فكما أن الفعل الانساني هو خلق الانسان وصنعه، كذلك المعرفة الانسانية هي من صنع الانسان، فهو إذا صانع حضارته وتاريخه، وخالق حياته المادية والثقافية، كما نعبر نحن الان في أدبنا السياسي الحديث.

* * *

والميزة الأساسية التي امتاز بها فكر هذه الرسائل عن الفكر الفلسفي الذي لم يلتزم بالقرآن والنظريات الدينية للإسلام، هي أن هذه الرسائل قد قدمت هذا الفكر المتقدم كثمرة للفكر القرآني وتعاليم الإسلام.

وعندما تصور القائلون بالجبر وانعدام حرية الإنسان واختياره، إن في الحكم للإنسان بالحرية والاختيار افتئاتاً على الله، ومعاندة لإرادته، لم يُجْدِهم هذا الإرهاب الفكري قليلاً أو كثيراً، إذ أصر القائلون بالحرية والاختيار على إثبات إرادة للإنسان، مستقلة عن إرادة الخالق، وعلى أن لهذا الإنسان ميلاً ورغبة في

(١) المصدر السابق. جواب المسألة الخامسة.

الفعل أو الترك، دون أن يكون ذلك الميل مخلوقاً لله، أي أنه يريد باختياره، وقد يكون مراده هذا مراداً لله وقد لا يكون.

وعندما سأل المجبرة أهل العدل والتوحيد: هل يقع في ملك الله ما لا يريده؟! كان جوابهم: نعم.. ولكن.. ليس على الإطلاق.. وذلك لأن إرادة الله، سبحانه، على وجهين: «أحدهما: إرادة حتم، والأخرى: إرادة أمر معها تمكين وتفويض. فأما إرادة الحتم فهي ما أراد من خلق السماوات والأرض والجبال.. وأما المعنى الآخر فهو الإرادة التي معها تمكين، وهو قوله، سبحانه: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾**[1] فكان قضاؤه في ذلك، سبحانه، ما أمر به من أن لا نعبد معه غيره، وما أمر به من البر والإحسان الى الوالدين، فأراد الله سبحانه من العباد أن يطيعوه ويعملوا له بما ركب فيهم وأحسن به إليهم من الاستطاعات، وما أعطاهم من الالات، بالاختيار منهم لطاعته والإيثار منهم لمرضاته»[2].

ومعنى هذا أن ملك الله يقع فيه ما لا يريده من المعاصي، إذا كان مراد الانسان هذا في إطار المرادات الانسانية التي معها تفويض وتمكين من الله للإنسان.

فالإنسان إذاً خالق للفعل المادي، والمعرفة النظرية، والإرادة والمشيئة الخاصة به في هذه الحياة.

***

وكما نفت هذه الرسائل وجود ذلك التناقض الذي توهمه البعض ما بين حرية الإنسان وإرادته واختياره وبين إرادة الله سبحانه وتعالى، كذلك نفت وجود أي تناقض بين أن يكون الانسان مختاراً في صنعه لأفعاله وخلقه لحياته المادية والفكرية وبين علم الله بما سيقع له، وبالمصير الذي سيئول إليه أمره، ففسر الإمام يحيى قول الله، سبحانه **﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم**

---

(١) الاسراء: ٢٣.

(٢) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة الثانية عشرة.

أصحاب النار﴾[1] وقوله: **﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**[2] بما ينفي وجود هذا التعارض، وعندما سئل: هل كان باستطاعة الناس جميعاً أن يكونوا مطيعين، فتكون لهم الجنة؟ أو عاصين فتكون لهم جميعاً النار؟.. قال: «إنهم كانوا يستطيعون طاعته، كما يستطيعون معصيته، ولكنهم افترقت بهم الأهواء، فمنهم من اختار الإيمان والتقوى، ومنهم من اختار الضلالة والعمى، والله إنما حكم بالنيران على من اختار من الثقلين العصيان أو كره ما أنزل الرحمن، فعلْم الله وقع على اختيارهم وما يكون من أفعالهم ولم يدخلهم في صغيرة ولم يخرجهم من كبيرة. ولو علم أنه إذا دعاهم وبصرهم وهداهم أجابوه بأسرهم وأطاعوه في كل أمرهم، إذاً لأخبر بذلك عنهم كما أخبر به عن بعضهم، وكذلك لو علم أنهم يختارون بأجمعهم المعصية لحكم عليهم بالنار كما حكم على الذين كفروا منهم»[3].

فلا إرادة الله، ولا مشيئته، ولا علمه، بمتناقضة مع النظرية المستنيرة المتقدمة التي ترى في الإنسان حراً مختاراً مريداً قادراً مستطيعاً، قد حباه الله التفويض والتمكين كي يخلق فعله ويصنع كل ما هو مقدور له في هذه الحياة.

***

ولقد تجلت عبقرية هذا الفكر، بل تقدميته وثوريته كذلك، عندما خرج به أصحابه من نطاق الذات الإنسانية بمعناها الفردي وحدودها الضيقة، وأبصروا الأبعاد الاجتماعية والسياسية لنظريتهم في الحرية والاختيار.. وفي كثير من صفحات هذه الرسائل تطالعنا الأمثلة والتطبيقات التي تقدم هذا الفكر في إطار المجتمع، وتتحدث عن الآثار الطيبة المترتبة على سلوك المجتمع طريق الحرية والاختيار، والآثار السيئة الناجمة عن اتباع الناس والمجتمع لنظريات الجبر والمجبرة في هذا المقام..

ويكفي أن نشير إلى أنهم قد أبصروا دور الفكر الجبري في جعل العامة

(١) غافر: ٦.

(٢) السجدة: ١٣.

(٣) كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة الخامسة والثلاثين.

وجمهور المحكومين يرضون بظلم الحكام الجائرين، لأنهم سيقولون، حينئذ: «إن هذا الظلم الذي نزل بهم بقضاء من الله وقدر، ولولا أن الله قضى عليهم بهذا الظلم الذي نزل بهم من هؤلاء الظالمين ما إذا قدر الظالم أن يظلمهم. غير أن هذا الظلم مقدر عليهم عند الله على يدي هذا الظالم»[1].

ولقد قادهم هذا الفهم الثوري لقضية الحرية والاختيار إلى أن يبصروا دور التأييد، أو حتى السكوت والخنوع، الذي تمنحه العامة للسلطة المستبدة، دوره في بقاء هذه السلطة وتدعيمها، ومسئولية العامة والجمهور المستكين عن المظالم التي يقترفها الطغاة والظالمون، فقالوا: إن أعوان الظلمة إذا تفرقوا عنهم «وأسلموهم لم تقم لهم دولة ولا تثبت لهم راية»[2].

كما يتحدث الإمام يحيى في نصوص كثيرة بهذه الرسائل عن دور الدعم المادي، والمالي بالذات، الذي تقدمه الجماهير الخانعة لسلطة النظام المستبد، دوره في بناء هذا النظام، ومسئولية دافع الضرائب هذا عن بقاء هذا الاستبداد وما يقترف أهله في حق الناس.. فالمسئولية هنا قد تعدت نطاق الحياة المباشرة للفرد دافع الضريبة، وامتدت إلى ميادين لا يعلم عنها هذا الفرد شيئاً، لأن هذه الميادين قد ترتب وجودها على الدعم المادي الذي قدمه للسلطة الجائرة حتى عاشت وتدعمت قبضتها وارتكبت هذه التصرفات.. وفي نص طويل يقول: إنه «إذا كان الفقير على غير استواء، ثم دفع صاحب الزكاة إليه شيئاً من المال فقد قواه على فسقه وفجوره وطغيانه، وكان شريكاً له في عصيانه، كدأب الذين يعينون الظالمين ويقيمون دولتهم بزرعهم وتجارتهم.. ولولا التجار والزارعون ما قامت للظالمين دولة ولا ثبتت لهم راية، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾**[3]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله بعثني بالرحمة واللُّحمة[4]، وجعل رزقي تحت ظلال رمحي، ولم يجعلني حراثاً ولا

---

(١) الامام يحيى بن الحسين (كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد). الفقرة السادسة الخاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) المصدر السابق. نفس الفقرة.

(٣) هود: ١١٣.

(٤) أي القرابة والألفة والتأليف.

تاجراً، ألا إن شر عباد الله الحراثون والتجار، إلا من أخذ بالحق وأعطى الحق» لأن الحراثين يحرثون والظالمين يلعبون، ويحصدون وينامون، ويجوعون ويشبعون، ويسعون في صلاحهم وهم يسعون في هلاك الرعية، قد اتخذوا عباد الله خولاً، وماله دولاً، بما يقويهم التجار والحراثون.. ويروي.. إن الله يجعل أعوان الظالمين يوم القيامة في سرادق من نار، ويجعل لهم أظافر من حديد يحكون بها أبدانهم حتى تبدو أفئدتهم فتحرق، فيقولون: يا ربنا، ألم نكن نعبدك؟! قال: بلى، ولكنكم كنتم أعواناً للظالمين. وقال النبي صلى الله عليه وآله: «ملعون ملعون من كثّر سواد ظالم» وفي معاداة الظالمين ما يقوله عز وجل: ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾[1] فباين ابراهيم والذين معه آباءهم وأبناءهم وإخوانهم الذين بادؤا الله بالعداوة، وكذلك يجب على كل مؤمن أن يقتدي بفعلهم﴾[2].

وهكذا تجلت ثورية النظريات التي تضمنتها هذه الرسائل في الموقف من السلطة الظالمة، وفي إبصار العلاقة بين الفكر الجبري وبين تبرير المظالم الواقعة بالناس، وكذلك في رؤية الخيوط التي تربطما بين الدعم المادي، والاقتصادي منه بالذات، وبين بقاء هذه السلطة تمارس الظلم والطغيان على رقاب المظلومين.. وهو ما نسميه في أدبنا السياسي المعاصر: التأييد الاقتصادي والمالي الذي تمنحه الطبقات المستغِلة للسلطة التي تمثلها، كي يبقى لها هذا النظام السياسي الذي يحرس ويبقى على الاستغلال.. فالفكر الثوري في هذه الرسائل يدين «البناء التحتي» والقاعدة المادية للمجتمع الظالم، كما يدين «البناء الفوقي» والمؤسسات السياسية لهذا المجتمع، إذ هما سواء في الشركة الظالمة للمجتمع والناس.

***

وفي إطار الحرية الإنسانية ناقشت هذه الرسائل الكثير من القضايا الحيوية في عالم المال والاقتصاد، منها على سبيل المثال قضية «الأرزاق» وذلك عندما

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد. الفقرة الخاصة بالزكاة.

فرقت بين ما أحل الله للإنسان وبين ما حرم عليه من متع الحياة، فرأت أن الحلال الذي يحل للإنسان تناوله والتمتع به هو رزق الله لهذا الإنسان، قدره له، وقضى له به، أما الحرام الذي ليس من حقه فهو اغتصاب وسرقة حدثت من الإنسان دون قضاء من الله بها أو تقدير، ولذلك فإن تبعات الرزق الحلال المقدر من الله هي من نوع الزكاة والصدقة وما شرع في الأموال من حقوق معلومات، بينما المترتب على المال المأخوذ بلا وجه حق هو رده لذويه، وإقامة حدود الله على مغتصبيه وسارقيه والإمام يحيى يناقش المجبرة في شخص «الحسن بن محمد بن الحنفية» حول هذه القضية فيقول: «كيف يقول الحسن بن محمد: إن الله رزق هؤلاء الظالمين المعتدين الفاسقين رزقاً صَيَّره لهم وسلمه في أيديهم، ثم يعذبهم عليه ويحاسبهم فيه؟!.. أم كيف يجترىء ويقول: إن الله جعله لمن حكم له به من ضَعَفَه المسلمين، ثم انتزعه منهم فجعله رزقاً للأغنياء الفاسقين دونهم؟! فكيف يكون ذلك، والله، سبحانه، يقول: ﴿**كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾[١] ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**﴾[٢]، فعلم أن في خلقه من سيأكل أموال اليتامى عدواناً وظلماً، فنهاهم عن ذلك وحرمه عليهم، وحكم بعذاب السعير لمن استخار ذلك فيهم... ثم يقال لهم (المجبرة): ما تقولون فيمن غصب مالاً، فأخذه. أتوجبون عليه الزكاة فيه؟! أم توجبون رده إلى صاحبه عليه؟ فقد يجب عليكم، في قياسكم وقولكم، أن تقولوا: إنه رزق له رزقه الله إياه، وقدره له، ولولا ذلك لم يأخذه ولم يقدر على أكله وشربه، ولا على الانتفاع به، فإن كان كما تقولون.. فلن يجب عليه أبداً رده»[٣].

وهكذا أرسوا في قضية الأرزاق قاعدة فكرية هامة، نستطيع أن نستخرج منها العديد من النتائج، منها ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية، عندما نلاحق مغتصبي أموال الفقراء، رافضين الاعتراف بوجود حقوق لهم فيها، مهما طال الأمد على

(١) الحشر: ٧.
(٢) النساء: ١٠.
(٣) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة العاشرة.

تاريخ الاغتصاب، وتوالت من بعد الجيل المغتصب أجيال الأبناء والأحفاد، ومنها ما يتعلق بتغيير المفاهيم الشائعة لدى جمهور العامة، من مثل قولهم: لا يأخذ أحد سوى رزقه. وهي المفاهيم التي تشيع التكاسل والتواكل وتناهض الجد والطموح، فضلاً عن تبريرها المظالم الاجتماعية التي يعاني منها الفقراء والمستضعفون.

***

ومن القضايا الهامة التي طرحتها هذه الرسائل، في إطار الحديث عن الحرية الإنسانية، وخلق الإنسان لأفعاله، تلك القضية التي عرفت بقضية «الاجال»، والتي نستطيع من خلال نصوصها أن نقول: إن صاحب هذه الرسائل، مثله كمثل الكثيرين من القائلين بالعدل والتوحيد، قد رأى أن في نطاق عالمي «الموت» و«الحياة» مجالاً لحرية الإنسان وتأثير الإنسان.

ذلك أنهم قد فرقوا بين «الموت الطبيعي» الذي هو حق قضاه الله، وبين «القتل» الذي هو جرم وظلم اقترفه الإنسان ضد أخيه الإنسان، أو اقترفه الإنسان «المنتحر» ضد نفسه، فجعلوا الأول فعلاً لله، ونسبوا الثاني إلى فعل الإنسان، وأفاضوا في شرح هذه القضية، وقالوا: «إن الله وقَّت لعباده آجالاً... وجعل فيهم قدرة على أن يقتل بعضهم بعضاً.. **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾**[1]، فنهاهم عن قتل النفس، إذ علم أنهم عليه مقتدرون.. ولو لم يعلم أنهم كذلك.. لما نهاهم عنه.. لأن نهي الإنسان عن الطيران مستحيل.. وقد فرق الله بين فعل عباده في ذلك وبين فعله.. فقال: **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد﴾**[2]، فأخبر أن سكرة الموت.. من الله لا من الخلق.. فسمى ما كان منه: حقاً وحكماً، وما كان من عباده الظلمة: عدواناً وظلماً.. وقال: **﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾**[3]، ففرق بين القتل والموت، فكان القتل من عباده فعلاً، والموت منه حتماً، وقال: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه**

---

(١) الانعام: ١٥١.

(٢) ق: ١٩.

(٣) آل عمران: ١٥٧.

كان منصوراً﴾[1]، فقال: ﴿**قتل مظلوماً**﴾،فأخبر بقوله: ﴿**مظلوماً**﴾ أن له قاتلاً ظالماً عنيداً ﴿**وما ربك بظلام العبيد**﴾[2]، فإن كان قتل بأجله، فأين الظلم ممن فد استوفى كل أمله؟ وفنيت حياته، وجاءت وفاته، وفنيت أرزاقه، وانقضت أرماقه؟ . . »[3].

ثم يمضي الإمام يحيى ليسأل القائلين بالجبر، الذين قالوا: إن الله هو الذي ينهي الأجل في كل الحالات، يسألهم: «عمن قتل نفسه بيده، أقتلها وهي حية في بقية من أجلها؟ أم ميتة قد انقضى أجلها؟ . . فإن قالوا: قتلها وهي حية في أجلها، فقد أقروا أنه كانت له بقية فقطعها بيده، قَلَّت البقية أم كثرت، وإن قالوا: قتلها بعد أن فني أجلها، فكل ما فني أجله فهو ميت لا شك عند فناء أجله، وقتل ميت ميتاً محال»[4].

ثم إذا كان انتهاء الآجال، في حال القتل، من صنع الله وخلقه، لا من صنع القاتل، فلماذا طلب الله، سبحانه، من الرسول والمؤمنين أن يأخذوا حذرهم من العدو، عندما يقومون للصلاة وقت القتال، فيقول: ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ود الذين كفروا لو تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون علكم ميلة واحدة**﴾[5]. . ففي هذه الآية دليل على أن القتل هنا هو صنع المشركين المحاربين، لا صنع الله[6].

ونحن نستطيع أن نستخرج من هذا الموقف الفكري الهام، الكثير من النتائج التي يمكن للمجتمع المعاصر أن يستفيد منها كل الاستفادة، إذ باستطاعة المجتمع المسلم، إذا آمن بالتأثير الإنساني في موضوع الآجال، أن يسعى في سبيل التقدم الصحي والمعيشي مثلاً، مؤمناً بأنه سبيل لزيادة متوسط عمر الإنسان، وسبيل لخفض نسب الوفيات، وذلك دونما حرج ديني على العقيدة، لأن هذا الحرج

---

(١) الاسراء: ٣٣. (٢) فصلت: ٤٦.

(٣) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة التاسعة.

(٤) المصدر السابق. جواب المسألة التاسعة. (٥) النساء: ١٠٢.

(٦) الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية. جواب المسألة التاسعة.

مصدره فقط فكر المجبرة لا فكر القائلين بالعدل والتوحيد . . كما نستطيع ـ انطلاقاً من هذا الموقف الفكري ـ أن نحدد بدقة مدى الجرم، ومدى جسامة المسئولية التي يتحملها من نسميهم في عصرنا «بمجرمي الحرب» الذين يتسببون في فناء الأعداد الغفيرة من البشر، بطريق مباشر في ميادين القتال، أو غير مباشر بخلق أسباب الحروب وإذكاء نيرانها، إذ أن في تحميلهم مسئولية القتل الذي أنهى الأجل بالنسبة لكل قتيل تحديد أدق لمسئوليتهم الاجرامية هذه، وإبراز وتجسيد لمدى فظاعة الجرم الذي يرتكبون . . وذلك على العكس من الفكر الجبري الذي يرى في قتل هؤلاء الضحايا، وفي الحروب عامة، قدراً من الله حدث لهم، وقضاء منه حل بهم، عندما استوفوا أجلهم في هذه الحياة.

* * *

وإذا كانت هذه هي بعض الأمثلة التي ابتغينا من وراء إيرادها، في هذا التقديم، الإشارة لأهمية هذه الرسائل، كتراث فكري عقلي يؤصل أكثر القيم إضاءة وإشراقاً في عالمنا المعاصر. وإذا كانت جميع هذه الأمثلة قد جاءت من حديث هذه الرسائل في موضوع «العدل»، فإن في حديثها عن موضوع «التوحيد» فكراً خصباً يسعف العقول المستنيرة التي تنشد تصورات فلسفية إسلامية للذات الإلٓهية والكون والعلاقة بينهما، تفتح الباب أمام التوفيق الموضوعي والمبدئي بين التصورات الفلسفية المعاصرة بخلفياتها العلمية وبين التصورات الفلسفية المثالية بما خلفها من فكر ديني عميق الجذور في حياة الإنسان[1].

ففي هذه الرسائل تصور توحيدي وتنزيهي وتجريدي للذات الإلٓهية يقرب بها من التصور الذي رآها فيه البعض «عقلاً ونظاماً وقانوناً» يدبر الكون ويهيمن عليه، ويحكم استمراره، ويرعى وجوده، دون أن تكون شيئاً مادياً أو يشبه المادة بأي شكل من الأشكال أو صفة من الصفات أو حال من الأحوال.

* * *

ونحن نستطيع أن نجد هذا التصور في العديد من نصوص الإمام يحيى، مثل ذلك الذي يقول فيه: إنه «إن سأل سائل: . . . ماذا يعبد الخلق؟.

---

(١) للوقوف على التفاصيل الخاصة بهذه القضية راجع كتابنا: (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد). .

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم . .

فإن قال: وأين معبودهم؟ أفي الأرض؟ أم في السماء؟ أم فيما بينهما من الأشياء؟ . .

قيل له: بل هو فيهما وفيما بينهما، وفوق السابعة العليا، ووراء الأرض السابعة السفلى، لا تحيط به أقطار السماوات والأرضين، وهو المحيط بهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته فيهن ككينونته في غيرهن مما فوقهن وتحتهن، ككينونته قبل إيجاد ما أوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل موجود، والمكوِّن غير المكوَّن، والخالق غير مخلوق، والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية . .

فإن قال: فما معنى كينونته فيهن وفي غيرهن مما بينهن؟ ألِعِظَم جسم أحاط بهن، وكان كذلك فيهن؟ أم لسرعة تحوّل وانتقال منهن إلى غيرهن ومن غيرهن إليهن؟ . .

قيل له: ليس إلهنا، سبحانه، كذلك، ولا يقال فيه بذلك، وهو سبحانه متعال عن الإنتقال، متقدس عن الزوال، وعن التصور في صور الأجسام. . . ولكن معنى قولنا: إنه فيهن، هو أنه مدبر لهن، قاهر لكل ما فيهن، مالك لأمرهن ولأمر ما بينهن وما تحتهن وما فوقهن، لأنه مسخر لهن، ولا داخل كدخول الأشياء فيهن»[1].

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة، والقضايا الفكرية الخصبة والجريئة التي عالجت بها هذه الرسائل موضوعي «العدل» و«التوحيد» بوجه خاص، والأصول الخمسة التي قال بها أهل العدل والتوحيد بوجه عام. وهي نصوص وقضايا تقدم لفكرنا العربي الإسلامي المعاصر صفحات مشرقة من التراث القديم تمتلك صلاحيات كبرى كي تكون الجذور والأصول لفكر معاصر، بل ومستقبلي، في هذه القضايا والنظريات . .

---

(١) الرد على أهل الزيغ من المشبهين. المقدمة (ماذا نعبد؟).

- ٢ -

وصاحب هذه الرسائل هو الإمام الهادي إلى الحق أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ولد بالمدينة سنة ٢٤٥ هـ سنة ٨٥٩ م، وذلك قبل وفاة جده الإمام القاسم الرسي ـ الذي تقدمت له بعض الرسائل في الجزء الأول ـ بعام واحد.

ولقد عقدت له البيعة بإمامة الزيدية في سنة ٢٨٠ هـ سنة ٨٩٣ م، وكانت سنه يومئذ خمساً وثلاثين سنة، وذلك أثناء خلافة الخليفة العباسي «المعتضد». ولقد كانت له محاولة لم تنجح في إقامة دولة للشيعة الزيدية باليمن، رجع بعدها إلى الحجاز، ثم كرر المحاولة بعد أن دعاه أهل اليمن فدخل إلى «صعده» في شهر صفر سنة ٢٨٤ هـ سنة ٨٩٧ م حيث نجح في إقامة دولة زيدية مستقرة لأول مرة في تاريخ هذه الفرقة الإسلامية.. ولقد أصلح بين القبائل اليمنية المتنازعة، وخاصة قبائل «خولان»، وأنهى فتنتهم، ثم قام بفتح «نجران».

وإلى جانب الثراء الفكري الذي نلمسه عند الإمام يحيى من الكتب والرسائل التي بقيت لنا من آثاره الفكرية، فلقد كان رجل سيف وشجاعة وقتال.. ولقد كانت مقدرته الحربية تمتاز بجوانبها العملية، إذ كان يشارك بنفسه في المعارك والقتال.. حتى لقد أحصيت له ثلاث وسبعون معركة خاضها ضد القرامطة وحدهم، وكانوا يومئذ قد تغلبوا على «صنعاء» بجيش قاده عامل نجار من أهل الكوفة يدعى «علي بن الفضل» وعندما اشتد بأس هذا الجيش القرمطي، خافه الناس من أنصار الإمام يحيى، وحل الرعب في قلوبهم، فجمع الإمام يحيى أنصاره، وكانوا ألف رجل، وخطب فيهم قائلاً: «أتفزعون وأنتم ألفا رجل؟! أنتم

ألف، وأنا أقوم مقام ألف!!». ثم انتخب منهم ثلثمائة رجل سلحهم بأسلحة الباقين وشن بهم هجوماً ليلياً على القرامطة، وفي غفلة منهم، حقق النصر الذي أجلاهم به عن صنعاء[1].

وقبل أن يقيم الإمام يحيى دعائم دولته باليمن كان له نشاط فكري وسياسي ببلاد «الديلم» و«العراق» و«أمل». ويقول عنه الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي: إنه كان جامعاً لشروط الإمامة، ويضرب به المثل في الشجاعة. ولقد مات مسموماً بمدينة «صعده» لعشر بقين من شهر ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ سنة ٩١٠ م، ومشهده في مسجده الجامع بهذه المدينة مشهور حتى الان. وكانت سنه عند وفاته ثلاثاً وخمسين سنة. وإلى اللقب الذي تلقب به ـ الإمام الهادي إلى الحق ـ ينسب المذهب الفقهي الذي ساد بلاد اليمن منذ ذلك التاريخ، والمعروف بمذهب الهادوية الزيدية.

* * *

وإن نظرة سريعة على تعداد الكتب والرسائل التي حفظت لنا من آثار الإمام يحيى حتى الآن، والتي تناول فيها الكثير من مناحي الفكر الإسلامي، تشير إلى مدى علمه وسعة أفقه وطول باعه في هذا الميدان، وهي كتب ورسائل لا زالت مخطوطة لم تطبع حتى الآن. بل إن مثلها كمثل الكثير من الكنوز الفكرية الخاصة بأهل العدل والتوحيد التي ظلت حبيسة مكتبات «صنعاء» محجوبة حتى عن الفهارس التي تتحدث عن مخطوطات تراثنا العربي الإسلامي.

ومن أهم الكتب والرسائل الباقية للإمام يحيى:

١ ـ الرد على المجبرة القدرية.

(١) راجع (المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن) لأحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني. اللوحة ١٨٣. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم (٢٩١٣٧ ب) وأنظر كذلك: (شرح عيون المسائل) جـ ١. اللوحة ٢٨ للحاكم أبي سعد المحسن بن كرامة. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، رقم (٧٦٢٣ ب)، ومقدمة (كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الامصار) لأحمد بن يحيى بن المرتضى. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م، و(الفهرست) لابن النديم. ص ١٩٤ طبعة ليبزج. وكتاب (خبر الإمام الهادي إلى الحق ودخوله اليمن) لأبي جعفر محمد بن سليمان الكوفي. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم (٢٩٠٩٢ ب).

٢ ـ الرد علي المجبرة والقدرية.

٣ ـ كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية في الجبر، وإثبات الحق ونقض قوله. (وهو جزءان).

٤ ـ كتاب فيه معرفة الله عز وجل من العدل والتوحيد وإثبات النبوة والإمامة في النبي وآله، عليهم السلام.

٥ ـ كتاب البالغ المدرك.

٦ ـ كتاب أصول الدين.

٧ ـ كتاب المسترشد.

٨ ـ تفسير معاني السنة، والرد على من زعم أنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٩ ـ جواب مسألة النبوة والإمامة.

١٠ ـ جواب لأهل صنعاء على كتاب كتبوه إليه عند قدومه إليها.

١١ ـ تثبيت إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

١٢ ـ جواب مسألة لرجل من أهل «قم».

١٣ ـ جواب مسائل الحسن بن عبد الله الطبري.

١٤ ـ كتاب الجملة «جملة التوحيد».

١٥ ـ الرد على أهل الزيغ من المشبهين.

١٦ ـ كتاب إثبات النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم.

١٧ ـ كتاب المنزلة بين المنزلتين.

١٨ ـ كتاب تفسير الكرسي.

١٩ ـ كتاب الديانة.

٢٠ ـ كتاب الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه.

٢١ ـ كتاب الخشية.

٢٢ ـ كتب القياس.

٢٣ ـ جواب مسائل أبي القاسم الرازي.

٢٤ ـ كتاب النهي والمناهي عن النبي ﷺ.

٢٥ ـ مسألة في ذكر السجود لآدم عليه السلام.
٢٦ ـ كتاب العرش والكرسي.
٢٧ ـ كتاب الفنون في أبواب من العلم والفقه.
٢٨ ـ كتاب في تثبيت الإمامة.
٢٩ ـ عهد أهل الذمة.
٣٠ ـ جواب مسألة لابنه المرتضى.
٣١ ـ الأحكام في الحلال والحرام.
٣٢ ـ خطايا الأنبياء.
٣٣ ـ الرد على سليمان بن جرير.
٣٤ ـ كتاب الدعوة.
٣٥ ـ المسالك في ذكر الناجي من الفرق والهالك.
٣٦ ـ المستجاد في بيان علماء الاجتهاد.
٣٧ ـ الوافي في فقه الهادوية الزيدية (وهو مجموعة الفتاوى التي أصدرها الإمام يحيى، ومن قبله الإمام القاسم الرسي، جمعها أبو الحسن علي بن بلال الاملي الزيدي).
٣٨ ـ تفسير القرآن العظيم (وهو تفسير يضم جهوده وجهود جده، وأبنائه وأحفاده، جمعت من بعدهم تحت هذا العنوان).

وهذه الاثار الفكرية التي أبدعها الإمام يحيى، تلتزم فكرياً بأصول أهل العدل والتوحيد، كما هي معروفة في مدرسة المعتزلة، وذلك باستثناء الموقف من الإمامة، فإنه يلتزم فيه موقف الشيعة الزيديين.

وهذه الرسائل التي حققناها له، والتي نقدم بين يديها، هي بعض من رسائله التي تدور حول أصلي «العدل» و«التوحيد».

* * *

- ٣ -

الرسائل والكتب التي ضمناها هذا الجزء من هذا الكتاب، قد اعتمدنا في تقويم نصها على نسختين إثنتين، مستقلة كل منهما عن الأخرى..

الأولى: وهي التي رمزنا لها بالحرف «أ» أثناء تحقيق النص موجودة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، وعنوانها: (كتاب المجموع من كتب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين)، ومنها «ميكروفيلم» بدار الكتب المصرية رقمه (٢٢١٨) ولقد قمنا بتصويرها وتكبيرها والاعتماد عليها في التحقيق. وتاريخ هذه النسخة يعود إلى القرن السابع الهجري (٦٤٨ هـ) والأصل المأخوذة عنه يعود تاريخه إلى القرن الخامس الهجري (سنة ٤٧٦ هـ)[1]، وخطها من نوع الخطالقديم المختلف مع الخطالنسخ في عدة مسائل منها رسم الهاء، وقواعد الإعجام وحروف المد.. الخ.. الخ..

وهذه النسخة مراجعة على الأصل المأخوذة عنه، وقد تكون مراجعة على غيره، والمراجعات مثبتة بهوامش صفحاتها وبين السطور.. وعدد صفحات هذه النسخة يزيد على المائة والستين صفحة، وتشمل نحواً من ثلاثين رسالة وكتاب ومسألة للإمام يحيى.

والثانية: مصورة موجودة بدار الكتب المصرية لنسخة أخرى من (مجموع كتب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين)، خطها نسخ، وتاريخ نسخها سنة ١٠٤١ هـ، وهي نسخة مستقلة عن النسخة «أ» تمام الاستقلال.. ولقد ثبتت لنا هذه الحقيقة بأدلة كثيرة، منها الاختلافات أثناء المقابلات في تقويم النص، ومنها

(١) اللوحة رقم ١٧٧ من النسخة أ.

بريبب ورود الرسائل والكتب في (المجموع)، ومنها وجود رسائل في «أ» ليست في هذه، وبالعكس.. الخ.. الخ..

وهذه النسخة، كالسابقة، مراجعة على أصلها، وقد تكون مراجعة على غيره، والمراجعات مثبتة بالهوامش وبين السطور، أحياناً بخط الناسخ، وأحياناً بخط مغاير لخط الناسخ. وقياس لوحات هذه النسخة ٢٨ ×١٨ سم، ولقد رمزنا لها بالحرف «ب» أثناء التحقيق[١].

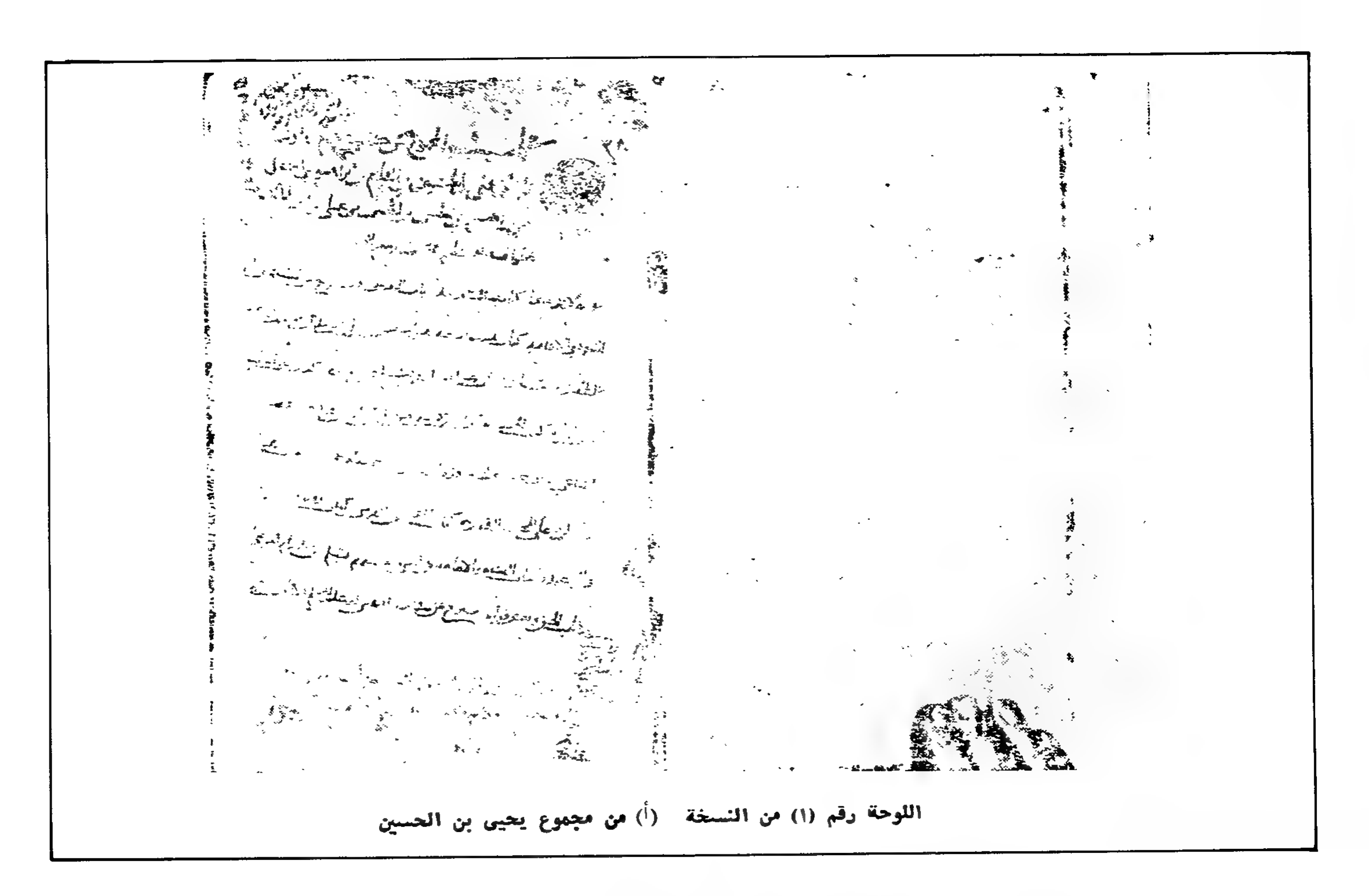
* * *

ولقد كانت النسختان وافيتين تمام الوفاء بالمطلوب لتقويم النص تقويماً تطمئن إليه النفس كل الإطمئنان، ولقد أشرنا إلى السقط الذي حدث بإحداها، والذي استكملته الأخرى، وكذلك إلى الرسائل التي انفردت بها إحداها وخلت منها الأخرى، أشرنا إلى كل ذلك في مكانه.. كما التزمنا في هوامش هذه الطبعة ترقيم لوحات النسخة الأم - «أ» - فيما عدا اللوحات التي انفردت بها النسخة «ب». ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى ما نبغي في هذا المقام.

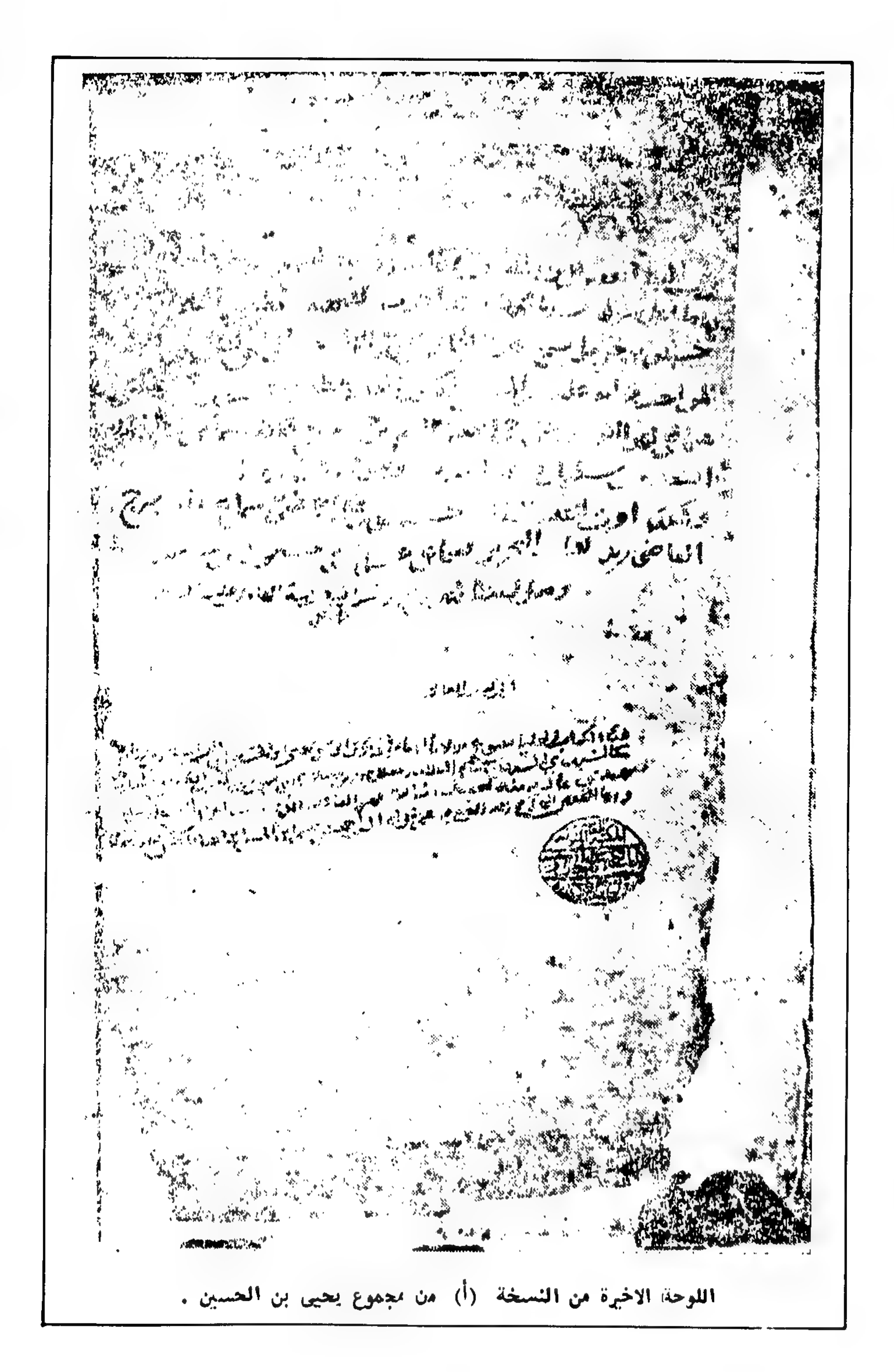
محمد عمارة

---

(١) لهذه النسخة أصل أثري مشوه رقمه (٣٨ علم الكلام) بمكتبة جامع صنعاء، أشار إليه في أولى لوحات المصورة المشرف على تصويرها المرحوم الاستاذ فؤاد سيد



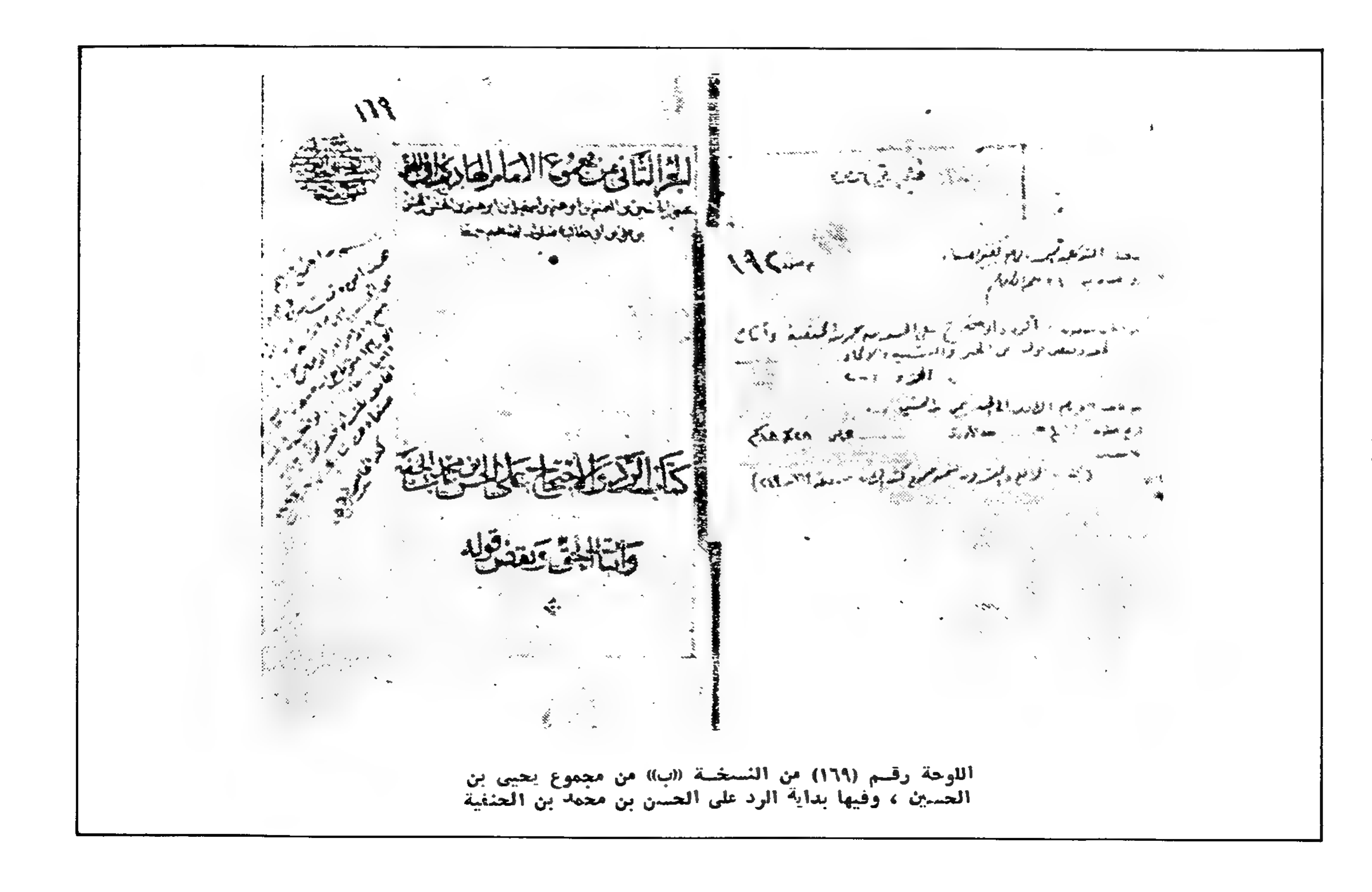
اللوحة رقم (1) من النسخة (أ) من مجموع يحيى بن الحسين



اللوحة الاخيرة من النسخة (أ) من مجموع يحيى بن الحسين .



اللوحة رقم (١٣٨) من النسخة (أ) من مجموع يحيى بن الحسين ، وفيها تظهر الاضافات التى حدثت كثمرة لمراجعتها على نسخة اقدم منها .


الجزء الثاني من مجموع الإمام الهادي

كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية

وإثبات الحق ونقض قوله

اللوحة رقم (١٦٩) من النسخة «ب» من مجموع يحيى بن الحسين ، وفيها بداية الرد على الحسن بن محمد بن الحنفية

الرد
على المجبرة القدرية

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

الحمد لله ، أحق ما افتتح به رد الجواب ، وخوطب به ذوو الألباب ، حمداً يوصل إلى جنته ، ويوجب المزيد من فضله ، فإليه أرغب في الصلاة على محمد ، صلى الله عليه وعلى آله.

سألتَ يا بني ، أرشدك الله ووفقك ، وسددك للفهم وعلمك ، عما اختلف فيه الناس ، وكثر فيه عند أهل الجهالة الإلتباس ، حتى نسبوا الله فيه إلى أقبح الصفات ، وبرأوا أنفسهم من ذلك وصانوها بزعمهم عنه ، واستقبحوه ، وبلغوا أشد ما يكون من الغضب على من نسبهم إلى شيء منه ، ورضوا به في العزيز ، ودعوه به .

فزعموا أن الله شاء شيئاً ونهى عنه ، وأراد شيئاً ومنع منه ، وأنه أرسل رسله إلى جميع خلقه يدعوهم إلى أمر قد منعهم منه ، وذكروا من هذا شيئاً وضروباً يكثر شرحها ، وأنا مبين لك جميع ذلك وشارحه في مواضعه ، ومحتج لله ، سبحانه ، بالبراءة مما نسبوه إليه ، وسموه به ، يا بني ، حتى يصح لك فساد أمرهم وقبيح لفظهم ، بما فيه المنفعة والشفاء والبرهان ، والاكتفاء من كتاب الله الفصيح ، وبما يصح عند كل ذي لب صحيح .

---

(١) للإمام يحيى رسالة أخرى عنوانها (كتاب الرد على المجبرة والقدرية) وهي تشغل في النسخة أ اللوحات ٨٩ ـ ٩٩ ولقد اخترنا هنا هذه الرسالة (الرد على المجبرة القدرية) التي انفردت بها النسخة ب .

شُبه المجبرة

١ ـ زعم أهل الجهل أن الله، سبحانه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكذلك الله، عز وجل، وتأولوا ذلك بجهلهم على أقبح التأويل وأسمج المعاني، ولم يعلموا ما أراد الله، سبحانه، من ذلك، ولو ميزوا ما قبل هذه الايات وما بعدها لتبين لهم الحق ووضح.

* * *

فأما ما قال الله، سبحانه، مخبراً عن قدرته ﴿ **يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾[١]، ولم يقل أضللت ولا هديت في هذا الموضع، لأنه ذكر الضلال والتثبيت منه في موضع آخر، فانظر كيف ذكر ذلك وكيف قاله (ومن)[٢] فعله، فقال، سبحانه: ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء** ﴾[٣] كل هذا التثبيت والضلال لم يكن إلا مادة وزيادة للمؤمنين وحرباً ونقمة للظالمين. ألا ترى كيف يقول: ﴿**الذين آمنوا**﴾ ولم يقل: الذين ظلموا؟ غير أنه لم يُثَبِّت إلا المؤمنين والمستحقين اسم الإيمان بعملهم، ولم يضل إلا الظالمين المستوجبين اسم الضلالة بفعلهم.

* * *

ويخبر، سبحانه، عن قدرته في خلقه، وأنه أراد هدي المؤمنين وثبتهم، وأنه لا يغلبه شيء من جميع الأشياء إذا أراده من جهة الجبر والقسر لأهله، لكن الله، سبحانه، أخبر عن قدرته في خلقه، وأنه لو أراد أن يضلهم أو يهديهم جميعاً لكان ذلك غير غالب له، غير أنه لم يرد ذلك، إلا من جهة التخيير منهم والإختيار لعبادته

(١) النحل: ٩٣، المدثر: ٣١.

(٢) في الاصل: من، بدون «واو» العطف. (٣) ابراهيم: ٢٧.

والرغبة فيما رغبهم فيه والوقوف[1] عما حذرهم منه، وليخبر الجهال أن ما كان من العباد من الضلال (والعمى)[2] لو أراد أن لا يكون لأمكنه ذلك، وأن قدرته تبلغ كل شيء.

وإنما قوله: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ خبراً عن نفسه، وإثباتاً له القدرة على كل شيء، لكي لا يظن جاهل أن الله عاجز عن أن يمنع الضُّلاَّل من الضلالة، لأن في الناس متجاهلين كثيراً، ألا ترى إلى قوله، سبحانه، يحكي عن الجهال، إذ قالوا: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[3] فأراد، سبحانه، أن يثبت الحجة لنفسه على الجهال الذين يقولون مثل هذه المقالة فيه.

* * *

٢ ـ واحتجوا، أيضاً، بقول الله، سبحانه: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله﴾[4]، فصدق الله، عز وجل، لولا أنه أذن بالإيمان، وخلى بينهم وبينه، ما عرفوه، ولا دلّهم عليه، ولا أمرهم به ولا أرسل إليهم المرسلين حتى بيّنوا لهم فضله وشريف منزلته. فأي إذن أكبر وأفعل وأخطر مما فعل الله بهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾[5].

* * *

٣ ـ واحتجوا أيضاً بقوله، عز وجل ذكره: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾[6]، فصدق الله العظيم، لقد علم منهم أنهم لا يؤمنون، اختياراً منهم ومحبة للفسق، ولو أنهم كانوا عنده مطيعين «لا»[7] مستحقين للفسق ما سماهم به، وإنما حقت كلمته عليهم بعد فسقهم وصدهم عن أمره ونهيه، وبعد

---

(١) أي التوقف والامتناع.

(٢) يمكن أن تقرأ: والغي.

(٣) آل عمران: ١٨١.

(٤) يونس: ١٠٠.

(٥) الزمر: ٥٤، والاية مذكورة في الاصل خطأ هكذا: (آمنوا بربكم وأسلموا له).

(٦) يونس: ٣٣، والاية مذكورة في الاصل خطأ هكذا: (... كلمات ربك...).

(٧) في الاصل: بل.

الكفر منهم، لا الابتداء منه لهم، ألا ترى إلى قوله: «حقت كلمة ربك على الذين فسقوا﴾ ولم يقل، سبحانه، على الذين آمنوا، ولا: على المسلمين، وإنما معنى حقت كلمة ربك على الذين فسقوا: أي وجب عليهم حكمه ووعيده، وقوله: ﴿أنهم لا يؤمنون﴾، اختياراً منهم للكفر ومحبة له، وأنه قد حكم عليهم بالفسق وخالفوا عن أمره ونهية.

وأما قوله: ﴿ ادخلوا في السلم كافة ﴾[1]، يعني بكافة: جميعاً، فإذا كان أمره للجميع فكيف يدخل قوم في السلم قد أدخلهم فيه؟ وكيف يأمر قوماً بالدخول فيه وقد منعهم؟ هذا فعل «متعنت عتل»[2] لا ينفذ له أمر في شيء مما يأمر به ولا مما يريده، فتعالى الله عن ذلك أحكم الحاكمين.

* * *

٤ ـ ثم احتجوا بقوله، سبحانه: ﴿وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾، وجهلوا ما قبل ذلك من قوله: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[3]، وعبده من دون الله، وعُلِم ذلك منه ومن فعله، فأضله الله بعد ما فعل وبعد ما كان منه، ولعلمه أنه لا يؤمن ولا يدع ما هو عليه من الكفر. فهذا معنى علم الله به، لم يدخله العلم في شيء ولم يَحُلْ بينه وبين شيء، وإنما هو أخبر بإضلاله له والإضلال من الله إنما هو في إهماله وترك تسديده وتوفيقه للخير، ألا ترى كيف يقول، سبحانه، في موضع آخر: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾[4]، وذلك لعلمه، سبحانه، أنه قد استحوذ عليهم إبليس، وأحبوا ما هم فيه من الكفر والضلال حتى لم يتلفتوا إلى شيء مما يوعظون به ولا تعمل فيهم الموعظة، ولا يتدبرون ما هم عليه من الكفر الذي قد دخل في قلوبهم، فسواء أنذرتهم أم لم تنذرهم أو وعظتهم أم لم تعظهم لا يؤمنون، أي لا يصدقون بشيء مما تدعوهم إليه ولا يخافون مما تخوفهم منه، قد أعمت حلاوة الكفر أبصارهم وأصمت أسماعهم وختمت على قلوبهم حتى منعت

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) رسم الكلمتين في الاصل هكذا: منلعب عدلن.

(٣) الجاثية: ٢٢.

(٤) البقرة: ٦.

حلاوة الموعظة أن تصل أو تدخل في قلوبهم أو يلتفتون إلى شيء مما يعظهم به محمد صلى الله عليه وعلى آله.

* * *

٥ ـ واحتجوا، أيضاً، بقوله: ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾[١] وتأولوا في ذلك بأقبح التأويل، ولم يتدبروا الآية فيصح لهم فساد تأويلهم، وزعموا أن المصيبة هي الكفر وغيره من أعمال الإثم، وليس ذلك كذلك، لأن آخر الاية يدل على غير ما تأولوا وقالوا، وإنما أراد بقوله، سبحانه: ما أصاب الناس في الأرض من مصيبة، ولا أصابتكم في أنفسكم، إلا وقد علم الله ذلك من قبل أن يبرأ النفس، وهو خلقها برؤها، فمعنى ما في الدنيا من الافات التي تقع في الأموال والثمار وغيرها من المصيبات[٢] التي يكثر شرحها، ولم يرد بذلك، سبحانه، الإيمان والكفر والعصيان، ولو أراد، سبحانه، ما تأوله الجاهلون من الجبر على الإيمان والكفر، ما قال: ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾، و«كيف»[٣] يكون كافراً وفاسقاً من كان محسناً صابراً ومُيسَّراً بالخير. ألا ترى إلى تصديق ما قلنا في تمام الآية حين يقول: ﴿ **لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾[٤]. فصح عند كل «ذي»[٥] فهم أنه إنما أراد بهذا القول محن الدنيا وبلواها وفرحها وحزنها وكثرة المال ونقصانه، وزكاة[٦] ثماره، ولو كان مراده عز وجل بهذا القول الكفر والإيمان لم يقل: لا تأسوا على الإيمان إن فاتكم ولا تسروا به إن نلتموه ولا تفرحوا بفوات الكفر لكم، فأي سرور يسر العبد إذا لم يسره الإيمان؟ وأي فرح أعظم منه على العبد وأحلى من فوات الكفر له وتخلصه منه؟ والحجة في هذا نفسه قول من قال بما ذكرناه، ولم يقل: الذين إذا أصابهم الإيمان والكفر فقالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، فبهذا علمنا أن المعنى هو ما ذكرنا من محن الدنيا وآفاتها ولو كان على ما تاوله الجاهلون ما سُمِّي مصيبة ولا أمرهم بالصبر عليه للعلة

---

(١) الحديد: ٢٢.
(٢) أي المصائب والكوارث.
(٣) في الاصل هنا كلمة مشطوبة.
(٤) الحديد: ٢٣.
(٥) غير موجودة في الاصل.
(٦) أي نموها وزيادتها.

التي شرحت لك. كيف يجوز أن يأمرهم بالصبر على الكفر ويبشرهم بالثواب!؟ هذا أحول المحال.

* * *

٦ ـ واحتجوا، أيضاً، بقوله ﴿**إلا إن يشاء الله**﴾[1]، **فصدق الله**، لولا أنه يشاء لهم التعريف بالإيمان والكفر، ودلهم على ما عرفوه فعرفهم به، وأرسل إليهم المرسلين وحضهم على اتباعهم، ما عرفوا الإيمان من الكفر والرضى من السخط ثم قال في ذلك: ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم** ﴾[2]، فهذه إرادة الله ومشيئته في خلقه، لا ما قال به الجاهلون.

* * *

٧ ـ ومما احتجوا به، أيضاً: ﴿**فمنهم شقي وسعيد**﴾، فتأولوا ذلك على أحكم الحاكمين بأقبح التأويل، ولعمري لو نظروا ما في الاية من قبل هذا الكلام لأسفر لهم الأمر ولعرفوه، ألا ترى كيف يقول، سبحانه: ﴿ **يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد** ﴾[3]، يخبر، عز ذكره، أن ذلك الشقاء والسعادة إنما تكون في ذلك اليوم، يعني يوم القيامة لا أيام الدنيا، ولعمري أن يوم القيامة ليوم التغابن والحسرة والندامة، فمنهم ذلك اليوم شقي وسعيد، شقي قد شقي بعمله وبما وقع عليه من حكم الله له بالعذاب، وسعيد قد سعد في ذلك اليوم بعمله وبما قد حكم الله له به من الثواب. والشقي أشقى الأشقياء من شقي في ذلك اليوم، والسعيد أسعد السعداء من سعد في ذلك اليوم، وإنما أخبر الله، سبحانه، عن شقائهم وسعادتهم في ذلك اليوم، لا في الدنيا، ألا ترى كيف يقول: ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾[4] يعني يوم القيامة، ولو كان الأمر على ما ظنوا لكانت المخاطبة عند أهل اللسان والمعرفة على غير هذا اللفظ، وكان اسم الشقاء والسعادة قد انتظمهم قبل ذلك اليوم، وكانوا مستغنين عن إرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، ولم يكن لله سبحانه، عليهم حجة إذ كان المشقى

---

(١) الانسان: ٣٠، التكوير: ٢٩.

(٢) النساء: ٢٦.

(٣) هود: ١٠٥.

(٤) هود: ١٠٣.

لبعض والمسعد لبعض، والمدخل لأهل الشقاء في المعصية ولأهل السعادة في الطاعة. وهذا أقبح ما نسب إلى الله وقيل به فيه. فنعوذ بالله من الضلالة والعمى، ونسأله الرشد والهدى.

* * *

٨ ـ ومما يحتجون به أيضاً، قول الله، سبحانه: ﴿ **ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[١]، يقول: بفعلهم وعملهم حق عليهم قولي وثبتت عليهم حجتي، ووقع بهم العذاب، لأن قولي وحكمي بالعذاب قد سبق على من عصاني، ثم قال: ﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا، إنَّا نسيانكم، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾[٢]، فصدق الله، عز وجل، لو شاء أن يهديهم جميعاً من جهة الجبر لهم، لفعله ولم يغلبه ذلك، ولكن لم يشأه سبحانه إلا بالتخيير والاختيار، لانه لو جبرهم على ذلك وأدخلهم فيه غصباً كان المستوجب للثواب دونهم، ألا ترى إلى قوله، في آخر الآية، متبرئاً من فعلهم: ﴿ **وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾، ولم يقل بمشيئتي لكم، ولا: بقضاي عليكم، ولا بإرادتي فيكم، ولا: بإدخالي لكم في القبيح من الفعل.

فافهم، وفقك الله، ما شرحت لك.

والنسيان، من الله، هو الترك لهم والإمهال، تقول العرب: نسيت الشيء ونسأته، أي تركته ولم أفعله.

* * *

٩ ـ ومما يحتجون به، أيضاً، قول الله، سبحانه: ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم، أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[٣] فصدق الله، لو شاء ذلك لأمكنه أن يكرههم على الإيمان إن شاءوا أو أبوا، ولم يكن ذلك بغالب له ولا ما هو أعظم منه، إذ كان ذلك معجزاً وغالباً لمحمد صلى الله عليه وآله، لا يقدر

(١) السجدة: ١٣.

(٢) السجدة: ١٤.

(٣) يونس: ٩٩.

على ذلك منهم ولا يمكنه فيهم، فأخبر الله سبحانه أن ما لا تقدر عليه لو أراده هو، من جهة الجبر والإكراه، لامكنه، ولكنه لم يرد إلا من جهة التخيير منهم والإختيار والرغبة لما استوجبوا بذلك الفعل بثوابه وعقابه.

فافهم ذلك وميّزه إن شاء الله.

* * *

١٠ ـ ومما يحتجون به قول الله، سبحانه: ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾[1]، فصدق الله، عز وجل، في قوله، غير أنهم لم يفهموا التاويل، لانه يقول، سبحانه: ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾[2]، وليسوا من أولئك. وإنما أراد الله، عز وجل، أن ينقض على الكفار قولهم، لانه إنما كان الكفار إذا أصابهم مما يحبون من جميع الخير، مثل الخصب، وزكاء الزرع، وكثرة النسل، إبتداءً لهم من الله بالإحسان والمن وتوكيداً للحجة عليهم والإنعام، قالوا: «هذا من عند الله»، وإذا أخذهم الله بشيء من فعلهم وخبث نياتهم وعظم جرمهم وإكذابهم لمحمد، صلى الله عليه وآله، ولما جاءهم به، وابتلاهم الله بنقص الخصب وقلة المطر والزرع والنسل، قالوا: شؤم محمد ومن معه. فأخبر الله سبحانه، أن هذه الزيادة والنقصان في جميع ما ذكرنا من الله، فقال: ﴿**كل من عند الله**﴾ ثم شرح ذلك مبيناً للخبر: ﴿**فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾[3]، يقول: ثواب من الله، سبحانه، لكم على ما كان من الطاعة وخزي وعقاب منه، سبحانه، لكم على ما كان من أنفسكم من المعصية والعمل القبيح وترك الإئتمار لأمره، فيقول: ما أصابكم من الزيادة فيه والصلاح فمن نعم الله عليكم وبفضله وإحسانه إليكم، وما أصابكم من نقصان ذلك وفساده فمن قبيح أعمالكم وسوء نياتكم وإصراركم على المعاصي، وإنما دخل عليكم من أنفسكم لَمَّا فعلتم ما فعلتم حتى وجب

(١) النساء: ٧٨.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) النساء: ٧٨، ٧٩.

«الشنآن»[1] عليكم، بذلك الفعل، من الله، سبحانه. وهذا تفسير ما جهلوا من ذلك.

* * *

١١ ـ ومما يحتجون به، أيضاً، قول نوح، عليه السلام، لقومه عندما جادلهم في الله، فأكثر، فقالوا: ﴿**يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾[2]، فقال نوح، عليه السلام: ﴿ **إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون**﴾[3]، يقول لهم، صلى الله عليه: إن جدالي ونصحي لا ينفعكم إذا جاءكم عذاب ربكم ونزل بكم، لأنه لا يرد عذاب الله، سبحانه، إذا نزل بقوم، وهي سنته في الذين خلوا، لا يقبل توبتهم إذا نزل العذاب بهم، وكذلك إذا أراد الله أن يغويكم، فالإغواء من الله العذاب، فيقول: لا ينفعكم نصحي إذا نزل بكم إغواء الله وهو عذابه، كما قال، عز وجل، في موضع آخر: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا**﴾[4]، ولم يُرِدْ نوح، عليه السلام، بالإغواء ما تأوله الجاهلون من الضلال لهم وإمدادهم بالغي والتمادي والكفر وإنما أراد بالاغواء العذاب النازل، ثم كذلك الإغواء في جميع ألسن العرب: لقيت غياً، أي عذاباً وبغياً، ولقي فلان غياً، كل هذا تحذير لهم لنزول العذاب بهم، وأنه لا تنفعهم نصيحة، إذا نزل العذاب بهم، لم يصرف عنهم. كذلك قال الله، سبحانه: **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون**﴾[5] وكثير مثل ما ذكرنا في القرآن مما احتجوا به وتأولوه على غير ما أنزل الله، وفي فساد ما أفسدنا عليهم من تأويلهم فيما ذكرنا واحتججنا عليهم به ما يغني عن كثير من حججهم وقبيح تأويلهم وباطل قولهم.

---

(١) النون الاخيرة غير واضحة الرسم، والكلمة في الاصل مصححة بين السطرين بغير خط الناسخ، والتصحيح مشطوب، ومعناها الغضب.

(٢) هود: ٣٢.

(٣) هود: ٣٣، ٣٤.

(٤) مريم: ٥٩.

(٥) عافر: ٨٥.

القرآن يشهد لاهل العدل

١ ـ وقد قال الله، سبحانه، محتجاً على من نسب مثل ما نسبوا إليه في كثير من القرآن وفي مواضع هي أكثر مما احتجوا به وتاولوه. فقال، سبحانه: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والاحسان و إيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[١]، وقال، عز ذكره، مكذباً للمشركين ولمن قال بقولهم، ومحتجاً عليهم ومخبراً بإفكهم وعوارهم: ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٢]، ثم قال، عز ذكره: ﴿ **وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾[٣]، ينفي عن نفسه، عز وجل، ما أسندوا إليه من خلقهم شقياً وسعيداً، ومن أن يضلهم بعد أن كان منه من الإبتداء لهم بالإحسان والدعاء والدلالة على الهدى وعلى ما يحب وعلى ما يكره وما يحذرون وما يتقون، فإذا تبين لهم ذلك فصدوا عنه حقت عليهم كلمة الضلال وحاق بهم الإضلال من الله بذنوبهم ودنيء فعلهم، ثم نسب من نسب إليه هذا القول وقال به عليه إلى قول الذين أشركوا: ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إنْ تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون * قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾[٤]، يقول: مثل هذا القول قاله الذين من قبل هؤلاء حتى نزل باسنا وذاقوه، وذلك أنهم كانوا يعملون الخبائث والمعاصي فإذا نُهوا عنها وقال لهم أنبياؤهم ومن يتبع الأنبياء: لا تفعلوا، ولا تعصوا ربكم، قالوا: لو شاء ما اشركنا ولكنه أدخلنا في المعصية وقضاها علينا، فاخبر الله، عز وجل، أن ذلك ليس

(١) النحل: ٩٠.
(٢) الاعراف: ٢٨.
(٣) التوبة: ١١٥.
(٤) الانعام: ١٤٨.

كذلك، وأنهم كانوا في ضلال وتكذيب لمن يقول لهم إن الله لم يامرهم ولم يقض عليهم بالمعصية حتى ذاقوا بأسه وهو عذابه، وتبرأ من ذلك، وعلم أنه لو كان شاء لهم الإشراك ما نزل بهم بأسه، ثم قال، محتجاً عليهم: **﴿هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾**، يقول: من علم عن الله فبينوا لنا أن هذا الفعل والقول والمشيئة من عند الله، ثم قال، مكذباً لهم أيضاً: **﴿ إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾**[1]، يقول: ان يتبعون الا أهواءهم بما يظنون، وان هم الا يخرصون، أي يكذبون في قولهم على أنه شاء لهم ومنهم الكفر وأنه لو شاء ما أشركنا ولكنه أدخلنا فيه ومنعنا من الدخول في الطاعة، ثم قال: **﴿ فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾**[2]، يقول: فلله الحجة بما قدمه إليهم ودعاهم إليه وأنذرهم على ألسن رسله، صلوات الله عليهم، ثم قال: «فلو شاء لهداكم أجمعين»، يعني يجبركم جميعاً على الهدى، ولكنه لم يشأ ذلك إلا بالتخيير منكم والإختيار له، وكذلك أرسلَ إليكم الرسل وأمركم بطاعتهم وحذركم معصيتهم، ولو شاء لكم الايمان بالجبر منه والإكراه والمنع لكم ما احتاج أن يرسل إليكم رسله ولا يدعوكم إلى طاعته لأنه إذا أجبركم على ما يريد ولم يمكنكم ولم يفوضكم ولم يجعل لكم إرادة ولا قوة ولا استطاعة فهو الذي يجبركم على ما يريد ولا خيار لكم ولا حاجة له ولا لكم إلى الرسل ولا إلى الدعاة لأنه قد أشرككم فيما يريد من خير وشر، ومن كانت هذه حاله فإنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، غير ملوم في عمل الشر ولا محمود في عمل البر ولا حجة عليه، فإن عذب على قبيح فقد ظلم وإن أثيب «لم»[3] يستأهل ثواباً على جليل الطاعة، وليست هذه الصفة من صفة الحكماء، ألا ترى إلى قوله: **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾**[4]، فاخبر، سبحانه، أنه لم يخلقهم إلا لعبادته ولم يخلقهم لمعصيته، ولم يُشْقِ ولم يسعد ولم يجبر ولم يَطْبَع أحداً على شيء من هذا ولم يُسَمِّ مؤمناً ولا كافراً إلا بإيمانه وكفره وفعله، لا بخلقه، عز وجل، لأنه ليس بظلام للعبيد، ولو طبعهم على شيء من هذا كان المحسن غير محسن

(١) الأنعام: ١٤٨.
(٢) الأنعام: ١٤٩.
(٣) في الاصل: فلم.
(٤) الذاريات: ٥٦.

والمسيء غير مسيء، لأن كل من فعل به شيء وأدخل فيه غصباً كان غير محمود عليه ولا مذموم فيه، وكان المحسن ليس بأحق باسم الإحسان من المسيء ولا المسيء بأحق باسم «السوء به»(1) من المحسن، والتبس الأمر فيما بينهما وأمكن «لكل أن يدعي»(2) ما أحب، لو قال المسيء: «أنا محسن لأمكنه ذلك، ولما عُرِف المسيء من المحسن على قولهم وقياسهم، ثم قال، سبحانه: ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يُجْزَ به** ﴾(3)، يقول: يعمل، ولم يقل: عملت به وقضيت عليه، وإنما كان أهل الكتاب، يعني اليهود وغيرهم من أهل الكتاب يقولون: ليس يعذبنا الله بعمل ما شئنا، نحن أبناء الله وأحباؤه، فكذبهم الله وأعلمهم وغيرهم أنه لا يظلم أحداً، وأنه من عمل شيئاً جزي به.

* * *

٢ ـ ثم قال، سبحانه: ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾(4)، يقول: بدلوا ما أنعم الله به عليهم من إرسال الرسل والدعاة والدلالة على الخير كفراً بذلك، أي حجدوا به، ودعوا الناس إلى المعصية والكفر به وأحلوهم، ثم قال، مخبراً لهم محتجاً عليهم: ﴿ **ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن** ﴾(5)، والله أعدل وأحكم من أن ينهى عن شيء وهو منه، أو ينهى عبداً عن شيء قد أراده، أو عن شيء لا يقدر على عمله أو على الخروج منه، أو يأمرهم بشيء لا يمكنهم الدخول فيه، ولم يكلف الله عباده إلا ما يقدرون عليه ويطيقونه برحمته ورأفته وفضله، وكل ما نهى الله عنه فليس منه ولم يشأه، ألا ترى إلى قوله، عز وجل: ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾(6)، معنى الكفر ها هنا: الجحود له ولنعمه وفضله عليهم الذي ابتدأهم به، وإن يشكروا أي يطيعوا فيعملوا بطاعته يرضى ذلك الفعل منهم ويثيبهم عليه.

* * *

---

(1) في الاصل: السواية.

(2) في الاصل رسمها هكذا: كل د مدعي.

(3) النساء: ١٢٣.

(4) ابراهيم: ٢٨.

(5) الانعام: ١٥١.

(6) الزمر: ٧.

٣ ـ ثم قال، أيضاً: ﴿ **فأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾[١]، يخبر، عز ذكره، ويبين أن الذنوب من العباد بالإختيار والاستحباب منهم، وأنه قد هداهم فاستحبوا الكفر وآثروه على ما فعل بهم من الهدى، ثم قال: ﴿ **والذي قدر فهدى** ﴾[٢]، أي ابتدأ الخلق بما ذكرنا من الدلالة لهم على الخير والهدى.

ثم قال، عز وجل، لنبيه، عليه السلام، متبرئاً من الضلالة مسنداً لها إليهم: ﴿ **قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي إنه سميع قريب** ﴾[٣]، معنى ذلك: إن ضللت فإنما أضل من نفسي، «على» تقوم مقام «من»، لأن حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً، وهذا كثير في أشعار العرب، قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت لدى لجج خضر لهن نئيج[٤]

يريد: من لجج، فجعل مكانها: «لدى»، وكذلك حروف الصفات يخلف بعضها بعضاً، أفترى محمداً يضل من نفسه ويهتدي من الله، وهذا الخلق يضلون من عند الله؟ معاذ الله، كيف ننسب هذا الفعل القبيح والاسم إلى الله والظلم ونبرىء منه أنفسنا، والله، عز وجل، يقول: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾[٥]، ثم قال، عز وجل: ﴿ **قل أمر ربي بالقسط** ﴾[٦]، وقال: ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[٧]، ولم يقل: وقضى ربك أن تكفروا به وتعبدوا سواه من الحجارة والنار وغيرهما من المعبودات، فكان أمره وقضاؤه ومشيئته أن لا يعبدوا غيره بالتخيير من العباد لا من جهة الجبر لهم على تركها، فقال: ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطئاً كبيراً** ﴾[٨]، ثم قال أيضاً: ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان**

---

(١) فصلت: ١٧. (٢) الاعلى: ٣.
(٣) سبأ: ٥٠.
(٤) النئيج، للريح: الخفيف، وللحيوان: الخوار، وهذه بعض معانيها.
(٥) الاعراف: ١٨٠.
(٦) الأعراف: ٢٨، والآية مذكورة في ب خطأ، وهي فيها هكذا: (قل أمرني...)
(٧) الاسراء: ٢٣. (٨) الاسراء: ٣١.

فاحشة وساء سبيلا ﴾[1]، ثم قال، عز وجل: **﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾**[2]، **﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾**[3]، ثم قال: **﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾**[4]، ثم قال: **﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾**[5]، أفترى الله، سبحانه، قضى أن يجعل معه إلهاً آخر ورضي ذلك أو أراده أو شيئاً مما ذكرنا من قتل المشركين أولادهم، ثم عظم ذلك وذم عليه فاعله أشد الذم، ورضي بالزنا ثم قال: «إنه كان فاحشة وساء سبيلا»، وبقتل النفس بغير حق، أو بأكل مال اليتيم، أو الكذب، ثم قال: **﴿كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾**، فان كان قضاه، سبحانه، فكيف يسألهم عن شيء هو فعله بهم؟ وإن كان منهم فالسؤال لازم لهم والحجة عليهم، وإن كان منه، فكيف يسألهم عن فعله؟. هو سبحانه، أعلم بما يفعل بهم منهم بأنفسهم.

أنظر إلى تبيان ذلك: كيف يقول وينذر الذين قالوا: **﴿ اتخذ الله ولداً، ما لهم به من علم ولا لآبائهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾**[6]، أفترى الله، سبحانه وتقدست أسماؤه، قضى وأمر وشاء وأراد أن يقول الجاهلون: إنه اتخذ ولداً، ثم قال: كبرت كلمة تخرج من أفواههم؟ فكيف تكون كبيرة وهي قضاؤه وأمره؟ ثم قال: إن يقولون إلا كذبا، فكيف يقضي عليهم، سبحانه، بالكذب، أو يكذب نفسه، تعالى عن إكذاب نفسه وظلم عباده، فهو يتبرأ منه وينسبه إلى عباده.

ثم قال لنبيه، عليه السلام، عندما عَظُم إشراكهم عنده: لعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا، فلا تفعل بنفسك ذلك، فإنا قادرون على جبرهم وقسرهم على الإيمان، ثم قال: **﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾**[7]، فقال، مفوضاً إليهم: **﴿ فمن شاء**

---

(١) الاسراء: ٣٢.
(٢) الانعام: ١٥١، الاسراء: ٣٣.
(٣) الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤.
(٤) الإسراء: ٣٦.
(٥) الاسراء: ٣٩.
(٦) الكهف: ٤ ـ ٦.
(٧) الكهف: ٢٩.

فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، أفتراه قال هذا القول وقد منع «الكافرون»[1] من الدخول في الايمان، وحال بين الفريقين وبين المشيئة والإختيار لأنفسهم، ثم قال، ساخراً منهم مستهزئاً بهم: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. معاذ الله، ما كان ربي بظلام للعبيد، لكن مكنهم وأعطاهم من القوة والإستطاعة ما مكنهم به من الايمان والكفر، ورغبهم وحذرهم ومكنهم وفوضهم، ثم قال، حينئذ: من شاء الكفر فقد جعلت السبيل إليه، ومن شاء الإيمان فقد جعلت له الطريق، ثم أعلمهم أن الكفر ظلم لأنفسهم وأنه قد أعد للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، زيادة لهم في الوعيد على معاصيه، ثم قال: **﴿ إنْ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾**[2] فأخبر أنه لا يضيع أجرهم إذا عملوا حسناً، ترغيباً منه لهم بالوعد على طاعته وترك معصيته ولو كان قضاه عليهم: عملوا، لأنهم مجبرون على ذلك الحسن، ومن جبر على شيء فغير محمود فيه، ولو كان ذلك كذلك لم يقل: **﴿ إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾**، كيف يكونون أحسنوا عملاً وهو المحسن لهم والحاتم عليهم.

٤ ـ ثم ما أقبح ما أسند أهل هذا القول إلى الله، سبحانه. ثم قال: **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾**[3]، فأخبر، سبحانه، أن الفحشاء والمنكر من الشيطان، وتبرأ منهما، ونسبهما إلى غيره، ووعد من اتبعه العذاب. فالله يبرىء نفسه من كل ظلم وفحشاء ومنكر وباطل وإضلال، والجاهلون يلزمونه ذلك.

٥ ـ وقال: **﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه؟ أفأنت تكون عليه وكيلا؟ ﴾**[4]، كل هذا يخبر عنهم بالقدرة على المعصية والفعل لها، وأن ذلك ليس منه ولا أراده، لأنه أكرم من أن ينهى عن شيء وهو يريده أو يأمر بشيء وهو يريد غيره، أو يحمل العباد عليه، وكل ما نهى الله عنه فليس منه، وكيف يكون منه ما نهى عنه؟ هذه صفة اللعابين، تعالى الله عنها علواً كبيراً. وقال، مخبراً ومخيراً: **﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها، وهم من فزع يومئذ آمنون، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم**

---

(١) في الاصل: الكفرين.
(٢) الكهف: ٣٠.
(٣) النور: ٢١.
(٤) الفرقان: ٤٣.

في النار، **هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون**﴾[1]، فأخبر سبحانه، أنه يجزيهم بفعلهم في الحسنة والسيئة لا بفعله بهم وقضائه عليهم، وأن ذلك منهم وفيهم، ألا ترى كيف يقول: ﴿**هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون**﴾؟ أي لم يظلمكم ولم يجزكم إلا بعملكم لا بغيره، توفيقاً منه لهم وتبرياً من الظلم إليهم، فلو كان قضى ذلك عليهم لما كانت عليهم حجة ولا تبرأ، سبحانه، من فعله ونسبه إليهم، إذ كان ذلك أكبر الظلم لهم، تبرا الله عن ذلك، ولم ينزهوه عنه فقد ظلموا أنفسهم، ثم قال، أيضاً: ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها، ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾[2]، وهذا، أيضاً، القول فيه كالقول في الذي قبله، ثم قال: ﴿ **أم حسب الذين عملوا السيئات أن يسبقونا، ساء ما يحكمون** ﴾[3]، يقول: أم حسب الذين يعملون المعاصي أنهم يغلبون ويسبقون إلى العمل بها، ولو شئنا ما سبقونا إليها ولا (غلبونا)[4] بها، فكل هذا يُعَلِّم أنه بريء من أفعال العباد وأنها منهم بغير أمر له إلا بما فوض إليهم ومكنهم وخيَّرهم، ثم قال، لا شريك له: ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إنّ الله لغني عن العالمين** ﴾[5]، وقال: ﴿ **من كفر فعليه كفره، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون** ﴾[6]، فانظر كيف تبرأ في جميع الحالات من أعمال العباد، يخبر أنها منهم لا منه وأنه يجزيهم بفعلهم وعملهم لا بقضائه ولا بفعله، ولا شيء كان منه مُدْخِلاً لهم في شيء من هذه الأعمال.

وقال في قصة لقمان، صلى الله عليه: ﴿ **إنّ الشرك لظلم عظيم** ﴾[7]، أفترى الله سبحانه استعظم الشرك وهو منه وقد قضاه وقدره وحتم به على فاعليه واستعظمه منهم وهو قضاه عليهم وحتمه في رقابهم وأدخلهم فيه، يا سبحان الله!! ما أقبح هذا من القول والصفة في بني آدم فكيف في الحكَم العدل؟

٦ ـ وقال: ﴿ **لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر** ﴾[8]، أفتراه لم يجعل فيهم مقدرة على التقدم ولا على التأخر، وهو يقول: ﴿**لمن شاء منكم أن يتقدم أو**

---

(١) النمل: ٨٩، ٩٠.
(٢) القصص: ٨٤.
(٣) العنكبوت: ٤.
(٤) غير واضحة الدلالة في الاصل.
(٥) العنكبوت: ٦.
(٦) الروم: ٤٤.
(٧) لقمان: ١٣.
(٨) المدثر: ٣٧.

يتأخر﴾، ثم قال: ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾[1] وقال: ﴿ **لننظر كيف تعملون**﴾[2]، فلو كان الأمر على ما يقول الجاهلون ما كان إليهم تقدم ولا تأخر ولا احتاجوا إلى بلوى ولا لينظر عملهم، فكان بكل ما يدخلهم فيه عالماً أنهم لا يقدرون على غيره، وأي مشيئة لهم حين يقول ﴿**لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**﴾؟ وكيف لهم بالتقدم والتأخر وقد منعهم من ذلك وحال بقضائه وحكمه عليهم بينهم وبين ما أمرهم به من التقدم والتأخر، ومعنى ننظر أي نحكم عليكم بما يكون من خبركم، وكتاب الله كله على ما ذكرت من ثواب الله لعباده وعقابه لهم كل بما كانوا يعملون وبما كانوا يكسبون وبما كانوا يجحدون وبما كانوا يصنعون، لم يقل، عز وجل، في شيء منه: بقضاي عليكم ولا بمشيئتي ولا بإرادتي ولا بقدرتي فيكم، ولا بإدخالي لكم في الطاعة ولا بإخراجي لكم من المعصية. كل هذا بيّن أن ثوابه وعقابه على عملهم، والكتاب، كما قلنا، يُصَدِّق بعضه بعضاً، ليس من كتاب الله شيء ينقض شيئاً، لأنه من حكيم عليم، ولولا ذلك لكان فيه الإختلاف، كما قال، سبحانه: ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[3].

٧ ـ ثم قال: ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾[4]، فكيف يقضي بالفواحش ثم يقول: قد خاب من دساها، أفتراه خَيَّب نفسه؟! تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ثم قالوا: ﴿ **ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار** ﴾[5]، وتعالى عن أن يقول هذا لنفسه ولكن قَدَّمه شياطين الانس والجن، ألا ترى إلى قوله: ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾[6]، اعترافاً منهم بذنوبهم وأن عملهم وما نزل بهم من العقوبة كان بطاعتهم لسادتهم وكبرائهم، ولم يقولوا، وقد احتاجوا إلى الحجة لعظم ما نزل بهم: ربنا أطعناك واتبعنا قضاءك وأمرك وما قدرت لنا، ولو كان ذلك ما تركوا قوله لما لهم فيه من الحجة على الله سبحانه، والسبيل (هو)[7] سبيل القصد والخير، ألا ترى كيف يقول: ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا** ﴾[8]، يقول: دلَلْناه على سبيل الخير، فإن شكر فذلك واجب عليه ولنفسه

---

(١) محمد: ٣١.
(٢) يونس: ١٤.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) الشمس: ١٠.
(٥) ص: ٦١.
(٦) الاحزاب: ٦٧.
(٧) في الاصل: فهو
(٨) الانسان: ٣.

يعمل ويمهد، وإن كفر بما قلنا به فذلك راجع ضرره عليه، وإن الله غني حميد عن شكره، وإنما ثواب شكره راجع عليه ونافع له.

٨ ـ وقال، سبحانه: ﴿ **ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾[١]، أفترى الله، سبحانه، أراد بهذا القول نفسه، إن كان، في قولهم، هو المضل لعباده؟ سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. ما أفحش ما يسندون إلى الله!!.

٩ ـ ألا ترى إلى ما يقول آدم، عليه السلام، عند ما كان منه: ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[٢]، أفترى آدم، عليه السلام، استغفر ربه من قضائه عليه وقدره وحتمه لمعصيته عليه أم من ذنب عمله هو من نفسه والله بريء منه؟ أو ترى أن الله نهاه عن أكل الشجرة وقد قضى عليه أكلها وحتمه في رقبته، ولو كان ذلك كذلك ما أقر عليه السلام، على نفسه بالخطيئة، ولقال: هذا قضاؤك عليّ ومشيئك، وإنما أخطأت وأكلت من الشجرة، ولولا قضاؤك ومشيئتك ما قَدَرْتُ على أكلها، فلعلمه بالله أقر، صلى الله عليه أن الخطيئة كانت منه، وبَرَّأ ربه منها، تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.
وكذلك قال موسى، عليه السلام، لما وكز الرجل فقضى عليه، فقال موسى عند ذلك: ﴿ **هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** ﴾[٣]، ولم يقل هذا من قضاء الله عليّ ولا من تقديره فيّ ولا من إضلاله لي، فبرأه، سبحانه، من ذلك ونسبه إلى الشيطان وإلى نفسه، فقال: ﴿ **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي** ﴾[٤].

فهذا قول أنبياء الله، يلزمون أنفسهم الخطايا، ويبرئون من ذلك خالقهم، والجهال يبرئون أنفسهم من ذلك ويلزمون الذنوب خالقهم.

١٠ ـ وانظر إلى قول الله، سبحانه: ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾[٥]، أفترى الله، سبحانه، يعني

---

(١) فصلت: ٢٩.
(٢) الاعراف: ٢٣.
(٣) القصص: ١٥.
(٤) القصص: ١٦.
(٥) الزخرف: ٣٨.

نفسه بذلك أم يعني مجترم الذنب؟ تعالى الله من أن يضل أحداً أو يكون له أحد قريناً.

ثم أخبر عن كفرهم وقولهم الكذب على الله، وأنه غير راض بذلك فقال: ﴿ **ألاَ إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبـون** ﴾[1]، أفتـرى الله أمرهم بالكذب عليه وقضاه عليهم ثم تبرأ من شيء هو فعله ورمى به غيره، سبحانه، ألا ترى كيف يقول، عز وجل: ﴿ **ثم يرم به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾[2]، أفترى الله، عز وجل، بهتهم بما لم يفعلوا وظلمهم بما لم يعملوا، ووصف نفسه باحتمال البهتان والإثم المبين؟ كذب من قال على الله بهذا القول.

١١ ـ وقال، تقدست أسماؤه: ﴿**(إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس)**﴾[3] **بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنت عليهم بوكيل** ﴾[4] فبين لهم أنه بريء من فعلهم، وأنه إنما يجزيهم بما يكون فيهم بعد التبيين لهم والترغيب والتحذير، ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيٍّ عن بينة وإن الله لسميع عليهم** ﴾[5]، أي من أهلك نفسه بالمعصية بعد ما عرفها فهو الهالك المُهْلِك لها، لأنه مدخل لنفسه فيها، ومن أحياها بالطاعة فقد عرف طريق الطَّاعة بما قلناه من تعريف الله لهم الطريقين وهدايته لهم النجدين لكيلا يكون لأحد على الله حجة.

١٢ ـ ثم قال، عز وجل: ﴿ **لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتكم بعذاب وقد خاب من افترى** ﴾[6]، أفتراه يعني نفسه بهذا السحت؟![7] ثم قال: ﴿ **ولا تقولوا ثلاثة** ﴾[8]، أفترى الله نهاهم عن قبيح اللفظ به وهو أمرهم به؟ وكره منهم أن يقولوا: ﴿ **ثالث ثلاثة** ﴾[9] وهو قضاه عليهم وشاءه منهم وأراده لهم؟! جلَّ الله عن هذه الصفة المشبهة لصفات اللعابين المتلعبين.

---

(١) الصافات: ١٥٢.
(٢) النساء: ١١٢.
(٣) غير موجودة في الاصل.
(٤) الزمر: ٤١.
(٥) الانفال: ٤٢.
(٦) طه: ٦١.
(٧) من معانيه: العذاب والهلاك والاستئصال.
(٨) النساء: ١٧١.
(٩) المائدة: ٧٣.

١٣ ـ وقال، أيضاً، لنبيه عليه السلام: ﴿ **لِمَ تحرم ما أحل الله لك؟** ﴾[١] أفترى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، حرم ما أمر الله بتحريمه وقدره عليه وقضاه له ثم (يخبره)[٢] عن ذلك التحريم فينهاه عنه ويعاتبه فيه ويعيبه عليه، وهو الذي أدخله فيه وقضاه عليه؟! معاذ الله أن يكون هذا أبداً، لكن هذا التحريم كان من فعل محمد لا من فعل الله، ألا ترى إلى أمر الله سبحانه له بترك ما لم يرضه من فعله في ذلك، وأمره أن يرجع إلى ما أحلَّ له، ويكفر يمينه، فقال: ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾[٣]، ثم قال، سبحانه: ﴿ **وقال قرينه هذا ما لديَّ عتيد، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، منَّاعٍ للخير مُعتدٍ مريب، ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد** ﴾[٤]، ثم قال، سبحانه: ﴿ **قال قرينه: ربنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد، قال: لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[٥]، وقال: ﴿ **والذي جعل مع الله إلهاً آخر** ﴾، أفترى الله سبحانه الذي أضله وأمره أن يجعل معه إلهاً آخر، ثم يقول ألقياه يعني: الضال والمضل، أفتراه أراد بهذا نفسه، إذ كان في قولهم أنه المضل لهم والمدخل لهم فيما دخلوا فيه من خير وشر، فكيف وقد تبرأ في آخر الآية: فقال: ﴿ **لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾، ولم يقل، سبحانه: لا تخاصموني ولا تحتجوا عليّ، لأنهم لم ينسبوا إليه شيئاً من الظلم ولا من الضلال لهم ولا من إدخالهم في شيء مما نهاهم عنه، وإنما نسب ذلك بعضهم إلى بعض، ولو نسبوا إليه كانت الخصومة معه لا مع غيره، وكانت الحجة لهم والقول عليه، ألا ترى إلى قول المذنب الذي جعل مع الله إلهاً آخر كيف يلزم الذنب غير ربه؟ وكيف لم يقل: أمرني ربي أن أجعل معه إلهاً غيره؟ ثم قال: ﴿ **كل كفار عنيد مناع للخير** ﴾ أفترى أن هذه الصفات كلها، القبيحة، وصف الله بها نفسه؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

١٤ ـ ثم قال، سبحانه: ﴿ **وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم**

---

(١) التحريم: ١.
(٢) في الاصل: نستخبره.
(٣) التحريم: ٢.
(٤) ق: ٢٣ ـ ٢٦.
(٥) ق: ٢٧ ـ ٢٩.

شركاؤهم﴾[1] هم غيره فقد برأ نفسه، سبحانه أن يضل ويزين شيئاً من أراد بذكر الشركاء غيره من المغْوِين أم نفسه بهذا التزيين؟ فإن كان شركاؤهم هم غيره فقد برأ نفسه، سبحانه أن يضل ويزين شيئاً بهذا القول، وهذا غير معروف في اللغة، يذكر غيره ويخاطبه وهو يريد بالذكر نفسه، هذا محال في القول لا يقبله العقل.

١٥ - وانظر إلى قوله: فيما يحكيه عن الهدهد، فقال: **﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ﴾**[2]، ولم يقل زين الله لهم السجود للشمس، ولا أنه صدهم عن السبيل.

وكل نبي أو غيره ممن عقل يبرىء الله، سبحانه، من الذنوب ويستغفره منها ويسند الخطأ فيها إلى نفسه، ألا ترى إلى قوله، سبحانه لموسى،صلى الله عليه: **﴿ اذهب إلى فرعون إنّه طغى، فقل: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى، فأراه الآية الكبرى، فكذب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾**[3]، أفترى الله، تبارك وتعالى، الذي أضل فرعون وأدبره عن الطاعة ومنعه أن يتزكى وأمره بالتكذيب والعصيان وأن يدعي أنه الله الأعلى، وقد فطره الله على ذلك وحمله عليه، ثم أرسل إليه موسى، صلوات الله عليه، يدعوه إلى أن يهتدي ويتزكى، وقد منعه منهما، وفطره على غيرهما، وحال بينه وبين العمل بهما، ثم يرسل إليه من أرسل، وأنزل به العذاب عندما كان من سعيه في طاعة الله، وأمره هذا أكبر الظلم وأقبح الصفة في المخلوقين، تعالى الله عما أسند إليه الجاهلون من هذه المقالة الفاسدة الضالة. ألا ترى إلى قول الله، سبحانه: **﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾**[4]، ينسب الضلالة إلى فرعون والإضلال، ويبرىء منها نفسه.

١٦ - وانظر أيضاً إلى قوله، عز وجل: **﴿ اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴾**[5]، يقول، سبحانه: استحبوا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة، ممثلاً في ذلك بالبيع والشراء، لأنه في كلام[6] العرب هذا المثل.

---

(١) الأنعام: ١٣٧.
(٢) النمل: ٢٤.
(٣) المنازعات: ١٧.
(٤) طه: ٧٩.
(٥) البقرة: ١٧٥.
(٦) في الأصل هنا: «في»، لا داعي لها.

١٧ ـ وانظر أيضاً إلى قوله في ابن آدم: ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾[١] ولم يقل، سبحانه: قَدَّرته ولا قضيته عليه ولا أمرته ولا رضيته منه، بل برأ نفسه من فعله وألزم المعصية أهلها وفاعلها، ألا ترى إلى قوله ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ أخبر أن ذلك الفعل من نفسه لا من غيرها.

١٨ ـ وانظر إلى قوله، تبارك وتعالى، يحكي عن نوح، صلى الله عليه: ﴿ **رب إن ابني من أهلي، وإنَّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين** ﴾[٢] أفتراه قضى هذا القول على نوح ثم عابه عليه وعنفه فيه، فقال: ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾[٣]، وانظر إلى تبرئه نوح، عليه السلام لخالقه من ذلك، وإلزامه الذنب نفسه، فقال، عليه السلام: ﴿ **رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم** ﴾[٤]، فأخبره أن هذه المسألة منه، فاستغفر منها ولم يقل **إنّه** قضاؤك وقدرك عليّ، ولو كان قضاء الله عليه ما استغفر منها، كيف يستغفر الله من فعله؟ إنما يتوب العباد إلى الله ويستغفرونه من أفعالهم لا من فعله، كذلك كل فاعل قبيح يتوب منه ويستغفر ربه من فعله ولا يستغفر ربه من فعل غيره، ولا يُلْزِم الله من فعل غيره شيئاً.

١٩ ـ وانظر إلى قوله، عز وجل، لنبيه، عليه السلام: ﴿ **ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾[٥]، أفترى الله، سبحانه، نهى نبيه، عليه السلام، عن شيء هو يريده، قد قضى عليه فعله، وأمر نبيه بترك شيء لا يقدر على تركه؟ لو كان ذلك كذلك ما نهاه عنه، لعلمه أنه لا يقدر على تركه. وكثير في كتاب الله، عز وجل، مما نهى عنه أنبياءه وعابه عليهم وعاتبهم عليه، أفترى الله، سبحانه، عاب ذلك عليهم وكرهه من أفعالهم. وهم لا يجدون إلى الخروج سبيلاً؟ أو عاتبهم عليه وهو يعلم[٦] أنهم يطيقون رفضه والخروج منه، فكذلك عاتبهم عليه وذمه من أفعالهم.

* * *

---

(١) المائدة: ٣٠.
(٢) هود: ٤٥.
(٣) هود: ٤٦.
(٤) هود: ٤٧.
(٥) النساء: ١٠٥.
(٦) في الاصل، فوقها كلمة: عالم.

٢٠ ـ وانظر إلى ما يقول محمد، صلى الله عليه وعلى آله: ﴿ **ولا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المُعَذَّبين** ﴾[١]، أفتراه نهاه عن شيء يقدر عليه أو عمَّا لا يقدر عليه؟ فإن كان نهاه عن شيء يقدر على تركه فالحجة لله، سبحانه، قائمة على خلقه، وإن كان نهاه عن شيء لا يقدر عليه، فليس لله على خلقه حجة، إذ كانت حاله كحالة من يُدْعَى إلى ما لا يطيق وكلف ما لا يقدر عليه، وعذب بذلك مظلوماً، وكيف يكون ذلك كذلك والله سبحانه، يقول: ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً** ﴾[٢]، فأين الرحمة ممن كلفهم ما لا يطيقون، وافترض عليهم ما لا يقدرون على تأديته، لمنعه لهم منه، وحجزه إياهم عنه؟ كذب من قال على الله بهذا القول وخاب في الدنيا والآخرة.

* * *

٢١ ـ ألا ترى كيف يخبر عن تمكينه لعباده وتخييره لهم وعن تَخَيُّره لهم وعن الإستطاعة والقدرة التي مكنهم بها من العمل للطاعة والمعصية، فقال: ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم** ﴾[٣]، ثم قال: ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة** ﴾[٤]، ثم قال: ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾[٥].

فانظر الى قوله: ﴿ **ولو أن أهل الكتاب** ﴾، ﴿**ولو أن أهل القرى**﴾، ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوارة والانجيل** ﴾، ﴿**ولو أنهم فعلوا** ﴾. وهذا في القرآن كثير يدل عند أهل اللغة والمعرفة والنصفة[٦] على أنهم مُمكَّنون مفوضون قادرون على ما أمروا به من العمل به والترك لما نهوا عنه، وكثير مما في كتاب الله، عز وجل، يشهد لنا بما قلنا، كرهنا بذكره التطويل عليك.

* * *

(١) الشعراء: ٢١٣.
(٢) النساء: ٢٩.
(٣) المائدة: ٦٥.
(٤) المائدة: ٦٦.
(٥) الاعراف: ٩٦.
(٦) أي العدل والانصاف.

فميز يا بني، علمك الله، ما قد شرحت لك من هذا القول، وتدبر ما حكيت لك من قول الكذابين على الله، يَبِنْ لك الصدق وتعلم الحق، لأنه واضح مبين لا يخفى على أهل المعرفة والعقل، لأن العقل أكثر حجج الله، سبحانه، على عباده، ولذلك لم يخاطب إلا ذوي الألباب والعقول، وإياهم قصد بالأمر والفرض والنهي وأسقط(جميع ذلك)[1] عن المجانين والصبيان الذين لا عقول لهم. فسبحان البر الرحيم بعباده، المنصف لهم، المتفضل عليهم بالإحسان، الدال لهم على الإيمان، المبتدي لهم بالنعمة قبل استحقاقها، المعافى لهم من النِّقَم بعد وجوبها.

واعلم، يا بني، أن جميع من قص الله عليك نبأه في كتابه من المخاطبين إذ الأنبياء، عليهم السلام، فمن دونهم، مقرون بالذنوب، معترفون بها، مستغفرون الله، سبحانه، من جميع ذلك، وفي أقل مما ذكرت أكثر الحجج وأبلغ الكلام وأجمل الموعظة وأحسن الهداية عند من عقل وأنصف.

(١) في الاصل تقديم وتاخير يحعل العبارة: ذلك جميع.

العقل يشهد لاهل العدل

ومن أكبر الحجج عليه ما يصح ويثبت عند أهل النُّهَى أنهم زعموا أن جميع ما في الأرض من خير أو شر الله قضاه وأراده وشاءه وقدره، وفي الأرض من يقول أن الله ثالث ثلاثة، وأن له، سبحانه ولداً وصاحبة، ومنهم من يقول أنه لا رب ولا خالق وأن الأشياء لم تزل كذا: ليل ونهار وشمس وقمر وسماء وأرض ومطر وصحو وموت وحياة[1]، ومن ينكح أمه وابنته وأخته وعمته وكل ذي رحم مُحَرَّم عليه[2]، ويأتي كل قبيح من الفعل رديء، ويغشى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقول أن ذلك من الله ومن قضائه وإرادته ومشيئته، وأن كل عامل عمل منه شيئاً فبأمر الله ورضاه وإرادته.

فيا سبحان الله!! ما أعجب هذا من قول وأشنعه، وأحمق من زعم أن أحداً ما يعمل شيئاً مما ذكرنا لله عاص، وما أجهل من ذكر المعصية، كيف تكون المعصية عندهم؟ ومن صلى ومن زنا كلاهما مطيع لله قضى لهذا بالصلاة وقضى على هذا بالزنا، فكل من عمل شيئاً من الأشياء، حسناً كان أو قبيحاً، إيماناً أو كفراً، أو غيرهما من الأشياء كلها ففاعل ذلك الشيء مؤد لأمر الله وقضائه مستعمل

---

(١) وهم الدهريون أو الطبيعيون، الذين يرون أن الطبيعة مستكفية بنفسها غير محتاجة لموجد من خارجها، وأنه ليس ثمة حياة بعد الموت، كما يرون أن الحياة الخلقية إنما هي امتداد للحياة البيولوجية، ونسبتهم ليست إلى «الدهر» Eternity بمعنى الآن الدائم الذي يتحد فيه الأزل بالأبد، وإنما نسبتهم إلى «الطبيعية» Naturalism راجع «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني، رسالة الرد على الدهريين» ص ١٢٧ ـ ١٨٠. دراسة وتحقيق محمد عمارة ط القاهرة سنة ١٩٦٨ م. و (المعجم الفلسفي) للأساتذة: يوسف كرم، د. مراد وهبة، يوسف شلاله. ط القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(٢) وأكثر ما يكون ذلك في المجتمعات القبلية ذات المستوى التطوري المتخلف في سلم الرقي الانساني، وكان بعض ذلك مسموحاً به عند قدماء المصريين، كما أن بعض ذلك قد حدث في المجتمع العبراني القديم وسجلته أسفار العهد القديم.

نفسه في أداء مشيئته وإرادته، فليس على وجه الأرض عاصٍ، ولا تعرف المعصية من الطاعة، ولا يعرف من يقع عليه اسم الطاعة ولا اسم المعصية، ولا من يستحقه، وكيف يكون من سعى في إرادة الله عاصياً؟. لا يعرف هذا الكلام في شيء من لغة العرب ولا العجم، وقد حد الله اسم المعصية التي ذكرها الله في كتابه، وسمى قوماً عصاة، وسمى من عمل به عاصياً، وبطل كل ما جاء في الكتاب من ذكر ذلك، على قولهم وقياسهم، وكل ما جاء لغير معنى ألا تكون المعصية غير هذه الأشياء كلها التي نعرفها ونعقلها مكنونة عند الله لم يبينها لنا ولم يشرحها ولم يدلنا عليها، غير أنه قد حذرنا العصيان ولم يعرفناه وعرفناه وعرفنا الإحسان والطاعة وحدها، فنحن للعصيان منكرون، إذ كان أكبر الفواحش هي التي عَدَّد، وهي عند أهل القبلة أشد الكفر، وقد سموها جميعاً كبائر من العصيان والذنوب.

وزعم هؤلاء أن الله شاءها وأمر بها وأرادها، فما كان سواها وسوى ما سموا كبائر فأمره أقرب وهو أهون ولا يرى معصية ولا عاصياً، إذ كان ما كان مضاداً لما ذكرنا من الصلاة والصيام والحج والإيمان، وجميع أعمال البر الله شاءها وقضاها وأمر بها فلا ترى بين المنزلتين فرقاً ولا عنهما تأخراً، كلاهما فرض، وكل من عمل شيئاً من الفعلين فهو لله مطيع، والله بفعله راضٍ، وليس على وجه الأرض لله عاصٍ كلا الفريقين مجتهد في أداء ما فرض الله عليه[1].

فلا بد لمن قال بهذه المقالة أن يبين المعصية، أين هي؟ وإلا فهو مبطل مفترٍ على الله أقبح الكذب، فنبرأ إلى الله من هذه المقالة وممن قال على الله بها، فبالله

---

(١) ونحن نستطيع أن ندرك خطورة هذا الموقف الفكري الذي يسوي بين الجميع ويزكي كل المواقف والإتجاهات، إذا علمنا أنه يطمس معالم الصراع الازلي والابدي بين ما هو حق وما هو باطل، ما هو متقدم وما هو متخلف، ما يدفع الحياة إلى الامام وما يشدها إلى الرجعة والوراء، ولم يقتصر هذا الموقف الخاطيء والضار على فريق الجبرية الكلامية، بل لقد برز متجسداً في فكر بعض المتصوفة أنصار وحدة الوجود، وعلى رأسهم الفيلسوف المتصوف «أبو بكر محمد بن علي محي الدين ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠م)، والذي يلخص عقيدته القائمة على هذا الاساس في قوله:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه

كما يتحدث عن إيمان الذين يعبدون الاوثان، والحيوان، أصحاب التثليث، وفرعون. . الخ. . الخ. .
راجع (فصوص الحكم) لابن عربي. دراسة وتحقيق د. أبو العلا عفيفي ص ٢٨٩ من التعليقات. ط القاهرة سنة ١٩٤٦م.

إن الأمر لواضح، وإن الشبهة في هذه المعرفة لبينة. وفقنا الله وإياك لأجمل الأقاويل وأحسنها وأليقها بالله، لأن الله، سبحانه، يقول: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾[1]، فالله أحق بكل اسم حسن، وأبعد من كل اسم قبيح من (هؤلاء)[2] الخلق الذين)[3] يقولون عليه بهذا القول الذي يُبَرِّئون أنفسهم منه ويزعمون أنه لو كان منهم كان أكبر الظلم.

وزعم هؤلاء القوم أن محمداً، صلى الله عليه وآله، بعثه الله، ومن قبله من الأنبياء، عليهم السلام، يدعون عباد الله إلى عبادة الله، ولعمري أن ذلك كذلك، قال الله، سبحانه، لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾[4]، وقال موسى وهارون عليهما السلام، لفرعون، لعنه الله: ﴿ **إنّا رسولا ربك** ﴾[5]، وقال: ﴿ **أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾[6]، معناها: ويزيدون، لأن الله سبحانه، لاتخفى عليه خافية ولا تعروه سنة ولا يدخل شك، وهذا في أشعار العرب كثير، قال الشاعر:

فلو كان البكاء يرد ميْتا ... بكيت على عمير أو عقاق

ثم قال مبينا أنه يبكي عليهما جميعاً في البيت الثاني:

على المَرْئَيْن إذ هلكا جميعاً ... لشأنهما بحزن واحتراق

فأقام «أو» مقام «الواو»، وكذلك قال، عز وجل: ﴿ إذ[7] أرسلنا إليهم اثنين **فكذبوهما فعززنا بثالث**﴾[8]، فإذا كان الأمر على ما قال هؤلاء الظالمون، أن الله، تبارك وتعالى، قضى على قوم بالمعصية، لا يقدرون يعملون غيرها ولا يخرجون منها إلى شيء من الطاعة ولا من أعمال البر، وقضى على آخرين بالطاعة له وبالعمل بما يرضيه لا يقدرون يخرجون من الطاعة إلى العمل بشيء من المعصية، ممنوعاً من ذلك الفريقان، وكان مستعملاً فيما حتم في رقبته وقضى عليه لا يطيق الخروج منه إلى غيره، فإلى من أرسل الله الأنبياء والمرسلين وإلى من دعوا، ومن خاطبوا وعلى من احتجوا؟ أم من بعثهم وأطاعهم؟ أم من كانت حاجة العباد إليهم؟

---

(١) الاعراف: ١٨٠.
(٢) في الاصل: هذا.
(٢) في الاصل: الذي
(٤) الاعراف: ١٥٨
(٥) طه: ٤٧.
(٦) الصافات: ١٤٧
(٧) في الاصل: إذا
(٨) يس: ١٤.

أم ما كان المعنى عند الله، سبحانه، في إرسالهم؟ أتراه أرسلهم عبثاً أم سخرياً؟ أم بياناً وتوكيداً للحجة على العباد وتوفيقاً؟

فإن كان سبحانه أرسلهم إلى قوم، وقد منعهم من طاعته، يدعونهم إلى الدخول فيها، وقد حال بينهم وبين ذلك ومنعهم، طالباً للحجة عليهم بلا حجة لازمة بَيِّنة، فهذا أكبر الظلم وأحول المحال، ليس أحكم الحاكمين يعبث ولا يلغو ولا يسخر ولا يستهزيء، ولا خلق الجنة والنار باطلاً، ولا أرسل المرسلين عبثاً، لو كان الله، سبحانه على ما يقولون، ما أرسل إلى خلقه رسولاً ولا دعاهم إلى طاعة ولا دلهم على ما يرضيه مما يسخطه، ولا احتج عليهم بالآيات المعجزات ولا بالبراهين الواضحات التي عجز عنها جميع الكهنة والسحرة والفراعنة وشياطين الإنس والجن فلم يقدروا أن يأتوا منها بشيء، مثل التسع آيات التي كانت مع موسى، عليه السلام، والمعجزات التي جاء بها غيره من الأنبياء، كل هذا احتجاج من الله، سبحانه، على خلقه، ليطيعوا أنبياءه ورسله ويجيبوهم إلى خلع الأنداد والأصنام والأوثان والالهة المعبودة من دونه، ولكن الله، سبحانه، مكنهم وفوضهم، وأرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى ما هم قادرون عليه، ويندبونهم إليه ليخرجوهم بذلك من ظلمة الشرك إلى نور الإسلام. ألا ترى إلى قوله، عز وجل: ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1]، فلولا أن الله، تبارك وتعالى، قد علم أن عباده يقدرون على طاعة رسله ما أرسلهم إليهم ولا أمرهم بطاعتهم ولا حثهم على أداء ما جاءوا به من فرائضه وما دعوا به من اتباع مرضاته، وذلك لما مكنهم الله منه وجعل فيهم من القوة والإستطاعة ليركبوا بها طبقاً عن طبق، تفضلاً منه عليهم وإحساناً منه إليهم وإكمالاً للحجة فيهم وعليهم لئلا يكون لاحد على الله حجة بعد رسله وما شرع من فرائضه وما دعا إليه من طاعته وحذر من معصيته وذلك قوله: ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) النساء: ١٦٥

ومن أكبر عجائبهم أنهم يزعمون أن الله، تبارك وتعالى، قضى على العباد بالمعاصي قضاء حتماً لا يمكنهم الخروج من ذلك القضاء، وقدره عليهم، وشاءه لهم، ثم زعموا، مع هذا القول، أن محمداً، صلى الله عليه وآله، أُرْسِل إلى الناس كافة، وأن كل ما أمر به أو نهى عنه من تحليل شيء أو تحريم آخر لله رضى وطاعة ومراداً ومشيئة، إذ رجعوا فأكذبوا أنفسهم وطعنوا على نبيهم فزعموا أن جميع ما نهى الله عنه قضاء ومراد ومشيئة.

فانظر، يل بني، ما بين هذين القولين من التناقض والعمى والحيرة، بَيْنا محمد صلى الله عليه وآله، يحث على طاعة الله والقيام بأمره والأداء لفرضه، إذ صار ينهى عن جميع ذلك.

وانظر إلى ما هو أعجب من هذا، قولهم في إبليس، لعنه الله، يزعمون مرة أنه لله عاصٍ وعليه مفترٍ، بل[1] قد افترض عليه ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه، صلى الله عليه وآله، وتارة يزعمون أن ابليس لله ولي يدعو إلى قضائه، في معنى قولهم وما تلزمهم إياه الحجة، وإن كانوا غير مصرحين بولايته لله، غير أنهم زعموا أن جميع الفواحش التي يدعو إليها ابليس شاءها الله وأرادها، ومن كان إلى طاعة الله ومشيئته ومراده (داعياً)[2] فهو ولي لله مطيع، فَمَرَّة عندهم ابليس مطيع ومرة عدو مفتر..

وانظر، أيضاً إلى هذا التمييز وهذه العقول التي جعلوا بها سبيل محمد وسبيل ابليس سواء، حتى جعلوا الصفة فيهما واحدة متشابهة كلاهما، وهو عندهم يدعو إلى قضاء الله وأمره ومراده، ويصدقون محمداً عليه السلام مرة فيما جاء به من القرآن والدعاء إلى الله وإلى أمره ومراده ومرة أخرى يكذبون ذلك ويقولون أن المعاصي من الله وأن الله شاءها وأرادها من العباد، وأنه، عليه السلام، نهى عن مشيئة الله وإرادته، فإن كان محمد، صلى الله عليه وآله، ينهى عما ذكره «وأن»[3] ابليس يدعو إلى ذلك الذي أراده الله من العباد، فلا تراه، في قياسهم، لله عاصياً، ولا عليه مفترياً، إذ كان في الدعاء إلى قضاء الله مجتهداً، ومن كانت هذه سبيله فهو

(١) هنا في الأصل عبارة زائدة هي: قد افترى

(٢) غير موجودة في الأصل.

(٣) في الأصل: وا أن

غير سبيل العاصين ولا أعرف، كما قلنا، وعلى قولهم، بينه وبين محمد، عليه السلام، فرقاً في الدعاء إلى قضاء الله، خاصة إذ كان محمد يدعو إلى بعض قضاء الله، ثم أمر ونهى، بزعمهم، عن بعض قضاء الله وأمره، وكذلك إبليس، لعنه الله، يدعو، على قولهم إلى بعض قضاء الله وأمره وينهى عن بعض قضاء الله وأمره، ومحمد صلى الله عليه وآله، نهى عما يدعو إليه ابليس من هذا القضاء، وابليس، لعنه الله، يدعو إلى ما ينهى عنه محمد، وكلاهما عدو الاخر.

فيا سبحان الله!! ماذا بينهما من التباعد! وما أشد اختلافهما، وأبين تناقض أمرهما عند أهل المعرفة والعقل، وأخبث قولهم هذا الذي قالوا به.

ومن الحجة عليهم، أيضاً، التي لا يجدون لها نقضاً، ولا بد لهم عندها من أن يكذبوا أنفسهم وقولهم، أو يلزموا محمداً، صلى الله عليه وآله، المعصية والتعدي فيما أمره الله به، يقال لهم: أخبرونا عن محمد، عليه السلام، حين أمره الله بدعاء الناس كافة إلى عبادته والعمل بفرائضه، فوجدهم، صلى الله عليه وآله، على ما كانوا عليه وبه عاملين من عبادة النار والحجارة والأصنام والأنداد، وأكل الربا، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وقتل الأطفال وسفك الدم الحرام، والقول أن الله ثالث ثلاثة، وأن له ولداً وصاحبة، وأنه بخيل وأن يده مغلولة، وما أشبه هذا القول من الفواحش، أمرهم محمد صلى الله عليه وآله، بلزوم ذلك وحثهم على العمل به والإجتهاد فيه، وأمر أيضاً من وجده يعبد الله وحده، ويقول إنه ليس معه شريك ولا له شبيه ويسجد له من دون المعبودات كلها، ويحرم الزنا، والربا، وأكل مال اليتيم، وقتل الطفل، ويأمر بخلع المعبودات كلها من دون الله، أمرهم بلزوم ما هم عليه وحثهم على أدائه، لم يغير على أحد من العالمين شيئاً ولم «ينههم»[1] عن شيء ولم يأمرهم بشيء غير الاجتهاد «فيما»[2] هم فيه؟ فقد «صدق»[3] من زعم أن جميع الأشياء من الله وله رضا وقضاء وأمر ومشيئة، وإن كان، صلى الله عليه وآله، نهى عن شيء مما ذكرنا من العملين وميز بين المنزلتين، وسمى أحدهما طاعة ووعد من عمل بها الجنة، وسمى المنزلة الأخرى

(١) في الأصل مشطوب عليها، والسياق يتطلبها
(٢) في الأصل: فيها
(٣) في الأصل: فصدق

معصية وتوعد من عمل بها النار، فقد كذب من زعم أن كل شيء مراد الله و«قضاؤه»[1]، فان أحبوا فيكذبوا أنفسهم للزوم الحجة لهم، وأن أحبوا أن يقولوا أن محمداً، صلى الله عليه وآله، عاصٍ متعدٍ عليه، ناهٍ عن قضائه وأمره، وأن الله تبارك وتعالى لم يأمرهم بتحريم شيء مما حرم، وأن جميع ما حرم أحل منه بالتكليف منه لا من الله، نقض من قال هذا كتاب الله، عز وجل، إذ يقول له، صلى الله عليه وآله: ﴿ **قل إنما أتبع ما يوحي إليَّ من ربي** ﴾[2]، وهذه الصفة والقول لا يجوزان في محمد، صلى الله عليه وآله، ولا له.

ومن الحجة عليهم أن يقال لهم: أخبرونا عن محمد، صلى الله عليه وآله، أكان عندكم رؤوفاً رحيماً حريصاً على العباد شفيقاً مريداً لهم أن يطيعوا الله ولا يعصوه؟.. وعن قول الله سبحانه فيه: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾[3] أكان كذلك أم كان عندكم على غير هذه الصفة من قلة الرأفة والرحمة والحرص؟. فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: كان، صلى الله عليه وآله، رؤوفاً رحيماً، كما وصفه الله، فحينئذ يقال لهم: فأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بترك طاعة الله والخروج عن مشيئته ومراده والرد لقضائه وأمره، وكيف يكون عندكم حال من نهى عما ذكرنا وحال من أطاعه في ترك ما ذكرنا مما هو لله مشيئة ومراد؟ وأين الرأفة والرحمة ممن يأمر العباد بما لهم فيه الهلاك والغضب عند الله؟ هذا قول ينقض القرآن ويفسده، وهو حجة الله العظمى على عباده، وفيه تحريم ما حرم وتحليل ما أحل، فإذا كان المؤدى له، في قولكم، وعلى مذهبكم ينهى عن طاعة الله ومشيئته، فكيف السبيل عندكم أن يوثق به فيما أدى إلينا من تحليل وتحريم، إذ كان ينهي عن قضائه ومراده، فقد احتمل إن كان يفعل ذلك بلسانه أن يفعله ومثله في الكتاب الذي أداه فيحلل الحرام

---

(١) في الأصل: قضا

(٢) الأعراف: ٢٠٣ وهي مذكورة في ب خطأ هكذا: (وما أنا من المتكلمين أن أتبع)، وما يشبه هده الاية نجده في سور: الأنعام: ٥٠ ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم العيب ولا أقول لكم إني ملك أن اتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ ويوسى: ١٥ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون ما يوحى إليّ أني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ والاحقاف: ٩ (قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين﴾.

(٣) التوبة: ١٢٨.

ويحرم الحلال. تعالى الله عما أسند إليه أهل هذه المقالة الحمقاء من التقلب بعباده والعبث بخلقه، وجل شأن محمد عليه السلام، أن يكون فيه شيء من هذه الصفة أو يكون على شيء مما يكره الله، سبحانه. بل لم يزل، صلوات الله عليه، ناهياً عن نهي الله داعياً إلى أمر الله، مستقلاً في ذلك كله بعداوة الآدميين والناس أجمعين، باذلاً لنفسه داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى قبضه الله إليه، وقد غفر ذنبه وشكر فعله، صلوات الله عليه وعلى آله.

فميز، يا بني، القولين، وفكر فيما بين المنزلتين، تصح لك الحجة وَيَبِنْ لك الحق، لأن الحق غير خفي على ذي مِرَّة استوى.

نسأل الله التوفيق والتسديد، ونعوذ به مما أسند إليه المبطلون وقال به فيه الجاهلون، فكل من قال على الله، سبحانه، شيئاً مما ذكرنا، وأسند إليه، سبحانه، ما حكينا من قول أهل الضلالة والردى والحيرة والعمى، فما عرف الله العلي الأعلى في شيء من أيام الدنيا، وهو عند الله من أجهل الجاهلين وأكفر الكافرين وأضل الضالين، لأنه قد نسبه، سبحانه، إلى أقبح صفات المخلوقين المستهزئين العيابين المنهكين لعباد الله، الحاكمين فيهم بغير حكم الله، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

تم الكتاب والحمد لله رب الأرباب، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين، وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كتاب

فيه معرفة الله من العدل
والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد
وإثبات النبوة والإمامة
في النبي وآله

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد:

قال الامام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن رسول الله، صلوات الله عليه وآبائه الطاهرين وسلامه:

أول ما يجب على العبد أن يعلم أن الله واحد أحد، صمد فرد، ليس له شبيه ولا نظير ولا عديل، ولا تدركه الأبصار في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك أن ما وقع عليه البصر فمحدود ضعيف محوى محاط به، له كل وبعض، وفوق وتحت، ويمين وشمال، وأمام وخلف، وأن الله «سبحانه»[1] لا يوصف بشيء من ذلك، وهكذا قال، لا شريك له: ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[2]، وقال: ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[3]، والكفو «هو»[4] المِثْل والنظير والشبيه، والله سبحانه، ليس كمثله شيء. وقال: ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾[5]، «وقال»[6]: ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[7]، وقال: ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾[8]، وقال: ﴿ **وما كنا غائبين** ﴾[9]، يعني في جميع ذلك أن علمه محيط بهم، لا أنه داخل في شيء من الأشياء كدخول الشيء في الشيء، ولا خارج من الأشياء بائن عنها، «فيغيب»[10] عليه شيء من أمورهم، بل هو العالم بنفسه، وأنه، عز وجل، شيء

---

(١) غير موجودة في أ
(٢) الأنعام: ١٠٣
(٣) الأخلاص: ١ ـ ٤
(٤) في أ، ب: فهو
(٥) الحديد: ٤
(٦) غير موجودة في أ
(٧) ق: ١٦
(٨) المجادلة: ٧
(٩) الأعراف: ٧
(١٠) في أ: فيغبي، وفي ب: معاً

لا كالأشياء، إذ الأشياء من خلقه وصنعه، وقال، عز وجل: ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله** ﴾[١]، فذكر سبحانه أنه شيء، لإثبات الوجود، ونفي العدم، والعدم لا شيء.

العدل

ثم يَعْلَم[٢] أنه عز وجل عدل في جميع أفعاله، ناظر[٣] لخلقه، رحيم بعباده، لا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يسألهم ما لا يجدون، و﴿ **لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[٤]، وأنه لم يحلق الكفر ولا الجور ولا الظلم، ولا يأمر بها، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يظلم العباد، ولا يأمر بالفحشاء، وذلك أنه من فعل شيئاً من ذلك أو أراده أو رضي به فليس بحكيم ولا رحيم، وأن الله لرؤوف رحيم، جواد كريم، متفضل، وأنه لم يحل بينهم وبين الإيمان، بل أمرهم بالطاعة ونهاهم عن المعصية، وأبان لهم طريق الطاعة والمعصية، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[٥]، وقال: ﴿ **فما لهم لا يؤمنون** ﴾[٦]، وقال: ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر** ﴾[٧]، «أو»[٨] يأمرهم بالكفر ثم يقول: ﴿ **وكيف تكفرون** ﴾[٩]، أو يصرفهم عن الايمان «ثم يقول»[١٠]: ﴿ **فأنّى تصرفون** ﴾[١١]، أو يقضي عليهم بقتل الأنبياء، صلى الله عليهم، ثم يقول: ﴿ **فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين** ﴾[١٢]

والله، عز وجل، بريء من أفعال العباد، وذلك قوله، تبارك وتعالى: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي،**

---

(١) الانعام: ١٩.
(٢) أي العبد
(٣) أي لاطف بهم ناظر لهم
(٤) النساء ٤٠
(٥) الكهف: ٢٩
(٦) الانشقاق: ٢٠
(٧) النساء: ٣٩
(٨) في أ: و
(٩) آل عمران: ١٠١
(١٠) في ب: فيقول
(١١) يونس: ٣٢
(١٢) البقرة: ٩١

يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[1]، وقال، سبحانه: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[2]، ثم قال: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾[3]، فأكذبهم الله في قولهم، ونفى عن نفسه ما نسبوه إليه بظلمهم. وقال، سبحانه: ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾[4]، فذكر أنه خلقهم للعبادة لا للمعصية، وكذلك نسب إليهم فعلهم حيث يقول: ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾[5] يقول: فعلوه، ولم يقل فعله، بل نسبه إليهم إذ هم فعلوه.

وقال، عز وجل، في فعله هو: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾[6]، يقول: هو خالق كل شيء يكون، ولم يقل أنه خلق فعلهم، بل قال: ﴿ وتخلقون افكا ﴾[7]، يقول: تصنعون وتقولون افكا، كما قال: ﴿ تتخذون منه سكرًا ﴾[8] يقول: أنتم تجعلونه، وتبين الكفر والإيمان من الله، عز وجل، وفعلهما من الادميين، ولولا أنه عز وجل بيَّن لخلقه الكفر والايمان ما إذا عرفوا الحق والباطل ولا المعتدل من المائل، ولكن عرَّفَهم بذلك كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، في بعض مواعظه: « خلقنا ولم نك شيئاً، وأخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، فغذانا بلطفه، وأحيانا برزقه، وأطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، ووضع عنا الأقلام، وأزال عنا الآثام، فلم يكلفنا معرفة الحلال والحرام حتى إذا أكمل لنا العقول، وسهل لنا السبيل نصب لنا العَلَم والدليل، من سماء رفعها، وأرض وضعها، وشمس أطلعها، ورتوق فتقها، وعجائب خلقها، فعرفنا الخير من الشر، والنفع من الضر، والحسن من القبيح، والفاسد من الصحيح، والكذب من الصدق، والباطل من الحق، أرسل إلينا الرسل، وأنزل علينا الكتب، وبين لنا الحلال والحرام، والحدود والأحكام، فلما وصلت دعوته إلينا وقامت حجته علينا،

---

(١) النحل: ٩٠
(٢) الاعراف: ٢٨
(٣) الانعام: ١٤٨
(٤) الذاريات: ٥٦
(٥) القمر: ٥٢
(٦) الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢
(٧) العنكبوت: ١٧
(٨) النحل ٦٧

أمرنا ونهانا، وأنذرنا وحذرنا، ووعدنا وأوعدنا، فجعل لأهل طاعته الثواب، وعلى أهل معصيته العقاب، جزاءً وافق أعمالهم، ونكالاً بسوء فعالهم، من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

وتصديق ذلك في كتاب الله، عز وجل، حيث يقول: ﴿ **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾[1]، ﴿ **لقد جاءت رسل ربِّنا بالحق** ﴾[1]، وقال النبي، صلى الله عليه وعلى أهل بيته: «صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي، قد لعنوا على لسان سبعين نبياً: القدرية والمرجئة. قيل: وما القدرية يا رسول الله؟ وما المرجئة؟.. فقال: أما القدرية فهم الذين يعملون المعاصي ويقولون إنها من الله، قضي بها وقدرها علينا. وأما المرجئة فهم الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل. ثم قال، صلى الله عليه وآله: «القدرية مجوس هذه الأمة».

الوعد والوعيد

ثم يجب عليه[2] أن يعلم أن وعده ووعيده حق، من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار أبد الأبد، لا ما يقول الجاهلون من خروج المعذبين من العذاب المهين إلى دار المتقين ومحل المؤمنين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ﴿ **خالدين فيها أبدا** ﴾[3]، ويقول: ﴿ **وما هم بخارجين منها** ﴾[4]، ففي كل ذلك يخبر أنه من دخل النار فهو مقيم فيها غير خارج منها، فنعوذ بالله من الجهل والعمى ونسأله العون والهدى فإنه ولي كل النعماء ودافع كل «الأسواء»[5].

الإيمان برسالة محمد

ثم يجب عليه أن يعلم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عبد الله ورسوله، وخيرته من خلقه، وصفوته من جميع بريته، خاتم النبيين، لا نبي بعده،

---

(١) الاعراف: ٤٣ (٢) أي المؤمن

(٣) النساء: ٥٧، ١٢٢، المائدة: ١١٩، والتوبة: ٢٢، ١٠٠، والاحزاب: ٦٥، والتغابن: ٩، والطلاق: ١١ والجن: ٢٣، والبينة: ٨

(٤) المائدة: ٣٧. (٥) في ب: الاسوى. والاسواء: القبيح من الاشياء

و«أنه»[1] قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ثم قبضه الله إليه حميداً مغفوراً. فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

إمامة علي

ثم يجب عليه أن يعلم أن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب أمير المؤمنين وسيد المسلمين ووصي رب العالمين ووزيره، وقاضي دينه، وأحق الناس بمقام رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، وأفضل الخلق بعده، وأعلمهم بما جاء به محمد، وأقومهم بأمر الله في خلقه، وفيه ما يقول الله، تبارك وتعالى: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[2]، فكان مؤتي الزكاة وهو راكع علي بن أبي طالب دون جميع المسلمين، وفيه يقول الله سبحانه: ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم** ﴾[3]، فكان السابق إلى ربه، غير مسبوق، وفيه يقول الله، عز وجل: ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهِدِّي إلا أن يُهْدَى فما لكم كيف تحكمون** ﴾[4] فكان الهادي إلى الحق، غير مهدي، والداعي إلى الصراط السوي، والسالك طريق الرسول الزكي، ومن سبق إلى الله، وكان الهادي إلى غامض أحكام كتاب الله، فهو أحق بالإمامة، لأن أسبقهم أهداهم، وأهداهم أتقاهم، وأتقاهم خيرهم، وخيرهم بكل خير أولاهم. وما جاء له من الذكر الجميل في واضح التنزيل فكثير غير قليل.

وفيه أنزل الله على رسوله بعد بئر خم[5]: ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل**

---

(١) غير موجودة في أ

(٢) المائدة: ٥٥

(٣) الواقعة: ١٠

(٤) يونس: ٣٥

(٥) بئر ماء بين مكة والمدينة، ويؤرخون لذلك بعودة الرسول من حجة الوداع سنة ١٠ هـ ولقد اصبح هذا الحدث عيداً شيعياً بدأ الاحتفال به«معز الدولة بن بويه» بالعراق سنة ٣٥٢ هـ سنة ٩٦٣ م ثم احتفل به الفاطميون بمصر في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ سنة ٩٧٢م. راجع المقريزي (الخطط) جـ١. ص ٤٩٢. ط بولاق و(اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا) ص ١٤٢. تحقيق د. جمال الدين الشيال. ط القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالته، والله يعصمك من الناس ﴾[1]، فوقف، صلى الله عليه وعلى أهل بيته، وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة حتى ينفذ ما عزم عليه في علي، فنزل تحت الدوحة مكانه وجمع الناس، ثم قال: «أيها الناس... ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. فقال: اللهم اشهد، ثم قال: اللهم اشهد، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله». والناس كلهم مجتمعون يسمعون كلام رسول الله، صلى الله عليه وآله، وهو رافع بيد علي حتى أبصر بياض «ابطيهما»[2] وهو ينادي بهذا القول.

وفيه يقول صلى الله عليه وعلى آله: «عليٌّ مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»، ويقول: «عليٌّ مع الحق، والحق معه»، ويقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها» وقال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما»، وقال: «أنت أخي يا علي في الدنيا والاخرة»، وقال: «عليٌّ أقضى الخلق وأعلمهم».

* * *

ثم يجب عليه أن يعلم أن الحسن والحسين إبنا رسول الله صلى الله عليه وآله، وحبيباه، وأنهما إماماً عدل، واجبة طاعتهما، مفترضة ولايتهما، وفيهما وفي جدهما وأبيهما وأمهما يقول الله، تبارك وتعالى: ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا** ﴾[3] إلى قوله ﴿ **فمن شاء** ﴾[4]، وفيهما ما يقول رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله: «كل بنى أنثى ينتمون إلى أبيهم إلا ابني فاطمة فأنا أبوهما وعصبتهما». فهما ابناه وولداه بفرض الله وحكمه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه في ابراهيم الخليل صلى الله عليه: ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان وأيوب**

---

(١) المائدة: ٦٧

(٢) في أ: اباطهما، وفي ب: باطهما.

(٣) الانسان: ٥

(٤) الانسان: ٢٩. أي أن المؤلف يريد القول بان الايات من ٥ حتى ٢٩ من هذه السورة إنما هي شاهد على ما يقول.

ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ﴾[١]، فذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم كما موسى وهارون من ذريته، وإنما جعله ولده وذريته بولادة مريم، وكان سواء عنده في معنى الولادة والقرابة: ولادة الابن وولادة البنت، إذ قد أجرى عيسى وموسى مجرى واحداً من إبراهيم، صلى الله عليهم.

وفيهما وفي أبيهما وأمهما ما يقول الله تبارك وتعالى لرسوله، صلى الله عليه وعلى آله، إذ أمره بالمباهلة[٢] للنصارى، فقال له: **﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾**[٣]، فحضر، صلى الله عليه وآله، بعلي وفاطمة والحسن والحسين، صلى الله عليهم أجمعين.

* * *

ثم يجب أن يعلم أن الإمامة لا تجوز إلا في ولد الحسن والحسين، بتفضيل الله لهما، وجعله ذلك فيهما، وفي ذريتهما، حيث يقول، تبارك وتعالى: **﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً (قال ومن ذريتي، قال لا ينهال عهدي الظالمين)**[٤]**﴾**[٥]، فكانت النبوة والإمامة والوصية والملك في ولد ابراهيم، صلى الله عليه، إلى أن بعث الله محمداً، صلى الله عليه وعلى آله، فأفضت النبوة إليه، وختم الله الأنبياء به، وجعله خاتم النبيين وسيد المرسلين، وقال: **﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾**[٦]، وقال: **﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبة ﴾**[٧] وقال: **﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾**[٨] وقال موسى، صلى الله عليه، لقومه: **﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء**

---

(١) الانعام: ٨٤
(٢) المباهلة: هي الملاعنة
(٣) آل عمران: ٦١
(٤) غير موجودة في أ
(٥) البقرة: ١٢٤
(٦) هود: ٧٣
(٧) الزخرف: ٢٨
(٨) النساء: ٥٤

وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾[1] وقال: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيباب وفضلناهم على العالمين ﴾[2]، وقال: ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾[3]، فكانت النبوة في ابراهيم، ثم أفضت الى إسماعيل، ثم إلى إسحق، ثم إلى ابنه يعقوب، ثم إلى ابنه يوسف، ثم في بني إسرائيل، وهو يعقوب، الأول فالأول، حتى كان آخرهم عيسى، صلى الله عليهم أجمعين، ثم حول الله النبوة إلى محمد خاتم النبيين، فقال، سبحانه: ﴿ محمد رسول الله ﴾[4]، ثم قال: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[5]، وقال النبي، صلى الله عليه وعلى آله: « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[6] وقال الله سبحانه: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[7]، فبين الأمر سبحانه فيهم، وأوضحه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً، ومحمد من ولد اسماعيل بن ابراهيم، وكذلك ذريته.

ثم قال سبحانه: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾، فورثة الكتاب: محمد، وعلي، والحسن، والحسين، ومن أولدوه من الأخيار. ثم قال في ولدهم: ﴿ فمنهم ظالم نفسه ﴾[8]، ففيهم إذ كانوا بشراً ما في الناس، وقال: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾[9]، كما قال في ولد إبراهيم وإسحق، صلى الله عليهما: ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[10]، وكان فيما بيَّن الله، عز وجل، لخليله إبراهيم، صلى الله عليه، إذ قال إبراهيم:

---

(١) المائدة: ٢٠ (٣) آل عمران: ٣٤
(٢) الجاثية: ١٦ (٤) الفتح: ٢٩
(٥) الحشر ٧٠.
(٦) وهذه الرواية مقصورة على المتشيعين لاهل البيت، أما جمهور السنةفيروونالحديث هكذا: «أني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي».
(٧) الاحزاب: ٣٣ (٨) فاطر: ٣٢
(٩) هود ١١٣ (١٠) الصافات: ١١٣

﴿ومن ذريتي﴾ فقال له ربه: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾، ثم قال: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾[1]، وقال: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[2] و﴿الظالمون﴾[3] و﴿الفاسقون﴾[4].

وأن الامام[5] من بعد الحسن والحسين من ذريتهما من سار بسيرتهما وكان مثلهما واحتذى بحذوهما، فكان ورعاً تقياً صحيحاً نقياً، وفي أمر الله، سبحانه، مجاهداً، وفي حطام الدنيا زاهداً، وكان فَهِماً لما يحتاج إليه، عالماً بتفسير ما يرد عليه، شجاعاً كمياً[6]، بذولاً سخياً، رؤوفاً بالرعية متعطفاً محسناً حليماً، مساوياً لهم بنفسه، مشاوراً لهم في أمره غير مستأثر عليهم، ولا حاكم بغير الله فيهم، قائماً شاهراً لنفسه، رافعاً لرايته، مجتهداً، مفرقاً للدعاة في البلاد، غير مقصر في تأليف العباد، مخيفاً للظالمين، مُؤَمِّناً، لا يأمن الفاسقين، ولا يأمنونه، بل يطلبهم ويطلبونه، قد باينهم وباينوه، وناصبهم وناصبوه، فهم له خائفون وعلى إهلاكه جاهدون، يبغيهم الغوائل،ويدعو إلى جهادهم القبائل، متشرداً عنهم، خائفاً منهم، لا يردعه عن أمور الله، ولا يمنعه عن الإجتهاد عليهم كثرة الأرجاف، شمري[7] مشمر، مجتهد غير مقصر.

فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو الإمام المفترضة طاعته، الواجبة على الأمة نصرته، مثل من قام من ذريتهما من الأئمة الطاهرين الصابرين لله المحتسبين، مثل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه[8] إمام المتقين، والقائم بحجة رب العالمين، ومثل ابنه يحيى،

---

(١) هود: ١٨
(٢) المائدة: ٤٤
(٣) المائدة: ٤٥
(٤) المائدة: ٤٧

(٥) من هنا حتى قوله «ثمانية أصناف أو ثمانية آلاف أو ثمانية أنفس».. قبل عنوان (خطايا الأنبياء) بقليل. صفحات سقطت من النسخة أ. واعتمدنا فيها على النسخة ب فقط، وأعطيناها ترقيمها، ويقع هذا الموضع من النسخة ب باللوحة ١٤٢.

(٦) الكمي، هو الشجاع المتحصن بالدروع والأدوات الساترة لجسمه والحامية له من سهام الاعداء.

(٧) هو المجد في عمله المجرب، الماضي في الامور، ومثله المشمر.

(٨) وكان خروجه على هشام بن عبد الملك الاموي، ولقد استشهد في نفس العام الذي خرج فيه، وهناك خلاف في تاريخ هذا الحدث هل هو سنة ١٢٠ هـ أم سنة ١٢٢ هـ؟ راجع (المقصد الحسن والمسلك =

المحتذي بفعله، ومثل محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي جاء فيه الخبر عن رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، أنه خرج ذات يوم إلى باب المدينة، فوقف في موضع ومعه جماعة من أصحابه، فقال لهم: « ألا أنه سيقتل في هذا الموضع رجل من ولدي، اسمه كاسمي، واسم أبيه كاسم أبي، يسيل دمه من هاهنا إلى أحجار الزيت، وهو النفس الزكية، على قاتله ثلث عذاب أهل النار »[1].

ومثل إخوته ابراهيم[2] ويحيي[3] ابني عبد الله، ومثل الحسين ابن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو صاحب فخ[4]، ومثل محمد[5]، والقاسم[6] ابني إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو إمام لجميع المسلمين، لا يسعهم عصيانه، ولا يحل لهم خذلانه، بل يجب عليهم موالاته وطاعته، ويعذب الله من خذله، ويثيب من نصره، ويتولى من تولاه، ويعادي من عاداه.

ومما روى الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، قال: أخبرني

= الواضح السنن) مخطوط مصور، دار الكتب المصرية (٢٩١٣٧ ب) اللوحات ١٧٨، ١٧٩. لأحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني.

(١) وكان خروج النفس الزكية بالمدينة صد بني العباس، طالباً الخلافة لنفسه، كما كان مقتله في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ، وكانت قيادة الجيش العباسي بيد عيسى بن موسى.

(٢) وكان خروجه بالبصرة في نفس السنة التي خرج فيها النفس الزكية (سنة ١٤٥ هـ) ولقد قاتل العباسيين الدين قاد جيشهم عيسى بن موسى، وقتل إبراهيم في «باخمري» في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ.

(٣) وهو الدي قاتل العباسيين أيام الهادي، وأيام الرشيد، ثم أعطى له الرشيد أماناً، فجاء بغداد، ثم حبسه الرشيد لدى جعفر البرمكي، الذي أطلق سراحه مما أعصب عليه الرشيد، وهناك خلاف في موته هل مات في حبسه؟ أم قتل عند سندي بن شاهك، مولى المنصور، الذي خدم الرشيد والمامون.

(٤) وفخ واد بمكة قد دفن فيه عدد من الصحابة منهم عبد الله بن عمر، وكان خروج الحسين هذا ومقتله به سنة ١٦٩ هـ زمن الهادي العباسي، وكان قائد جيش الهادي في هذه الموقعة محمد بن سليمان.

(٥) هو محمد بن طباطبا (٧٣ - ١٩٩ هـ) أحد أئمة الزيدية.

(٦) هو الامام القاسم الرسي، جد الإمام يحيى بن الحسين. راجع المقريزي (اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا) ص ٧ - ١٣.

أبي، قال: قال جدي رسول الله، صلى الله عليه وآله، قال: «إنه سيخرج منا رجل يقال له زيد، فينتهب ملك السلطان، فيقتل، ثم يصعد بروحه إلى السماء الدنيا، فيقول له النبيون جزى الله نبيك عنا أفضل الجزاء كما شهد لنا بالبلاغ، وأقول أنا: أقررت عيني يا بني وأديت عني، ثم يذهب بروحه من سماء إلى سماء حتى ينتهى به إلى الله، عز وجل، ويجيء أصحابه يوم القيامة يتخللون أعناق الناس بأيديهم أمثال الطوامير[1] فيقال: هؤلاء خلف الخلف ودعاة الحق إلى رب العالمين».

وفيه، عن محمد بن الحنفية[2] أنه قال: سيصلب منا رجل يقال له زيد بن علي في هذا الموضع، يعني موضعاً بالكوفة يقال له الكنايش، لم يسبقه الأولون ولا الآخرون فضلاً.

وفيه عن محمد بن علي بن الحسين باقر العلم[3]، أن قوماً وفدوا إليه فقالوا: يا بن رسول الله إن أخاك زيداً فينا، وهو يسألنا البيعة، فنبايعه؟ فقال لهم محمد: بايعوه، فأنه اليوم أفضلنا. وعنه أيضاً أنه اجتمع زيد ومحمد في مجلس، فتحدثوا، ثم قام زيد، فمضى، فأتبعه محمد بصره، ثم قال: لقد أنجبت أمك يا زيد.

وفيه ما قال جعفر بن محمد الصادق، رحمة الله عليه[4]، لما أراد زيد الخروج إلى الكوفة من المدينة، قال له جعفر: أنا معك يا عم، فقال له زيد: أو ما علمت يا ابن أخي أن قائمنا لقاعدنا وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا، فتخلف جعفر بأمر عمه زيد.

وعن جعفر، أيضاً، لما أراد يحيى بن زيد اللحوق إلى أبيه، قال له ابن عمه جعفر أقرئه عني السلام وقل له: فإني أسأل الله أن ينصرك ويبقيك ولا يرينا فيك

---

(١) الصحائف، ومفردها طامور وطومار.

(٢) هو إمام الفرقة الكيسانية من فرق الشيعة، وفي تاريخ وفاته خلاف بين سنوات ٨١، ٨٣، ٧٢ و٧٣ هـ وفي محل وفاته خلاف كذلك بين المدينة، والطائف، وأيلة. راجع اتعاظ الحنفا للمقريزي. ص ٦.

(٣) هو أحد أئمة الشيعة الاثني العشر، وكان عالماً كبيراً، سمي بالباقر لعنمه العزير، إذ معنى: تبقرفي العلم: توسع فيه. ولد بالمدينة في ٣ صفر سنة ٥٧ هـ ومات بالحميمة، ودفن بالمدينة وهناك خلاف في تاريخ وفاته بين سنوات ١١٣ و١١٤ و١١٧ و١١٨ هـ. راجع اتعاظ الحنفا للمقريزي. ص ١٤.

(٤) هو أحد أئمة الشيعة الاثني عشر (+)، ومن كبار علمائهم، توفي بالمدينة سنة ١٤٨ هـ وفي تاريخ ميلاده خلاف بين سنتي ٨٠ و٨٣ هـ. راجع المصدر السابق. ص ١٤

مكروهاً، وإن كنت أزعم أني عليك إمام فأنا مشرك. وعنه، أيضاً، لما جاءه خبر قتل أبي قرة الصقيل بين يدي زيد بن علي، تلا هذه الاية: ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾[1]، رحم الله أبا قرة وعنه، أيضاً، لما جاءه خبر قتل حمزة بين يدي زيد بن علي تلا هذه الاية: ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾[2]، وعنه لما جاءه خبر قتل عمه زيد وأصحابه، قال: ذهب والله زيد بن علي كما ذهب علي بن أبي طالب والحسن والحسين وأصحابهم شهيداً إلى الجنة التابع لهم مؤمن، والشاك فيهم[3] والراد عليهم كافر.

وإنما فَرَّق بين زيد وجعفر قوم كانوا بايعوا زيد بن علي، فلما بلغهم أن سلطان الكوفة يطلب من بايع زيداً ويعاقبهم، خافوا على أنفسهم، فخرجوا من بيعة زيد ورفضوه مخافة من هذا السلطان، ثم لم يدروا بم يحتجون على من لامهم وعاب عليهم فعلهم، فقالوا بالوصية حينئذ، فقالوا: كانت الوصية من علي بن الحسين إلى ابنه محمد، ومن محمد إلى جعفر، ليوهموا به على الناس، فضلوا وأضلوا كثيراً عن سواء السبيل، ابتغوا أهواء أنفسهم، وآثروا الدنيا على الاخرة، وتبعهم على قولهم هذا من أحب البقاء وكره الجهاد في سبيل الله.

ثم جاء قوم من بعد أولئك فوجدوا كلاماً مرسوماً في كتب ودفاتر، فأخذوا بذلك على غير تمييز ولا برهان، بل كابروا عقولهم، ونسبوا فعلهم هذا إلى الأخيار منهم، من ولد الرسول، عليهم السلام، كما نسبت الحشوية ماروت من أباطيلها وزور أقاويلها إلى رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ليثبت لهم باطلهم على من اتخذوه مأكلة لهم، وجعلوهم خدماً وخولاً، كما قال الله، عز وجل في أشباههم: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولون على الله إلا الحق ودرسوا فيه** ﴾[4]، وكذلك هؤلاء الذين رفضوا زيد بن

---

(١) النساء: ١٠٠
(٢) الاحزاب: ٢٣
(٣) في الاصل هنا كلمة: فقار
(٤) الاعراف: ١٦٨

علي وتركوه، ثم لم يرضوا بما أتوا من الكبائر، حتى نسبوا ذلك إلى المصطفين من آل الرسول.

فلما كان فعلهم على ما ذكرنا، سماهم حينئذ زيد روافض[1] ورفع يديه فقال: اللهم اجعل لعنتك ولعنة آبائي وأجدادي ولعنتي على هؤلاء الذين رفضوني، وخرجوا من بيعتي، كما رفض أهل حروري[2] علي ابن أبي طالب، عليه السلام، حتى حاربوه.

فهذا كان خبر من رفض زيد بن علي وخرج من بيعته.

وروي عن رسول الله، صلى الله عليه وآله، أنه قال لعلي بن أبي طالب: «يا علي، أنه سيخرج قوم في آخر الزمان، لهم نَبْز يعرفون به، يقال لهم الرافضة، فإن أدركتهم فاقتلهم فإنهم مشركون». فهم لعمري شر الخلق والخليقة.

* * *

وأما الوصية، فكل من قال بإمامة أمير المؤمنين ووصيته فهو يقول بالوصية، على أن الله، عز وجل، أوصى بخلقه على لسان النبي إلى علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وإلى الأخيار من ذرية الحسن والحسين، أولهم علي بن الحسين، وآخرهم المهدي، ثم الأئمة فيما بينهما، وذلك أن تثبيت الإمامة عند أهل الحق في هؤلاء الأئمة من الله عز وجل على لسان رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، فمن ثبت الله فيه الإمامة واختاره واصطفاه، وبين فيه صفات الإمام، فهو إمام عندهم، مستوجب للإمامة، لقول النبي، صلى الله عليه وعلى آله، إذ يقول: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر من ذريتي فهو خليفة الله في أرضه وخليفة كتابه وخليفة رسوله». قال: «من ذريتي»، فولد الحسن والحسين من ذرية النبي، صلى الله عليه وآله. ثم قال: «عليكم بأهل بيتي، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن

---

(١) وهذا هو أحد التفسيرات لتسمية «رافضة» وهناك من يرجع أصل هذه التسمية إلى «رفض» هذه الفرقة من فرق الشيعة الإعتراف بصحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان، وتقدمهم في هذا الأمر على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

(٢) المراد الخوارج الذين رفضوا التحكيم وقاتلوا علي بن ابي طالب.

يدخلوكم في باب ردى »، وقال: « مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى»، وقال: « النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم من السماء أتى أهل السماء ما يوعدون، وإذا ذهب أهل بيتي من الأرض أتى أهل الأرض ما يوعدون »، يعني في جميع ذلك: الصالحين من ولده، وقال صلى الله عليه وعلى أهل بيته: « من سمع داعيتنا أهل البيت فلم ينصره لم يقبل الله له توبة حتى تلفحه جهنم »، ثم قال: « من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية ».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والله عز وجل قد جعل الأمر والنهي في خيار آل محمد عليه وعلى آله السلام، (ووراه)[1] عن ظالميهم وظالمي غيرهم ومكن أهل الحق منهم وأجازه لهم، وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[2]، ثم قال: ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾[3]، وقال سبحانه لرسله: ﴿ **وأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾[4]، وقوله لإبراهيم، صلى الله عليه: ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[5]، وعلى هذا النحو قال، تبارك وتعالى: ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء** ﴾[6]، يعني الأنبياء ومن تبعهم من الأئمة الصادقين، كقوله: ﴿ **اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[7]، وكقول ابراهيم، عليه السلام: ﴿ **ومن تبعني فإنه مني** ﴾[8]، ثم قال: ﴿ **وتنزع**

---

(١) هكذا في الاصل، والمراد منعه
(٢) الحج: ٤١.
(٣) النور: ٥٥
(٤) ابراهيم: ١٤
(٥) البقرة: ١٢٤
(٦) آل عمران: ٢٦
(٧) التوبة: ١١٩
(٨) ابراهيم: ٣٦

الملك ممن تشاء ﴾[1]، فقد نزع الملك من الفراعنة والجبابرة، وإنما الملك هو الأمر والنهي، لا المال والسعة والجدَة، كما قال، عز وجل، عندما قالوا: ﴿ **أنَّى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾**[2]، فقد بين، عز وجل، في هذه الآية، أن الملك هو الأمر والنهي، لا سعة المال، ثم قال: ﴿ **وتعز من تشاء ﴾**[3]، فقد أعز الأنبياء ومن تبعهم من الأئمة الصادقين وأوليائهم الصالحين، وذلك قوله، سبحانه: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾**[4]، والمؤمن لا يملك من متاع الدنيا شيئاً، فسماه الله عزيزاً، إذ فعله ذلك يوصله إلى دار العز أبد الأبد، ثم قال: ﴿ **وتذل من تشاء ﴾**[5]، فقد أذل الله الفراعنة ومن تبعهم من الظالمين، لأنهم معتدون غير محقين، فكل من كان في يده أمر ونهي وكان فعله مخالفاً للكتاب والسنة فهو فرعون من الفراعنة، وكل عالم متمرد فهو إبليس من الأبالسة، وكل من عصى الرحمن من سائر الناس فهو شيطان من الشياطين وذلك قوله: ﴿ **شياطين الانس والجن ﴾**[6]، ثم قال: ﴿ **من الجنة والناس ﴾**[7] والظالم وإن اتسع في هذه الدنيا من مال غيره وأكثر من مظالم الناس، ووقع عند الجاهل أنه عزيز، فهو عند الله، عز وجل، وعند أوليائه، ذليل، لأن فعله ذلك يورده إلى دار الذل أبد الأبد، كما قال الله، عز وجل: ﴿ **متاع قليل، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾**[8].

* * *

وقال النبي، صلى الله عليه وآله، في الأمراء الظالمين: « طعمة قليلة وندامة كثيرة ». وفعل هؤلاء الظالمين وأمرهم وسلطنتهم إنما تقوم بأعوانهم الذين يتبعونهم ويعينونهم على ظلمهم وإذا تفرق الأعوان منهم وأسلموهم لم تقم لهم دولة ولا

(١) آل عمران: ٢٦٦.
(٢) البقرة: ٢٤٧
(٣) آل عمران: ٢٦
(٤) المنافقون: ٨
(٥) آل عمران: ٢٦.
(٦) الانعام: ١١٢
(٧) الناس: ٦، اما آية السجدة: ١٣ ففيها: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.
(٨) آل عمران: ١٩٧

تثبت لهم راية، فمتى كثرت جماعتهم تقووا بهم على باطلهم واستضعفوا المستضعفين من خلق الله، وأمهل لهم ربهم وتركهم ولم يُخَلِّ بينهم وبين من يظلمونهم، إذ كُلٌّ ظالم، القوي والمستضعف، وذلك قوله، عز وجل: ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾[1]، وقال: ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزا ﴾[2]، ويقول: خلفناهم عليهم، كما قال: ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾[3]، وكما قال النبي، صلى الله عليه وعلى آله: « لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم، حتى إذا بلغ الكتاب أجله كان الله المستنصر لنفسه، فيقول: ما منعكم إذ رأيتموني أُعْصَى أن لا تغضبوا لي ».

فمن هذه الجهة ترك الظالمين ولم يأخذهم، لأن الرعية في ظلمهم وتظالمهم فيما بينهم أصناف: فقوم يقولون على الله بالجبر والتشبيه وينفون عنه العدل والتوحيد وينسبون إليه، عز وجل؛ أفعال العباد، ويقولون إن هذا الظلم الذي نزل بهم بقضاء من الله وقدر، ولولا أن الله قضى عليهم بهذا الظلم الذي نزل بهم من هؤلاء الظالمين ما إذا قدر الظالم أن يظلمهم غير أن هذا الظلم مقدر عليهم عند الله على يدي هذا الظالم، فإذا كانت معرفتهم هذه المعرفة وكان معبودهم الذي يزعمون أنهم يعبدونه هذا فعله بهم، فمتى يصل هؤلاء إلى معرفة الخالق، ومتى يدعونه ويستعينون به على ظالمهم، إنما هم يدعون هذا الذي يزعمون أنه قضى عليهم بهذا الظلم وقدره، ولهذا يصلون وله يصومون ويحجون وبه في جميع ما ينزل بهم من الظلم والجور والمصائب في المال والولد والبدن، يستعينون به على دفع هذه المضار والبلوى التى نزلت بهم. فهم يعبدون صورة مصورة. وعلى هذا النحو أسلمهم ربهم وتركهم من التوفيق والسداد، وخذلهم ولم ينصرهم على ظالمهم. وكيف ينصرهم على ظالمهم وهو المقدر لهذا الظلم عليهم الذى نزل بهم؟ فهو الذى يدعونه. بزعمهم، اما أنهم لو أنصفوا عقولهم.

(١) الأنعام: ١٢٩
(٢) مريم: ٨٣
(٣) الاسراء: ٥

وعرفوا الله عز وجل حق معرفته، ونفوا عنه ظلم عباده، كما نفاه، عز وجل، عن نفسه، ثم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا بهم حينئذ على ظالمهم إذا لاستجاب لهم دعوتهم وكشف ما بهم من الظلم والنور، وذلك قوله، عز وجل: ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾[1]، وقال: ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾[2]، ﴿ **كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين** ﴾[3]

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) الروم: ٤٧

(٣) يونس: ١٠٣، والآية مذكورة في ب خطأ هكذا: (**وكان حقاً علينا**).

الهدى

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الهُدَى من الله، عز وجل، هديان: هدى مبتدأ، وهدى مكافأة، **فأما الهدى المبتدأ**: فقد هدى الله به البَرَّ والفاجر، وهو العقل والرسول والكتاب، فمن أنصف عقله وصدق رسوله وآمن بكتابه، وحلل حلاله وحرم حرامه، استوجب من الله الزيادة.

والهدى الثاني: جزاء على عمله ومكافأة على فعله، كما قال، عز وجل: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾**[1]، وقال: **﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾**[2].

ومن كابر عقله وكذب رسوله ورد كتابه، استوجب من الله الخذلان، وتركه من التوفيق والتسديد، وأضله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، وذلك قوله، تبارك وتعالى: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾**[3] عنى الهدى الثاني، **﴿ومن يرد أن يضله﴾**[3] يقول: ومن يرد أن يوقع اسم الضلال عليه، بعد أن استوجب بفعله القبيح، **﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾**[4]، فقد بين، عز وجل، في آخر الاية أنه لم يضله ولم يضيق صدره إلا بعد عصيانه وكفره وضلاله، لأنه يقول: **﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾**[5] ولم يقل إنه يجعل الرجس على الذين آمنوا، ثم قال: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على**

---

(١) محمد: ١٧.

(٢) مريم: ٧٦.

(٣) الانعام: ١٢٥.

(٤) الانعام: ١٢٥.

(٥) الأنعام: ١٢٥.

علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾[1] كما اتخذ إلهه هواه أوقع عليه اسم الضلال وسماه به ودعاه بعد أن اتخذ إلهه هواه وختم على سمعه، وتركه من التوفيق والتسديد، وخذله ولم يؤيده ولم يسدده كما أيد وسدد الذي عبده، عز وجل، ثم قال: **﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾**[2] ثم قال: **﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾**[3]، وقال: **﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾**[4]، **﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾**[5]، **﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾**[6].

---

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) النحل: ٩٣، فاطر: ٨.
(٣) البقرة: ٢٦.
(٤) غافر: ٧٤.
(٥) غافر: ٣٤، والاية مذكورة في الأصل خطأ: (مسرف هكذا).
(٦) غافر: ٣٥.

الضلال

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الضلال في كتاب الله، عز وجل، على وجوه، فوجه منها: قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1]، يقول: إنهم ضلوا عن سواء السبيل، وهم النصارى.

والوجه الثاني: قوله، سبحانه: ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾[2]، يقول عن شرائع النبوة فهداك الله.

وقال موسى: ﴿**فَعَلْتُها إذا وأنا من الضالين**﴾[3]، يقول: من الجاهلين بعاقبة فعلي، وقال أولاد يعقوب: ﴿**إن أبانا لفي ضلال مبين**﴾[4]، يقولون: جاهل عندما يؤثر يوسف علينا ونحن أنفع له من يوسف، صلى الله عليه.

والوجه الثالث: قوله: ﴿**أن تضل إحداهما**﴾[5]، أي تنسى إحداهما الشهادة، (فتُذَكِّر إحداهما الأخرى).

والوجه الرابع: قوله: ﴿**أضل أعمالهم**﴾[6]، يقول: أبطل أعمالهم.

والوجه الخامس: قوله سبحانه، في قصة فرعون والسامري، حيث يقول: ﴿**وأضل فرعون قومه وما هدى**﴾[7]، يقول: أغواهم وأرداهم ولم يرشدهم.

والوجه السادس: قوله، سبحانه: ﴿**وأضله الله على علم**﴾[8]، وقوله

---

(١) فاتحة الكتاب: ٥.
(٢) الضحى: ٧.
(٣) الشعراء: ٢٠.
(٤) يوسف: ٨.
(٥) البقرة: ٢٨٢.
(٦) محمد: ١، ٨.
(٧) طه: ٧٩.
(٨) الجاثية: ٢٣.

﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾[1]، و﴿يضل الله الظالمين﴾[2]، و﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾[3]، ونحو هذا في القرآن كثير. يعني في جميع ذلك، أنه يوقع عليه اسم الضلال ويدعوه به بعد العصيان والطغيان، لا أنه يغويهم عن الصراط المستقيم كما أغوى وأضل فرعون قومه، وإن أشبه اللفظ فمعناه متباين مفترق عند أهل العلم، إذ الله عز وجل، رحيم بعباده، ناظر لخلقه، وفرعون كافر لعين ملعون مُضِل غوي، وهو، عز وجل، قد عذب فرعون على فعله وضلاله وقبح سوء فعله بنفسه وقومه، وكيف يغوي خلقه ويضلهم ولا يرشدهم ثم يعذبهم على فعله، إذاً لكان لهم ظالماً وعليهم متعدياً، وهو مع ذلك يعيب على من فعل مثل هذا الفعل، إذ يقول، عز وجل: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[4]، وبعث إليهم الرسول، وأنزل عليهم الكتاب، ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة﴾[5]، فأمرهم أن يدخلوا كلهم في الإسلام والإيمان، فلو كان كما يقول الجاهلون إنه هدى قوماً وأضل قوماً ولم يهدهم، لم يكن لقوله: ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ معنى، إذ كان، عز وجل، بزعمهم، أدخل قوماً في الإسلام وحال بين قوم وبين الدخول في الإسلام، فما معنى قوله، لقوم داخلين في الإسلام: ادخلوا، وهم داخلون، كما لا نقول لقائم: قم، وكما لا نقول لجالس: اجلس. ويقول لقوم حال بينهم وبين الدخول في الإسلام ادخلوا، فكيف يقدرون على ذلك، وهو قد حال بينهم وبين الدخول في الإسلام، كما لم نقل لمُقْعَد: قم، ولا لأعمى: أبصر.

وهو، عز وجل، قد فرض الجهاد على جميع الناس، فقال ﴿انفروا خفافاً وثقالا﴾[6]، ثم قال لمن أعمى بصره ولم يعطه من القوة ما أعطى غيره: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾[7] فعذره في تخلفه عن الجهاد إذ لم يقدر على ذلك، وقال، سبحانه: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[8] فلو كان، عز وجل، فعل لهم ما يقول

---

(١) النحل: ٩٣، فاطر: ٨. (٢) ابراهيم: ٢٧.
(٣) غافر: ٣٤، والاية مذكورة في الاصل خطا هكذا: (مسرف كذاب).
(٤) النساء: ١١٢. (٥) البقرة: ٢٠٨.
(٦) التوبة: ٤١. (٧) النور: ٦١، الفتح: ١٧.
(٨) البقرة: ٢٨٦.

المبطلون، لكان من عصى وكفر وظلم وقتل أنبياءه وأولياءه وقال عليه بالزور والبهتان معذوراً عنده، سبحانه، ساعياً في قضائه وقدره، ولم يكن يوجد على الأرض عاص، إذ كان المطيع يسعى بقضاء الله وقدره، وكان العاصي كذلك يسعى ببعض قضائه وقدره، إذ يزعمون أنه خلق قوماً للجنة وخلق قوماً للنار. كذب العادلون[1] بالله وضلوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراً مبيناً.

(١) أي المشركون به.

العبادة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:
تفسير العبادة على ثلاثة وجوه:

فوجه منها: قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**يا بني آدم لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**﴾[1]، يقول: لا تطيعوه، ﴿**وأن اعبدوني**﴾[1]، يقول: أطيعوني، وليس على وجه الأرض أحد يصلي للشيطان ولا يصوم له، بل كلهم يجمعون على لعنه، غير أنهم يعملون عمله ويسعون في مرضاته ويساعدونه على إرادته، فجعل الله، عز وجل، فعلهم ذلك للشيطان طاعة وعبادة، وذلك أن كل مطاع عنده، عز وجل، معبود. وكذلك قال رب العالمين، في قصة ابراهيم الخليل، صلى الله عليه، حيث يقول لأبيه: ﴿**لا تعبد الشيطان**﴾[2]، وقال فرعون، اللعين: ﴿**أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون**﴾[3]، يقول: مطيعون. وقال: ﴿**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**﴾[4] فكل من أطاع عدواً من أعداء الله وعاضده أو كاتفه فقد أشرك بعبادته غيره.

وقال، عز وجل: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾[5]، يعني: العابد والمعبود من الجن والانس، لا أنه يعني أنه يعبد المعبودات من الجماد، وذلك أن الجماد هو كما قال ابراهيم، صلى الله عليه وسلم، لأبيه: ﴿**لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً**﴾[6]، فضرر عبادة الصنم لا (يعدو)[7] صاحبه، وهو مأخوذ بفعله مُعَاقَب على

---

(١) يس: ٦٠.
(٢) مريم: ٤٤.
(٣) المؤمنون: ٤٧.
(٤) الانعام: ١٢١.
(٥) الانبياء: ٩٨.
(٦) مريم: ٤٢.
(٧) في الاصل: يعدوا.

عمله، وضرر عبادة شياطين الإنس والجن على عابده وعلى الإسلام والمسلمين، وذلك أن الصنم جماد، والجماد لا يفتق ولا يرتق، ولا يأمر ولا ينهي، وشيطان الإنس يأمر من تبعه وأطاعه بقتل المسلمين وهتك حرمتهم وأخذ أموالهم، ويأمرهم بالفسق والفجور والقول على الله بالزور والبهتان وبطاعة إبليس اللعين.

الإرادة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

والإرادة من الله عز وجل، في خلقه، على معنيين:

إرادة حتم وجبر وقسر: وهي إرادة الله، عز وجل، في خلق السموات والأرض وما بينهما من الخلق، من الملائكة والجن والإنس والطير والدواب وغير ذلك، إرادة حتم وجبر، فجاء خَلْقُه كما أراد، لم يمتنع منه شيء ولم يغلبه شيء من الأشياء، كما قال، عز وجل: **﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾**(1)، وقال: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين﴾**(2)، يقول: كَوَّنهما فكانتا من غير مخاطبة ولا أمر، وذلك أن الله، عز وجل، لم يخاطب أحداً من خلقه إلا ذوي العقول من الملائكة والجن والإنس، وسائر خلقه حيوان لا عقول لها، وجماد لا روح فيه، وإنما خاطب الله، عز وجل، أهل العقول وأمرهم ونهاهم وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبين لهم الحلال والحرام، فمن أطاعه وائتمر بأمره وانتهى عن نهيه استوجب من الله الحفظ والحياطة في دنياه الفانية والثواب الجزيل في آخرته الباقية، ومن عصاه منهم عذبه في الدنيا والآخرة. والذي لا عقل له من خلقه لا يجب له ثواب ولا عليه عقاب. ثم قال، عز وجل: **﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾**(3)، يقول: إذا كوَّنَّاه كان بلا كلفة ولا اضطراب ولا تخيل ولا إضمار ولا تفكر، ولا تتقدم إرادته فعله ولا فعله إرادته، بل إرادته للشيء إيجاده وكونه، وإذا أراده فقد كونه، وإذا كونه فقد أراده، لا وقت بين إرادته للشيء وكونه.

والإرادة الثانية: من الله، عز وجل، إرادة تخيير وتحذير، معها تمكين

---

(1) الملك: ٣.

(2) فصلت: ١١.

(3) النحل: ٤٠.

وتفويض، أراد من خلقه الإيمان على هذا الوجه، لأنه لو أراد منهم الإيمان على نحو ما أراد خلقهم، ما إذا قَدَر واحد من خلقه على أن يخرج من الإيمان إلى الكفر كما لا يقدرون أن يتحولوا من صورهم إلى صور غيرهم من الخلق، ولكن ركب فيهم العقول، وأرسل إليهم الرسول، وهداهم النجدين، ومكنهم من العملين، ثم قال: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[1]، وقال: ﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا**﴾[2]، وقال: ﴿**فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾[3]، فدل على أنه هداهم، واستحبوا هم العمى على الهدى، اختياراً من أنفسهم واستحباباً. ثم قال: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾[4]، لولا أن لهم مشيئة لم يقل: ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾، ثم قال: ﴿**لو شئت لاتخذت عليه أجراً**﴾[5] لولا أن موسى، صلى الله عليه، علم أن للعالم فيما يريد مشيئة ما قال: ﴿**لو شئت**﴾، ثم قال: ﴿**ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة**﴾[6]، قال: استحبوا هم لأنفسهم. ثم قال: ﴿**يحبون من هاجر إليهم**﴾[7]، وقال: ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾[8]، وقال: ﴿**يريدون عَرض الدنيا**﴾[9] ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم**﴾[10] ﴿**يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم**﴾[11]. ثم قال سبحانه: ﴿**سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم**﴾[12]، فرد عليهم رب العالمين: ﴿**يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون**﴾[13]، فبين، عز وجل، أنهم قادرون على الخروج مع الرسول، صلى الله عليه وآله، وفي هذا القرآن من هذا النحو كثير.

ثم قال الله، عز وجل: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت**﴾[14]، لولا أن محمداً، صلى الله «عليه»[15] وعلى آله، يقدر على أن يحب لم يقل له ربه: ﴿**من أحببت**﴾،

---

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) الانسان: ٣.
(٣) فصلت: ١٧.
(٤) فصلت: ٤٠.
(٥) الكهف: ٧٧.
(٦) النحل: ١٠٧.
(٧) الحشر: ٩.
(٨) المائدة: ٥٤.
(٩) الانفال: ٦٧.
(١٠) التوبة: ٣٢.
(١١) النساء: ٩١.
(١٢) التوبة: ٤٢، والاية في الاصل مذكورة خطأ: (يحلفون...).
(١٣) التوبة: ٤٢.
(١٤) القصص: ٥٦.
(١٥) غير موجودة في الاصل.

ثم قال: ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾[1]، وقال: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تُكْرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2] وقال: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾[3]، وقال: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾[4]، وقال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾[5] يعني، عز وجل، في هذه الآيات كلها وما أشبهها أنه سبحانه، لو شاء أن يجبرهم على الإيمان والهدى مشيئة حتم وجبر ويقسرهم عليه لأمكنه ذلك وما قدر واحد من خلقه أن يخرج مما حتم الله عليه وجبره وقسره، إذ كان محمد يعجز عن قسرهم على الإيمان، فقال له ربه: ﴿فإنما عليك البلاغ﴾[6]، فقد أبلغت وأديت ونصحت وعرفتهم بما ينفعهم ﴿فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾، فتريد أن تقتل نفسك ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[7]، يقول: حزناً عليهم وشفقة، فذرهم ﴿ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾[8]، فقال: مما يمكرون، ولولا أنهم يقدرون على المكر والخديعة والمعصية ما قال: يمكرون.

ثم قال، في أهل الجنة: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾[9]، ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون﴾[10]، ثم قال، في أهل النار: ﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[11]، وقال: ﴿جزاء بما كانوا يجحدون﴾[12]، و﴿يصنعون﴾[13]، و﴿يمكرون﴾[14]، و﴿يستهزئون﴾[15]، و﴿يسخرون﴾[16]، و﴿يخدعون﴾[17]،

(١) السجدة: ١٣.
(٢) يونس: ٩٩.
(٣) هود: ١١٨.
(٤) الأنعام: ٣٥.
(٥) الأنعام: ١٤٩.
(٦) آل عمران: ٢٠، والرعد: ٢٤٠ والنحل: ٨٢.
(٧) الكهف: ٦.
(٨) النحل: ١٢٧.
(٩) الأنعام: ١٨٢.
(١٠) الواقعة: ٢٢.
(١١) الأنعام: ٩٣.
(١٢) فصلت: ٢٨.
(١٣) المائدة: ١٤، ٦٣، والنحل: ١١٢، والنور: ٣٠، وفاطر: ٨.
(١٤) الأنعام: ١٢٣؛ ١٢٤، ويوسف: ١٠٢، والنحل: ١٢٧، والنمل: ٧٠، وفاطر: ١٠.
(١٥) الأنعام: ٥، ١٠، وهود: ٨، والحجرات: ١١، والنحل: ٣٤، والأنبياء: ٤١، والشعراء: ٦، والروم: ١٠، ويس: ٣٠، والزمر: ٤٨، وغافر: ٨٣. والزخرف: ٧، والجاثية: ٣٣، والأحقاف: ٢٦.
(١٦) البقرة: ٢١٢، والصافات: ١٢.
(١٧) البقرة: ٩.

و﴿يفسقون﴾[1]، و﴿يكذبون﴾[2]، و﴿يقتلـون النبيين بغير حق﴾[3]، و﴿يقتلـون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعـذاب أليم﴾[4]، كل هذا اختيار من أنفسهم.

---

(١) البقرة: ٥٩، والانعام: ٤٩، والاعراف: ١٦٣، ١٦٥، والعنكبوت: ٣٤.

(٢) المطففين: ١١، والانشقاق: ٢٢.

(٣) البقرة: ٦١.

(٤) آل عمران: ٢١.

الإذن

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الإذن في كتاب الله على وجهين:

علم، وأمر: قال الله، عز وجل: ﴿**ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله**﴾[1]، يقول: بعلم الله، ويقول: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾[2]، يقول: بعلم الله. وقال: ﴿**فقل أذنتكم على سواء**﴾[3]، يقول: أعلمتكم، وقال: ﴿**فأذنوا بحرب من الله ورسوله**﴾[4]، يقول: اعلموا أنكم إن لم تقلعوا «عن»[5] الربا صرتم حرباً لله ولرسوله.

والإذن الثاني: إذن أمر، قال الله، عز وجل: ﴿**وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله**﴾[6]، يقول: بأمر الله، لولا أن الله أمرها بالإيمان لم تؤمن ولكن جعل في الإنسان العقل، ثم أمره بالإيمان، فآمن بإذن الله وأمره.

---

(١) التغابن: ١١.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) الأنبياء: ١٠٩.

(٤) البقرة: ٢٧٩.

(٥) في الأصل: من.

(٦) يونس: ١٠٠.

الكفر

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الكفر، في كتاب الله، على معنيين:

أحدهما: كفر جحود وإنكار وتعطيل، وذلك قول الله، سبحانه، يحكي عن قوم من خلقه: **﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾**[١]، فهؤلاء الدهريون المعطلون[٢]، الزنادقة[٣]، الملحدون[٤].

والكفر الثاني: كفر النعمة، وذلك قوله، سبحانه: **﴿وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**[٥]، يقول: حكم الله لشاكر النعمة بالزيادة ولكافر النعمة بالعذاب الأليم. قال: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[٦]، والكافر «هو»[٧] كل من ارتكب معاصي الله وخالف أمره وضاد حكمه، فهو كافر لنعم الله ومعاند لله يجب البراء منه والمعاداة له، كما قال الله، سبحانه: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾**[٨]، فحرم الله موادة من كان لله عاصياً وله معانداً.

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) الذين ذهبت بهم مبالغتهم في التنزيه لذات الله عن الصفات إلى حد تجريدها مما هو ضروري كي تكون فاعة ومؤثرة وموجودة.

(٣) الزندقة في الأصل تعني التحرر من الالتزام بالعقائد الدينية، وشاعت بمعنى إنكار الخالق، ورادفت الإلحاد.

(٤) والإلحاد يعني رفض جميع الحجج التي يؤسس عليها المؤمنون أدلتهم على وجود الله، ومعنى الكلمة في الاصل الميل عن القصد والإنحراف عن السبيل.

(٥) ابراهيم: ٧.

(٦) المائدة: ٤٤.

(٧) في الاصل: فهو.

(٨) المجادلة: ٢٢.

الشرك

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

الشرك في كتاب الله على وجوه: قال الله، عز وجل: **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾**[1]، فالمشرك من عبد مع الله غيره كائناً ما كان من الجمادات والحيوان، فالجماد مثل ما كان المشركون يعبدون في الجاهلية من الأصنام من حجر أو عود أو نجم، ويقولون، إذا سئلوا عن عباداتهم: **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾**[2]. وقوم منهم على وجه التقليد يقولون: **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾**[3].

والوجه الثاني من الشرك: «هو»[4] كما قال الله، عز وجل: **﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾**[5]، فسماهم مشركين بتركهم أداء زكاتهم. وقال النبي، صلى الله عليه وآله: «مانع الزكاة وآكل الربا حُرَبائي في الدنيا والآخرة» ومن كان حرباً للنبي فهو مشرك، ثم قال، صلى الله عليه وعلى آله: «لا يقبل الله صلاة إلا بزكاة، كما لا يقبل صدقة من غلول»[6]، يعني أنه إذا غل الإنسان زكاة ماله، ثم تصدق ببعض ماله أو بكله، أن تلك الصدقة لا تقبل، وقال: «لا تقبل صلاة إلا بزكاة» وقال: «الزكاة قنطرة الإسلام».

والوجه الثالث من الشرك: أنه من أطاع عدواً من أعداء الله فهو مشرك بالله كما قال الله سبحانه: **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن**

---

(١) التوبة: ٥.
(٢) الزمر: ٣.
(٣) الزخرف: ٢٣.
(٤) في الأصل: فهو.
(٥) فصلت: ٦،٧.
(٦) أي الذي يخون ويأخذ حق الفقراء والمساكين خفية فيخفيه تهرباً من أدائه.

أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[1]، فمن أطاع شيطاناً من الشياطين كان المطاع ظالماً أو عالماً متمرداً فقد عبده.

والوجه الرابع من الشرك: «قول»[2] النبي، صلى الله عليه وآله: «مدمن الخمر كعابد وثن، قيل: وما مدمنه يا رسول الله؟ الذي كل ما وجده شربه، ولو كان في كل عام مرة»، فجعل شارب الخمر كعابد الحجر، والخمر «هو»[3] ما خامر العقل فأفسده، كان من عنب أو زبيب أو تمر أو عسل أو ذرة أو شعير. وكل ما أسكر فهو حرام، يقول النبي، صلى الله عليه وآله: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»، وقال الله، عز وجل: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**[4]، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يتعاملون في الخمر والميسر، فيربحون منهما، فقال لهم ربهم: إثمهما أكبر من نفعهما، فالخمر هو ما خامر العقل فأفسده، والميسر هو القمار كله من نرد أو شطرنج أو لهو، ثم قال: عز وجل: **﴿فإنه رجس﴾**[5]، والرجس والإثم في كتاب الله محرمان. قال الله، عز وجل: **﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً﴾**[6]، فجعلها مثل الدم المسفوح ولحم الخنزير، وقال: **﴿إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم﴾**[7]، فذكر أن الإثم محرم، فلما نزلت الآية على النبي، صلى الله عليه وعلى آله، في تحريم الخمر كان قوم من أصحابه يشربونه قبل التحريم، فقالوا: يا رسول الله، فكيف «بفلان»[8] وإخواننا الذين كانوا يشربون الخمر حتى ماتوا؟ فأنزل الله على رسوله: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا﴾**[9]، يقول: ليس عليهم جناح فيما شربوا قبل التحريم إذا تركوه من اليوم وأقلعوا «عنه»[10]، فكانت هذه الآية إلى آخرها معذرة للماضين وحجة على الباقين،

---

(١) الانعام: ١٢١.

(٢) في الاصل: فقول. والمراد ما يدل عليه قول الرسول عليه السلام.

(٣) في الاصل: فهو.

(٤) البقرة: ٢١٩.

(٥) المائدة: ٩٠.

(٦) الانعام: ١٤٥.

(٧) الأعراف: ٣٣.

(٨) في الأصل: بفلانا.

(٩) المائدة: ٩٣.

(١٠) في الأصل: منه.

وقال النبي، صلى الله عليه وآله: «حقيق على الله من ملأ جوفه في هذه الدنيا خمراً، أن يملأه الله يوم القيامة جمراً إلا من تاب وآمن» وقال صلى الله عليه وعلى آله: «جمعت الشرور في بيت، ثم كان مفتاحه الخمر».

وأما قوله سبحانه: ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾[1]، يعني سكر النوم، وذلك أن قوماً من أصحاب النبي، صلى الله عليه وعلى آله، كانوا يصلون مع النبي، صلى الله عليه وآله، صلاة المغرب، ثم يجلسون ينتظرون العتمة[2]، فإذا جاءت العتمة قام النبي، صلى الله عليه وآله، يصلي بهم فيقومون وراءه وليس هم يدرون ما يقول النبي، صلى الله عليه وآله، مما بهم من الغلبة والسكر، خمر النوم، فنهاهم الله عن الصلاة وهم في ذلك حتى يعلموا ما يقولون لأن الله عز وجل لم يحل لأحد من خلقه خمراً قط.

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) هي الثلث الاول من الليل، والمراد هنا صلاة العشاء، لوقوعها فيها.

الزكاة

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

وأما الزكاة فواجبة على الإنسان في ماله إذا بلغ من الطعام خمسة أوسق في سنته، وجب عليه أن يُخرج عُشْر ما وقع من الطعام، والوَسَق ستون صاعاً، والستون صاعاً عشرون مكوكاً[١]، ثم ما زاد على ذلك فبحساب ذلك، كانت زيادتها قليلاً أو كثيراً.

وأما الماشية ففي أربعين شاة شاة، وفي ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة[٢]، وفي خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين ابنة مخاض[٣]، وفي ست وثلاثين ابنة لبون[٤]، فإذا كثرت الإبل ففي كل خمسين حِقَّة[٥]، وإذا كثرت الغنم ففي كل مائة شاة شاة، وإذا كثرت البقر ففي كل ثلاثين تبيع أو تبيعه، وفي كل أربعين مسنة[٦].

وفي الذهب والفضة كائناً ما كان من نقد أو حلى أو دين أو صداق، فإذا حال

---

(١) وبالمكيال المصري المعاصر يساوي الصاع سدس كيلة، ومن ثم فالوسق يساوي عشر كيلات، أما المكوك فهو صاع ونصف تقريباً. راجع د. محمد ضياء الدين الريس (الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) ص ٣٢٨، ٣٢٩. ط القاهرة. الطبعة الثانية سنة ١٩٦١م.

(٢) التبيع هو العجل المدرك. والمراد هنا ما أوفى سنتين ودخل في الثالثة.

(٣) المخاض: الحامل من الابل، والمراد هنا ما أوفت سنة ودخلت في الثانية.

(٤) أي ذات لبن، والمراد هنا ما أوفت سنتين ودخلت الثالثة.

(٥) الناقة الحقة: هي التي جاء وقت صرابها، أي دارت السنة وتمت مدة حملها، والمراد هنا الناقة التي أوفت ثلاث سنين ودخلت الرابعة.

(٦) أي كبيرة، والمراد هنا ما أوفت ثلاث سنين. راجع باب الزكاة في (كتاب منهج السالك في مذهب الامام مالك) للشيخ محمد الغزالي. ط القاهرة مطبهة الصدق الخيرية، بدون تاريخ. و(كتاب دليل السالك لمذهب الامام مالك) للشيخ محمد محمد سعد. ط القاهرة. الطبعة الثانية سنة ١٩٢٣.

على وزن عشرين مثقالاً ذهباً ففيه ربع عُشْره، وما زاد على العشرين فبحساب ذلك.

وفي الفضة إذا بلغت مائتي درهم قفلة[1] وحال عليها الحول وجب فيها ربع عُشْرها.

وأما العطب[2] والقصب والثمار: ما لم يكن يكال، فإذا باع صاحبها في سنته بمائتي درهم قفلة أخرج عُشْرها.

والزكاة كلها إلى إمام المسلمين من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي يحكم بكتاب الله رب العالمين، ويسير في رعيته بسيرة جده خاتم النبيين، لقول الله عز وجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾[3]، ثم أمر خلقه أن يدفعوا إليه، فقال: ﴿**وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا**﴾[4]، ولا تدفع إلى غير المحق، فإذا عدمت الرعية هذا الإمام ولم يوجد على ظاهر الدنيا في شرقها وغربها وجب عليهم أن يقسموها بين خمسة أصناف من المسلمين. بين الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والغارم، وفي الرقاب، ويتركوا الثلاثة العاملين عليها وهم الذين يجمعون الزكاة من الرعية لإمام المسلمين، والمؤلفة قلوبهم، وهم الذين لا يلحقون إمام المسلمين إلا بشيء يعطيهم ولا غناء للإمام عنهم يتألفهم بهذه الزكاة، وفي سبيل الله، فالسبيل هو القتل والقتال وصلاح الإسلام والمسلمين.

فأما الفقير: فهو رجل ليس له مال، وله عولة[5] ومنزل وخادم، فيجب له أن يأخذ من هذه الزكاة ما يقوم به ويعوله.

والمسكين: فهو الذي يدور ويطلب وليس معه شيء. وابن السبيل: مار الطريق، يحتاج إلى زاد وكسوة أو كراء. وفي الرقاب: رجل يكون له عبد فيكاتبه عبده على أنه يدفع إليه شيئاً معروفاً يتراضيان عليه: العبد والمولى، فيجب على صاحب الزكاة أن يعين هذا العبد على فك رقبته، وذلك قول الله تبارك وتعالى:

---

(١) أي جملة ومرة واحدة. راجع أساس البلاغة للزمخشري.
(٢) هكذا في الاصل.
(٣) التوبة: ١٠٣.
(٤) الانعام: ١٤١.
(٥) قوت العيال.

﴿**والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً**﴾[1]، ثم قال لأصحاب الزكاة: ﴿**وآتوهم من مال الله الذي آتاكم**﴾، فأمرهم أن يعينوا المكاتبين من أموال الله التي آتاهم، فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يدفع هذه الزكاة إلى هؤلاء المسلمين من الفقير والمسكين وابن السبيل والغارم والمكاتب، إلا أن يكونوا عارفين بالله عز وجل وبحدوده وأعدائه وأوليائه، فيوالون أولياءه، ويعادون أعداءه، ويُحِلُّون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يتعدون حداً من حدوده، وجب لهم حينئذ الزكاة، وإذا لم يكونوا على هذه الصفة لم يجب لهم من الزكاة شيء، وإن كانوا معدمين فقراء لأن الله، عز وجل، جعل هذه الزكاة لعباده المسلمين وأوليائه الصالحين لأن يبتغوا فيما رزقهم ويستغنوا بفضل الله الذي أفضل عليهم، ويثيب أهل الأموال فيما أخرجوا من زكوات أموالهم لأن يستعيْن كل بنعمة الله وفضله.

فإذا كان الفقير على غير الإستواء، ثم دفع صاحب الزكاة إليه شيئاً من المال، فقد قواه على فسقه وفجوره وطغيانه، وكان له شريكاً في عصيانه، كدأب الذين يعينون الظالمين ويقيمون دولتهم بزرعهم وتجارتهم، وينصرونهم على قتل المسلمين وهتك حريمهم وأخذ أموالهم، ولولا التجار والزارعون ما قامت للظالمين دولة ولا ثبتت لهم راية. ولذلك قال الله، تبارك وتعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾[2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى «آله»[3]: «إن الله بعثني بالرحمة واللُّحْمة[4]، وجعل رزقي تحت ظلال رمحي، ولم يجعلني حراثاً ولا تاجراً، ألا إن شرار عباد الله الحراثون والتجار، إلا من أخذ الحق وأعطى الحق»، لأن الحراثين يحرثون والظالمين يلعبون، ويحصدون وينامون، ويجوعون ويشبعون، ويسعون في صلاحهم وهم يسعون في هلاك الرعية، فهم لهم خدم لا يؤجرون وأعوان لا يشكرون، فراعنة جبارون، وأهل خنا فاسقون، إن استُرْحِموا لم يرحموا، وإن استنصفوا لم ينصفوا، لا يذكرون المعاد، ولا

(١) النور: ٣٣.
(٢) هود: ١١٣.
(٣) غير موجودة في الاصل.
(٤) القرابة.

يصلحون البلاد، ولا يرحمون العباد، معتكفون على اللهو والطنابير[1]، وضرب المعازف والمزامير، قد اتخذوا دين الله، دغلاً[2]، وعباده خولاً، وماله دولاً، بما يقويهم التجار والحراثون، ثم هم يقولون: إنهم مستضعفون، كأن لم يسمعوا قول الله، تبارك وتعالى، فيهم وفيمن اعتل بمثل علتهم، إذ يحكى عنهم قولهم: **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم، قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾**[3]، وقال، سبحانه: **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾**[4]، يقول: من هاجر من دار الظالمين، ولحق بدار الحق والمحقين، رزقه الله من الرزق الواسع ما يرغم أنف من ألجأه إلى الخروج من وطنه، وذلك ما يروى عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، أنه كان يقول: يروى أن الله، عز وجل، يجعل أعوان الظالمين يوم القيامة في سرادق من نار، ويجعل لهم أظافير[5] من حديد يحكون بها أبدانهم[6]، حتى تبدو أفئدتهم فتحرق، فيقولون: يا ربنا، ألم نكن نعبدك؟ قال: بلى، ولكنكم كنتم أعواناً للظالمين. وقال النبي، صلى الله عليه وآله: «ملعون ملعون من كثَّر سواد ظالم»[7].

وفي معاداة الظالمين ما يقول الله، عز وجل: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾**[8]، فباين ابراهيم والذين معه آباءهم وأبناءهم وإخوانهم الذين بادؤوا الله بالعداوة، وكذلك يجب على كل مؤمن أن يقتدي بفعلهم.

---

(١) جمع طنبور، آلة موسيقية طويلة العنق ذات أوتار نحاسية.

(٢) من معانيه الريبة، والحقد، والعيلة، والخيانة.. الخ.. الخ.

(٣) النساء: ٩٧.

(٤) النساء: ١٠٠.

(٥) جمع الجمع لاظفار، التي مفردها ظفر.

(٦) مكانها في الاصل كلمة غير واضحة.

(٧) من معاني السواد: المال الكثير، والعدد الكثير، والريف والقرى المحيطة بالمدينة.

(٨) الممتحنة: ٤.

المحكم والمتشابه

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

إعلم أن القرآن محكم ومتشابه، وتنزيل وتأويل، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وحلال وحرام، وأمثال وعبر وأخبار وقصص، وظاهر وباطن. وكل ما ذكرنا يصدق بعضه بعضاً، فأوله كآخره، وظاهره كباطنه، ليس فيه تناقض، وذلك أنه كتاب عزيز جاء من رب عزيز على يدي رسول كريم، وتصديق ذلك في كتاب الله حيث يقول ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[1] ويقول: ﴿**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ**﴾[2]، ويقول: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[3].

فإذا فهم الرجل ذلك أخذ حينئذ بمحكم القرآن، وأقر بمتشابهه، أنه من الله، كما قال الله سبحانه: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾[4]، ثم بين، عز وجل، لأي معنى تركوا المحكم وأخذوا بالمتشابه، قال: لابتغاء الفتنة والهلكة، فلذلك جعل المحكم إماماً للمتشابه، كما جعله حيث يقول: ﴿ **هن أم الكتاب**﴾.

فالمحكم كما قال الله: ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾[5]، و﴿**ليس كمثله شيء**﴾[6] و﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾[7] ونحو ذلك.

---

(١) فصلت: ٤٢.
(٢) البروج: ٢١.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) آل عمران: ٧.
(٥) الاخلاص: ٤.
(٦) الشورى: ١١.
(٧) الانعام: ١٠٣.

والمتشابه مثل قوله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[1]، معناها بَيِّن عند أهل العلم، وذلك أن تفسيره عندهم: أن الوجوه يومئذ تكون نضرة مشرقة ناعمة، إلى ثواب ربها منتظرة، كما تقول: لا أنظر إلا إلى الله وإلى محمد، ومحمد غائب، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة، معناه: لا يبشرهم برحمته ولا ينيلهم ما أنال أهل الجنة من الثواب، فعندما لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، يراهم.

ثم قال: ﴿من كان يرجو لقاء ربه﴾ يقول، ثواب ربه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾[2]، وقال: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾[3].

وأما الله عز وجل، فلا يُرَى في الدنيا ولا في الاخرة، وذلك أن ما وقع عليه البصر فليس بخالق ولا قادر. وكذلك يأخذ الإنسان في العدل والتوحيد بهذه الآيات: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾[4] ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[5]، وإذا مر عليه شيء من القرآن يقع عنده أنه مخالف لهذه الآية، فليعلم أن تفسيره مثل تفسير المحكم، إلا أنه جهل تفسيره، مثل قول الله، عز وجل: ﴿وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض﴾[6] أي تختارون اسم الفساد، كما قال: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾[7]، أي يقول: أعلمناه.

والوجه الثاني في القضاء: أمر، كما قال، سبحانه: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[8] يقول: أمر ربك ألا تعبدوا إلا إياه.

والوجه الثالث قضاء: خلق، وذلك قوله: ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾[9]، يقول: خلقهن في يومين. فأما أن يكون يقضي رب العالمين على خلقه بمعصية، ثم يعذبهم عليها، فهذا محال باطل من المقال.

ثم قال: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب

---

(١) القيامة: ٢٢. (٢) الكهف: ١١٠.

(٣) المطففون: ١٥. وفي الاصل ذكرت الاية خطأ هكذا: (ثم أنهم).

(٤) الاعراف: ٢٨. (٥) الزمر: ٧.

(٦) الاسراء: ٤. (٧) الحجرات: ٦٦.

(٨) الاسراء: ٢٣. (٩) فصلت: ١٢.

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾[1]، فتفسيرها على التقديم والتأخير.

يقول: قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴿أولئك شر مكاناً﴾ وجعل منهم القردة والخنازير خارج من الكلام، ثم قال: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ بيانها في أولها حيث يقول: ﴿ويحرفون الكلم عن مواضعه يقولون أن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾[2] بعدما كان من عصيانهم ومن مخالفتهم للحق وأهله.

ثم قال، عز وجل: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم وآشدد على قلوبهم﴾[3]، بقوله: آتيتهم يا رب هذه الأموال والأولاد والأبدان والخيل والرجال، يعني أنه خلقهم لا أنه ملكهم ﴿ربنا ليضلوا﴾، يقول: لئلا يضلوا عن سبيلك، فضلوا، وصرفوا نعمتك التي أمرتهم أن يصرفوها في طاعتك لا في معصيتك، فعندما فعلوا ذلك ﴿ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنون﴾، يقول: إنهم لا يؤمنون اختياراً من أنفسهم المعصية والكفر، ثم قال: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾[4] يقول: إن هي إلا محنتك تضل بها من تشاء، فوقع اسم الضلال على من يستحقه بعد هذه الفتنة قامت «بها» مقام «بعد». ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[5] يقول بعد ظلمهم إذا تابوا، وقال: ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾[6] يقول: على جذوع النخل قامت في مقام علي، ﴿ونصرناه من القوم﴾يقول على القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾[7]. وقال: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾[8]، يقول: أهل القرية

---

(١) المائدة: ٦٠.
(٢) المائدة: ٤١.
(٣) يونس: ٨٨.
(٤) الاعراف: ١٥٥.
(٥) الرعد: ٦.
(٦) طه: ٧١.
(٧) الانبياء: ٧٧.
(٨) يوسف: ٨٢.

وأهل العير. وقال: ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يُخَوِّف أولياءه**﴾[1]، يقول: يخوف الناس بأوليائه وقال: ﴿ **يحبونهم كحب الله**﴾، يقول: يحبون أندادهم كحب المؤمنين لله ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾[2]، ﴿ **يخشون الناس كخشية الله**﴾[3]، يقول: يخشون الناس كخشية المؤمنين لله.

وقال: ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية**﴾[4]، والعرش (هو)[5] الملك، كما قال: ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم**﴾[6] قال الشاعر:

تداركتها عَبْساً وقد ثل عرشها   وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

يقول: إنه تهدم عزها وملكها. ومعنى: ﴿ **ويحمل عرش ربك** ﴾ يقول: يتقلدون أمر الله ونهيه في خلقه، كما قال: ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم**﴾[7]، يقول: يتقلدون أمورهم، وقال:

حُمِّلت أمراً جليلاً فاضطلعت به   وقمت فيه بحق الله يا عمرا

يقول: قلدت أمراً جليلاً. (فوقهم)، يقول: منهم، قامت فوق مقام من (ثمانية)، يمكن أن تكون[8] ثمانية أصناف أو ثمانية آلاف، أو ثمانية أنفس. ويقول: ﴿ **يوم يكشف عن ساق**﴾[9]، يقول: عن شده، كما قال:

قامت بنا الحرب على ساق فشمرنا على

ويقول ابليس اللعين: ﴿ **رب بما أغويتني**﴾[10]، يقول: دعوتني بهذا الاسم بعد أن استوجبته، و﴿ **ما ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾[11]، يقول: يعذبكم، الإغواء، في هذا الموضع: العذاب، كما قال: ﴿ **فسوف يلقون غياً**﴾[12].

---

(١) آل عمران: ١٧٥.
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) النساء: ٧٧.
(٤) الحاقة: ١٧.
(٥) في الأصل: فهو.
(٦) النمل: ٢٦.
(٧) العنكبوت: ١٣.
(٨) من هنا يبدأ ثانية اعتمادنا على النسخة أ مع النسخة ب، وينتهي السقط الذي وقع في النسخة أ، ويستمر ترقيمنا معتمداً على لوحات النسخة أ.
(٩) القلم: ٤٢.
(١٠) الحجر: ٣٩.
(١١) هود: ٣٤.
(١٢) مريم: ٥٩.

خطايا الأنبياء

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

اعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يعص أحد منهم متعمداً، يعلم أن لله معصية فيتعمدها، وذلك لا يجوز على الأنبياء لأنهم أصفياؤه ورسله اختارهم على علم سبق منه فيهم، أنه إذا بعثهم إلى خلقه سيبلغون الرسالة ويؤدون الأمانة ولا يعصونه في شيء من الأشياء، فعلى ذلك اصطفاهم واختارهم. قال في قصة آدم، عليه السلام: **﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾**[١] وقال في قصة نوح عندما دعا ربه: **﴿رب إن ابني من أهلي﴾** فقال له ربه: **﴿إنه ليس من أهلك﴾**، يقول: ليس من أهل طاعتك: **﴿إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾**، فقال نوح: **﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾**[٢]، فتاب عليه السلام من ذلك.

وكذلك يوسف، صلى الله عليه، عندما أخذ يوسف أخاه على دين الملك، فقال رب العالمين في ذلك: **﴿كذلك كِدْنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾**[٣]، وقال موسى، عندما قتل القبطي: **﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾**[٤] **﴿وهذا من عمل الشيطان﴾**[٥]، وقال: **﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾**[٦]، يقول: من الجاهلين لعاقبة أمري.

وداود، عليه السلام، عندما نظر إلى امرأة «أوريا» فأعجبته، ثم كان يذكرها في نفسه دائماً ويقول: لو دريت إن هذه المرأة على هذه الصفة لتزوجتها قبل أن

---

(١) طه: ١١٥.
(٢) هود: ٤٥ ـ ٤٧.
(٣) يوسف: ٧٦.
(٤) القصص: ١٦.
(٥) القصص: ١٥.
(٦) الشعراء: ٢٠.

يتزوجها «أوريا»، فلما أن بعث الله إليه الملَكين اللذين تخاصما إليه، وحكم داود بينهما بالحق، علم أنه مخطىء في ذلك فتاب إلى ربه، فتاب الله عليه.

وكذلك سليمان، ويونس، وأيوب، وجميع الأنبياء، صلوات الله عليهم، ما كانت خطاياهم وعصيانهم إلا على وجه الزلل والنسيان. فاعلم ذلك، ولا تنسب إليهم ما لا يليق بهم، لأنهم بررة أنقياء أصفياء، صلوات الله عليهم.

الكتاب

قال يحيى بن الحسين، صلوات الله عليه:

تفسير «الكتاب» في القرآن على وجوه شتى:

فوجه منها: علم، كما قال الله تبارك وتعالى: **﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾**[1]، يقول: في علم الله. ويقول: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾**[2]، يقول: في علم الله من قبل أن يخلق الأنفس. ويقول **﴿كتب الله﴾** يقول: علم الله **﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾**[3]، وقال: **﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾**[4] يقول: في علم مبين، وقال: **﴿وكل شيء فعلوه في الزُّبُر﴾**[5]، يقول: في علم الله، وقال: **﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾**[6]، يعني: علمه، عز وجل، وقال: **﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾**[7]، يقول: علم.

فالكتاب ها هنا كتاب علم، لأن الله (تبارك)[8] وتعالى قد علم أنهم سيختارون البراز إلى مضاجعهم، فإذا برزوا اختياراً من أنفسهم للبراز قَتَلوا أو قُتِلوا، فالبراز فعل من البارز والقتل فعل من القاتل المعتدي، فعلم الله محيط (بالقاتل والبارز)[9]، وليس العلم الذي جبرها على البراز والقتل، والبراز والقتل فعل من البارز والقاتل، وعلم الله محيط بهما.

---

(١) فاطر: ١١.
(٢) الحديد: ٢٢.
(٣) المجادلة: ٢١.
(٤) الانعام: ٥٩.
(٥) القمر: ٥٢.
(٦) الجاثية: ٢٩.
(٧) آل عمران: ١٥٤.
(٨) غير موجودة في ب.
(٩) في أ: بالبارز والقاتل.

كما قال، عز وجل: ﴿**والله يعلم متقلبكم ومثواكم**﴾[1]، التقلب من الخلق، وعلم الله محيط بهم، ولا يقدر أحد أن يخرج من علم الله، وليس علم الله الذي يُدْخِلهم في الطاعة ويخرجهم من المعصية (ولا علمه الذي يدخلهم في المعصية ويخرجهم من الطاعة)[2]، ولكن (قوماً)[3] اختاروا الطاعة على المعصية فاستوجبوا من الله الرضى والرضوان، لأنهم سعوا في إرادة الله ومشيئته، واختار قوم المعصية على الطاعة، فاستوجبوا من الله السخط والعقوبة، لأنهم سعوا في سخط الله وكرهوا رضوانه، ﴿**ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم**﴾[4]، واتبعوا أهواءهم، وأرضوا الشيطان بفعلهم، فصاروا في حزبه ﴿**أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾[5]، لأن الله لا يُقَدِّر أبداً ما يكره، ولا يقدر إلا ما يرضى، وليست مشيئته تقع إلا على رضاه، ولا يكره إلا ما يسخطه. فاعلم ذلك، ﴿**فمنهم شقي وسعيد**﴾، كما قال عز وجل: ﴿**يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقي**﴾[6] في ذلك اليوم بعمله القبيح الذي قدمه في دار دنياه، ومنهم سعيد بعمله الصالح الذي قدمه في هذه الدنيا، ولذلك قال: عز وجل: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس**﴾[7]، يقول: إنه يعيدهم ويخلقهم يوم القيامة خلقاً ثانياً (لجنهم)[8]، من خرج من الدنيا عاصياً. وإن كان لفظ «ذرأنا» لفظ ماض فمعناه مستقبل، كما قال: ﴿**ونادى أصحاب الجنة**﴾[9]، ونادى أصحاب الأعراف، يقول: إنهم سينادون، لا إنه، عز وجل، خلقهم للنار في هذه الدنيا، هو سبحانه يقول خلاف ذلك في كتابه، قال: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[10]، لم يخلق جميع خلقه إلا لعبادته، ولذلك ركب فيهم العقول، وأرسل إليهم الرسول، وأنزل عليهم الكتب ﴿**ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾[11]، وقال: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾[12] في الكرامة.

---

(١) محمد: ١٩.
(٢) غير موجودة في أ.
(٣) في أ، ب: قوم.
(٤) محمد: ٢٨.
(٥) المجادلة: ١٩.
(٦) هود: ١٠٥.
(٧) الأعراف: ١٧٩.
(٨) غير موجودة في أ.
(٩) الاعراف: ٤٤.
(١٠) الذاريات: ٥٦.
(١١) النجم: ٣١.
(١٢) يونس: ٢٦.

والوجه الثاني: من كتاب الله قوله سبحانه: ﴿**وكتبنا عليهم فيها**﴾، يقول: فرضنا عليهم: ﴿**أن النفس بالنفس**﴾[1] إلى آخر الاية.

والوجه الثالث: قوله، عز وجل: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب**﴾[2]، يعني القرآن.

والوجه الرابع: «قوله»[3] ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾[4] يقول: أوجب على نفسه الرحمة، أنهم إذا تابوا رحمهم، وأوجب لهم على نفسه الرحمة، فالكاتب والمكتوب عليه في هذا الموضع واحد، وهو الله رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿**تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك**﴾[5]، يقول عيسى، عليه السلام: تعلم ما غاب عني من أمري، (ولا أعلم ما في نفسك) يقول: لا أعلم ما غاب عني من أمرك، وكذلك قوله: ﴿**أينما تولوا فثم وجه الله**﴾[6]، وقوله: ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[7]، وقوله ﴿**تجري بأعيننا**﴾[8] و(قوله)[9]: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾[10] ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه**﴾[11] فكل هذه الايات وما أشبهها من الايات، فإنما يريد عز وجل ذاته، لا أن ثَمَّ نفساً ووجهاً ويداً وعيناً ويميناً سواه. فاعلم ذلك و«تفكر»[12] في جميعه يَبِنْ لك الصواب وينفي عنك الشك والارتياب بحول الله وقوته.

تم الكتاب، والحمد لله وحده، وصلواته
على رسوله سيدنا محمد وآله وسلامه[13]

---

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) الزمر: ٢.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) القصص: ٨٨.

(٥) القمر: ١٤.

(٦) غير موجودة في أ.

(٧) الانعام: ١٢.

(٨) المائدة: ١١٦.

(٩) البقرة: ١١٥.

(١٠) المائدة: ٦٤.

(١١) الزمر: ٦٧.

(١٢) في أ، ب: تفسر.

(١٣) عبارة أ: «تم الكتاب المجموع، والحمد لله وحده أولاً وآخراً، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وبتمام ذكره تم الكتاب المجموع لما اتفق فيه من كتب للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين كرم الله وجهه».

كتاب

الرد والاحتجاج على
الحسن بن محمد بن الحنفية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي علا على الأشياء بِطوْله، وتقدس عن مشابهة المخلوقين بحوله، الذي علا فقدر، وقدر فقهر، وعُصِيَ فغفر، وأطيع فشكر، الذي لا مثل له فيساويه، ولا ضد له فيناويه، الذي لا تدركه الأبصار، ولا تجن[1] منه الأستار، العالم بما تجن قعور البحور، وما تكن جوانح الصدور، العالم بما سيكون، سبحانه، من قبل أن يكون، اللطيف الخبير، السميع البصير، الجليل الحكيم، الكريم الرحيم، الذي دنا فنأى، ونأى، سبحانه، فدنا، رابع كل ثلاثة، وسادس كل خمسة، الداني من الأشياء بغير ملامسة، المحيط بها من غير مخالطة، العالم بباطنها من غير ممازجة، فعلمه بما تحت الأرضين السفلى كعلمه بما فوق السماوات العلى، الموجد للأشياء من غير شيء، وجاعل الروح في كل حي، خلق خلقه حين أراده، وإذا شاء، سبحانه، أباده، بلا كلفة ولا اضطرار، ولا بتخيل ولا إضمار، ولا حاجة منه إلى الأعوان، إذا أراد إيجاد شيء كان، بلا كلفة، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، الذي لم يلده والد فيكون مولوداً، ولم يلد ولداً فيكون لذلك محدوداً، الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق، الذي بقدرته قامت السماوات بغير عماد، وفرش لعباده الأرض ذات المهاد، فاستقلت الأقطار، وسُجِّرت[2] البحار، وهطلت الأمطار، ونبتت الأشجار، وجرت الأنهار، وأينعت الثمار، فالق الحب والنوى، ومالك الآخرة والدنيا، زارع كل ما يحرثون، ومنزل الماء الذي يشربون، وخالق النار التي يورون، محصي الأعمال، ومؤجل الآجال، ومجري الأرزاق، ومسبب الأرفاق[3] الصادق في كل قول قوله، النافذ في كل شيء فعله، الذي أمر ونهى، فأمر

(١) تستر

(٢) فاضت.

(٣) المنافع.

بالتقوى، وزهد في الدنيا، ونهى عن العصيان، وحض على «الإحسان»[1] وخلق ثواباً وجعل، فأعد للمطيعين الجنان، وأجج للعاصين النيران، ﴿**ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾[2]، قابل التوبة، مقيل العثرة، مجيب الدعوة، الذي لا يعافص[3] من عصاه، ولا يخيب أبداً من رجاه، يقبل اليسير الصغير، ويعطي عليه الكثير، الذي لم يزل قادراً ولا يزال، فسبحان ذي القدرة والعز والجلال.

أحمده على نعمائه، وأعوذ به من بلوائه وأستجير به من نقمته، وأستديمه لنعمته، الذي شملت خلائقه نعماؤه، وتظاهر عليهم إحسانه وآلاؤه، سائق كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة (وأذى)[4]. أشهد له سبحانه، بالربوبية وبالعدل والصدق والوحدانية، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مقلب القلوب، الغافر لمن تاب من موبقات الذنوب، البريء المتعالي عن كل نَصَب ولغوب[5]، البائن عن الصفات، (فليست)[6] تحده (المقالات)[7]، ولا تنقصه الساعات، ولا تعروه السنات، المحمود في كل الحالات.

وأشهد أن محمداً عبده، ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، صلى الله عليه وعلى آله، الداعي إليه، بعثه، سبحانه، بحجته، واستنقذ به من النار أهل طاعته، بعثه في طامية طمياء[8]، ودياجير مظلمة عمياء، وأهاويل فتنة دهماء، فدفع فسق الكفر والفساد، وأبهج سبيل الحق والرشاد، وأدحض عبادة الأوثان، وأخلص عبادة الرحمن، وصدع بأمر ربه، وأنفذ ما أمره به، ودعا إليه علانية وسراً وأمر بعبادته، سبحانه، جهراً، صابراً على التكذيب والأذى داعياً لهم إلى الخير والهدى، حتى قبضه الله إليه، وقد رضي عمله، وتقبل سعيه، وغفر ذنبه، وشكر فعله، فصلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار الصادقين الأبرار.

---

(١) في ب: الايمان.
(٢) النجم: ٣١.
(٣) يصارع، ويثخن، ويقتلع.
(٤) في أ، ب: أذل.
(٥) التعب والاعياء الشديد.
(٦) في أ: فليس.
(٧) في أ، ب: القالات.
(٨) شدة شديدة.

ثم نقول، بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة على محمد، صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

أما بعد..

فإنه وقع إلينا كلام الحسن بن محمد بن الحنفية[1]، يؤكد فيه الجبر، ويشدد

(١) والحسن بن محمد بن الحنفية الذي خصص المؤلف هذا الكتاب للرد عليه ونقض قوله هو غير الحسن بن محمد بن الحنفية حفيد الإمام علي بن أبي طالب وأخو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، والمتوفى سنة ٩٩ أو سنة ١٠٠هـ (٧١٨ م) ذلك أن الحسن بن محمد هذا إنما كان يرى رأي أصحاب العدل والتوحيد، وهو معدود في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة، والحاكم أبو سعد محسن بن كرامة يقول في الجزء الاول من (شرح عيون المسائل) في اللوحة ٧٢ من المصورة (٢٧٦٢٣ ب) بدار الكتب المصرية، وهو يتحدث عن الطبقة الثالثة للمعتزلة: «ومنهم.. الحسن بن محمد، وهو أستاذ عيلان الدمشقي، عنه أخذ المذهب» ويقول عنه ابن سعد في (كتاب الطبقات الكبير) جـ ٥ ص ٢٤١ ط ليدن سنة ١٣٢٢هـ أنه «كان من ظرفاء بني هاشم وأهل العقل منهم» كما يقول عنه الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني في (تهذيب التهذيب) جـ ٢ ص ٣٢٠ ط حيدر آباد سنة ١٣٢٥هـ أنه «توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وليس له عقب، وكان يقدم على أخيه أبي هاشم في الفصل والهيئة.. وكان من أوثق الناس عند الناس». إذن فمن هو الحسن بن محمد بن الحنفية الذي يرد عليه الإمام يحيى هنا؟؟ ان كتب الطبقات، والتي تتحدث عن فرق الشيعة لا تهتم كثيراً بالحديث عن ابناء محمد بن الحنفية، لانه ليس سوى فرقة «الكيسانية» من فرق الشيعة هي التي تولتهم فيما يتعلق بالإمامة، أما سائر فرق الشيعة فانها تتولى الحسن والحسين وأحفادهما باعتبارهما أبناء فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام، ونحن نجد عدداً من أئمة الشيعة ورجالات أهل البيت ممن يحملون اسم الحسن، ومنهم: الحسن العسكري، الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية والمتوفى سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م)، والحسن العلوي مؤسس دولة العلويين بطبرستان، وهو الحفيد السادس للإمام علي، ولقد توفي سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م) وهما معاصران للإمام يحيى بن الحسين، ولكن نسبهما يرتفع إلى أبناء فاطمة الزهراء من الإمام علي، وليس إلى محمد بن الحنفية، إلا أن أبا محمد الحسن بن موسى النوبختي يجلي لنا الحقيقة في كتابه (فرق الشيعة) ص ٥٢، ٥٣ ط النجف سنة ١٩٥٩، فيذكر، عرضاً، أنه قد كان هناك من أحفاد محمد بن الحنفية اثنان باسم الحسن أحدهما «الحسن بن علي بن محمد بن حنفية» والثاني «الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية» وأن كلا منهما كان إماماً من أئمة (الكيسانية الخلص) «المحتارية»، وهذه الفرقة كانت من علاة الشيعة، وهؤلاء الغلاة هم الذين ظهرت بينهم أفكار الجبر والتشبيه التي يناقشها ويرد عليها الإمام يحيى بن الحسين في هذا الكتاب، وفي اللوحة ٣٢ من الجزء الاول من (شرح عيون المسائل) يقول الحاكم أن الشيخ أبا القاسم قد ذكر أن لهؤلاء الغلاة «أقوالاً سوى قولهم بالإمامة، وهو القول بالبداء والرجعة وحدوث العلم وأكثرهم يعتقدون الجبر والتشبيه» كما يتحدث في اللوحة ٣٣ من نفس المخطوط عن أنه قد نشا منهم «القول بالتناسخ» ثم يمضي نافياً أن يكون في الصحابة أو التابعين من قال باقوال هؤلاء العلاة فيذكر أنه «لا =

في ذلك منه الأمر، ويزعم فيه أن الله، سبحانه، جبر العباد أجمعين، من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، وجميع الثقلين، على كل الأعمال، من صالح أو فاسد أو طالح، فرأينا أن نجيبه في ذلك، وننقض عليه ما جاء به من المهالك، ونثبت عليه في ذلك كله، لربنا وسيدنا وخالقنا ما هو أهله مما هو عليه، وما لا يجوز لخلق الله، أن يقول بغيره فيه، فاختصرنا له في قوله الجواب، وتركنا، خشية التطويل، كثيراً من الأسباب[1]. فلينظر من نظر في قولنا وقوله، وجوابنا لسؤاله، بلب حاضر ورأى حي صادر، يبِن له الحق، إن شاء الله، ويثبت في قلبه الصدق. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمد، خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطاهرين وسلم.

= سلف لهم، ومن نظر في الاخبار علم أنه ليس لهم في الصحابة والتابعين سلف، وأن أقوالهم مما حدثت بعد ذلك، إلا أن البدع إذا ظهرت أولاً تكون في قلة ثم تزيد حتى تظهر وتصير فرقة»وهو هنا ينفي، ضمنياً، أن يكون الحسن بن محمد بن الحنفية، الذي يرد عليه الإمام يحيى، هو حفيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لانه من هؤلاء السلف الذين لم يحدثوا هذه البدع المكرية في الجبر والتشبيه.

(١) الطرق والسبل والادلة.

المسألة الأولى

فكان أول ما سأل عنه أن قال: أخبرونا عن رسل الله، من بني آدم، هل جعل الله لهم السبيل والاستطاعة إلى ترك البلاغ؟ ولو شاءوا لغيروا ما أُمِرُوا به من تبليغ الوحي والعمل بالسنن؟ أو ألزموا على ذلك إلزاماً، فلا يستطيعون على تركه ولا الزيادة فيه ولا النقصان منه؟

فإن قالوا: نعم، قد جعل الله لهم سبيلاً واستطاعة لترك البلاغ، فلو شاءوا لغيروا ما نزل إليهم من كتابه وحكمته، فقد دخلوا في أعظم مما كرهوا حين زعموا أن الرسل لو شاءوا لم يعبدوا الله بالتوحيد، ولم يعملوا له بطاعة، إذ زعموا أنهم كانوا يقدرون على كتمان الوحي (والسنن)[1].

فيقال لهم: وأنتم الآن لا تدرون هل بلغت الرسل كل ما جاءهم من الوحي والسنن أم لا؟

فإن قالوا: نعم، يقدر الرسل على كتمان الوحي والسنن إذا أرادت ذلك، احتُجَّ عليهم، وإن قالوا: لم يكن الرسل يقدرون على كتمان الوحي ولا إبدال الفرائض ولا ترك البلاغ، لأن الله ألزمهم البلاغ إلزاماً، فلا يقدرون على تركه وكتمانه، فقد أجابوا، وفي ذلك نقض لقولهم.

جوابها:

بسم الله الرحمن الرحيم

فكان أول ما سأل عنه، أن قال: أخبرونا عن قولكم فيما نسأل عنه، نبئونا،

(١) في ب: ومر السنن، والمراد الشرائع والنواميس.

هل الأنبياء، صلوات الله عليهم، مستطيعون لعمل فعلين متضادين في حالين مختلفين؟

وقولنا في ذلك، والله الموفق لكل رشد وخير، والدافع لكل سوء وضير، أن رسل الله، صلوات الله عليهم، قد أدوا ما أمرهم الله بأدائه، على ما أمرهم، لم يشبهم في ذلك تقصير، ولم يتعلق عليهم في ذلك من التفريط جليل ولا صغير، وأنهم كانوا في ذلك كله لأمر الله مؤثرين، وعلى طاعته، سبحانه، مثابرين، وأن الله، سبحانه، لم يكلفهم أداء الرسالة حتى أوجد فيهم ما يحتاجون إليه من الاستطاعة، ثم أمرهم بعد ونهاهم وكلفهم من أداء الوحي ما كلفهم، فبلغوا عنه ما به أمرهم على اختيار منهم لذلك وإيثار منهم لطاعته وحياطة لمرضاته، لم يكن منه جبر لهم على أدائه، ولا إدخال لهم قسراً في تبليغه، بل أمرهم بالتبليغ فَبَلَّغوا، وحثهم على الصبر فصبروا، فقال، سبحانه: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾**(١)، فقال: بلغ ما أنزل إليك، ولو لم يكن التبليغ منه، صلى الله عليه وآله، باستطاعة وتَخَيُّر، لم يقل له: «بلغ» إذ الأمر لمن لا يقدر أن يفعل فعلاً حتى يُدْخَل فيه إدخالاً، ويُقلَّب فيه تقليباً محال، لأن الفاعل هو المُدْخِل لا المُدْخَل والمُقَلِّب لا المُقَلَّب فلم يأمر الله، عز وجل، أحداً بأمر إلا وهو يعلم أنه يقدر على ضده، فحثه بأمره على طاعته ونهاه عن معصيته، ألا تسمع كيف يقول: **﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾**(٢)، فأمره باحتذاء ما فعل من هو قبله من الرسل، من الصبر على الأذى والتكذيب، والشتم والترهيب، ولو كان الله، سبحانه، هو المدخل لهم في الصبر إدخالاً، ولم يكن منهم له افتعالاً، لقال: صبرناك كما صبرناهم، ولم يقل: اصبر، كما صبر أولوا العزم من الرسل، وكيف يأمر، ذو الحكمة والفضل، مأموراً بما يعلم أنه يفعله من الفعل؟ فجل الله عن ذلك، وجل عن أن يكون كذلك، فهل سمعه من جهله، سبحانه يأمر أحداً من خلقه أن يفعل شيئاً مما هو من فعله مما يتولى إحداثه فيهم؟ ويقضي به، تبارك وتعالى، عليهم؟ مما ليس لهم فيه فعل ولا

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) الاحقاف: ٣٥.

افتعال، ولا تصرف بإدخال ولا إخراج، مثل الموت والحياة وإيجاد السمع والبصر والأفئدة؟ بل ذكر ذلك كله عن نفسه، وأضاف فعله إليه بأسره، فقال: ﴿ **إنا (نحن)**[1] **نحيي ونميت وإلينا المصير**﴾[2]، ولم يأمرهم أن يموتوا ولا بأن يحيوا، وقال، سبحانه، إخباراً عمن سلف، وتوفيقاً واحتجاجاً على من جاء بعدهم وخلف: ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾[3]، فقال: جعلنا لهم ولم يقل: اجعلوا ولا تجعلوا. ثم قال: فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، فأراد، سبحانه، منهم، إذ فعل لهم الأسماع أن يفعلوا هم الاستماع «بها»[4]، فيسمعوا ما جاء به الرسول من أخبار من هلك من قبلهم وإنذار من أنذر ممن هو أشد منهم بطشاً فلم يقبل الهدى فأُهْلِك، قال، سبحانه: ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾[5]، فأراد إذ فعل لهم سمعاً أن يسمعوا به أخبار من نزل به ما نزل، فينتهوا ويسمعوا لرسله ويطيعوا ويسلموا للحق ويجيبوا، وكذلك إذ فعل لهم أبصاراً أراد أن يبصروا بها إلى ما خلق من السماوات والأرض وأنفسهم وما ذرأ وبث، فيعلموا أن لهذا خالقاً ومدبراً فيؤمنوا، وكذلك الأفئدة أراد بجعلها لهم إذ أوجدها فيهم أن يفكروا ويدبروا فيعتبروا ويميزوا فيهتدوا ولو كان، سبحانه وتعالى عن ذلك، المتولي لفعل أفعالهم لم يحتاجوا إلى الإسماع والتبصير والتفكير، إذ كان الله المتولي لإنفاذ ما أرادوا والمُمْضِي، دونهم لكل فعل منهم، ولم يقل، عز وجل: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾، وكيف يستمعون إذا أسمعوا، ويستبصرون إذا أبصروا وينتفعون إذا فكروا، وهم لا ينالون ذلك ولا يقدرون عليه، وغيرهم الفاعل «له»[6] المصرف لهم فيه؟

---

(١) غير موجودة في ب.
(٢) ق: ٤٣.
(٣) الأحقاف: ٢٦.
(٤) سقطت من ب.
(٥) ق: ٣٧.
(٦) سقطت في أ.

فتعالى مَنْ فعله غير فعل خلقه، ومَنْ أمر عباده باتباع حقه. ألا تسمع كيف قوله سبحانه، وإخباره عن المؤمنين والفاسقين، فقال: **﴿ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً﴾**[1]، وقال، في الفاسقين: **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطير الأولين﴾**[2]، فمدح المؤمنين على ما قالوا من الصدق في رب العالمين، وذم الفاسقين على قولهم الباطل في أحسن الخالقين.

ولو لم يكن العباد متخيرين، ولا مما أرادوا متمكنين، وكان الحامل لهم على أفعالهم، المدخل لهم في كل أعمالهم، رب العالمين، لكان هو القائل، لما نزل من الحق: أساطير الأولين، ولم يكونوا هم القائلون بما قالوا من قولهم، والناطقون بما أنطقهم عند العدل الجواد الرؤوف الرحيم بالعباد، بمذمومين ولا عليه بمعاقبين، ففي أقل من ذلك حجة لذوي الإيمان المميزين.

وأما ما قال: من أنهم إن كانوا، صلوات الله عليهم، قادرين على التبليغ والترك، وكان تبليغهم اختياراً منهم للطاعة على المعصية ولرضاه على سخطه، فما يدريكم لعلهم قد تركوا وبدلوا وغيروا وخانوا أو ستروا واجباً وخالفوا؟.

قيل له في ذلك من الحجة، والحمد لله، أبين البيان وأنور القول والبرهان: ألا تعلم، أيها السائل، أن الله، سبحانه، لا يزكي إلا زكياً رفيعاً؟، ولا يذكر بالطاعة إلا سامعاً مطيعاً؟، ولا بالأداء إلا مؤدياً؟.. وقد وجدنا الله، سبحانه، ذكر في توراته التي أنزلها على موسى بن عمران تبليغ من بعثه من أنبيائه بوحيه، من نوح، وابراهيم وغيرهما، وأثنى عليهم بذلك، وحض موسى، صلوات الله عليه الاقتداء بهم والإيثار لما آثروا من الطاعة لربهم، ثم قص قصة موسى، صلى الله عليه، وذكر فضله «وتبليغه»[3] وصبره واجتهاده وفعله في الانجيل الذي أنزله على عبده المسيح، المطهر من كل قبيح، صلوات الله عليه، ثم قص قصة عيسى على محمد، وذكر له من قصته واجتهاده وتبليغه وتبليغ غيره من الرسل، فقال: **﴿وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾**[4]، فصدق بما جاء به موسى، وبشر بما أمر من التبشير به من

---

(١) النحل: ٣٠.
(٢) النحل: ٢٤.
(٣) سقطت من أ.
(٤) الصف: ٦.

البشير النذير الرؤوف بالمؤمنين الرحيم محمد الرسول الكريم، ثم ذكر لنا في كتابه أن رسوله قد بلغ وأنذر، وأخبر أنه قد أدى كل ما يجب عليه، فقال: **﴿ما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾**[1]، وقال: **﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾**[2]، ولو كان منه، صلى الله عليه وآله، غير الاجتهاد لم يقل سبحانه: **﴿فما أنت بملوم﴾**. فقد برأه الله من كل دنس ولوم.

فقد بطلت حجة من أراد الطعن على الأنبياء المهتدين، المؤدين لأمر الله الخانعين، بما قال عنهم وذكر فيهم رب السماوات والأرضين. والحمد لله وسلامه على المرسلين.

تمت المسألة

---

(١) المائدة ٩٩.

(٢) الذاريات: ٥٤.

المسألة الثانية

ثم أتبع هذه المسألة، فقال: أخبرونا عن ابليس، ما أخطر المعصية على باله؟ أو من أوقع التكبر في نفسه؟

فإن قالوا: نفسه أمرته بالمعصية، وهواه حمله على التكبر، فقل: من جعل نفسه أمَّارة بالمعصية، وهواه حاملاً على التكبر؟

فإن قالوا: الله، كان ذلك نقضاً لقولهم، ويقال لهم: فمن أعطاه علم الخديعة والمكر؟ الله جعل ذلك في نفسه؟ أو شيء جعله هو لنفسه؟

فإن قالوا: الله جعل ذلك له، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: إن ذلك لم يكن من الله عطاء ولا قسماً، فقد دخل عليهم أعظم مما هربوا منه حين زعموا أن غير الله يجعل في خلقه ما لم يرد الله أن يكون فيهم، فما أعظم هذا من القول!!

وسلهم: من أين علم ابليس أن آدم يكون له ذرية وأن الموت يقضي عليهم وأنه يكون بينهم لله عباد مخلصون وأنه يحتنكهم إلا قليلاً منهم؟

فإن قالوا: إن الله أعلمه ذلك، فقد نقض ذلك قولهم، وإن قالوا: إن ابليس علمه من قِبَل نفسه، فقد زعموا أن ابليس يعلم الغيب، فسبحان الله العظيم!!

جوابها

وأما ما سأل عنه وقاله من أمر ابليس فقال: من أخطر المعصية على باله؟ ومن أوقع التكبر والمكر والخديعة في نفسه؟

فإنا نقول في ذلك أن الله أعطى ابليس من الفهم واللب ما يقدر به على التمييز بين الأمور، ويعرف به الخيرات من الشرور، ويقف به على الصالح من ذلك والطالح، وإنما أعطاه الله ذلك، وجعله وكل الخلق المتعبدين كذلك، لأن يعرفوه أو يعرف ما افترض الله عليهم وعليه، فيتبع ذلك دونَ غيره، ويَثابر عليه، ويعرف ما

يسخط الله فيجتنبه ويتقيه، ويحاذر انتقامه فيه، ولو لم يعطه وغيره ذلك لم يهتدوا أبداً إلى فعل خير ولا شر ولا تخير طاعة ولا إيثار هوى ولا اتباع تقوى، ولو كان الخلق كذلك لكان معنى الثواب ساقطاً عنهم ولما جرى أبداً عقاب عليهم، ولو لم يجر عقاب ولم يُنَل ثواب لم يُحْتَج إلى جنة ولا نار، ولما وقع تمييز بين فجار ولا أبرار، وقد ميز الله ذلك فقال: **﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾**[1]، ولو كان ذلك كذلك لكان معنى الملك والتمليك عند الله، سبحانه، ساقطاً هناك، ولكنه سبحانه، لما خلق الخلق لم يكن للخلق بد من عمل، ولم يكن العمل كله لله رضى، ولا كله سخطاً[2]، «ولما كان»[3] من الأعمال مُرْضٍ لله ومسخط، لم يكن بد من الأمر بالعمل المرضي والنهي عن العمل المسخط، فلما كان ذلك كذلك لم يكن بد من الترغيب على العمل الصالح بالثواب، والترهيب على العمل الطالح بالعقاب، فجعل الجنان ترغيباً، والنيران ترهيباً، وترهيب الشيء من الشيء الذي لا يستطيع أن يرهبه محال، كما أن ترغيب الشيء فيما لا يقدر على أن يرغب فيه فاحش من الفعال، ولا يكون ترغيب إلا لمن يقدر على الرغبة، ولا ترهيب إلا لمن يقدر على الرهبة، ولا أمر ولا نهي إلا لمن يميز بين المأمور به والمنهى عنه، فجعل الله وركب فيهم استطاعة وتمييزاً، ليعرفوا رضاه فيتبعوه، ويفهموا سخطه فيتجنبوه، فيثيبهم أو يعاقبهم على ما يكون من أفعالهم باختيارهم، لأن المثيب على فعله إنما هو مجاز لنفسه، ثم أمرهم عز وجل، ونهاهم، ثم قال: **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[4]، ولو لم يعلم أن له مشيئة وتمييزاً واقتداراً على الفعل والترك لم يقل: **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**. وقال: سبحانه: **﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبياً﴾**[5]، ولو لم يكن فيه استطاعة مركبة قبل الأمر، ولم يكن قادراً على أخذ الكتاب، لم يقل خذ وهو لا يقدر على الأخذ، لأن القائل للحجارة وما كان مثلها، يقال: مخطىء محيل[6] في المقال. فتعالى الله عن ذلك. وقال: **﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ليجزي قوماً بما كانوا**

---

(١) الحشر: ٢٠.
(٢) في ب نجد هنا كلمتي: طرا معاً.
(٣) في أ: وكان.
(٤) الكهف: ٢٩.
(٥) مريم: ١٢.
(٦) في الأصل: محل.

يكسبون﴾[1]، ولو لم يكن المؤمنون يقدرون على الغفران لمن أمروا بالمغفرة له لم يقل: يغفروا، وكان يحدث فيهم الغفران لأولئك، فيغفروا، ولم يكن ليأمرهم من الأمر بما لا يطيقون.

وأعطى إبليس اللعين ما أعطاه من الفهم والتمييز لأن يطيعه ولا يعصيه، وأراد أن يطيعه تخيراً وإيثاراً لطاعته، فكانت هذه إرادة معها تمكين واستطاعة، ولم يرد أن يطيعه قسراً، ولا أن يمنعه من المعصية جبراً، فمكنه وهداه، ثم أمره ونهاه، فرفض، له الويل، تقواه، واتبع هواه، وكفر نعم ربه، وكره تنزيله وحكمه، فكان، كما قال الله، سبحانه: **﴿والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**[2]، فلو كانت الكراهة لما أنزل الله قضاء له فيهم، وفعلاً أدخله، سبحانه، عليهم، لكانت من الله، لا منهم، ولكان الكاره لتنزيله، لا هم، ولكانوا ناجين من العقاب، وكانوا متصرفين في أمره في كل الأسباب، وكذلك المهتدون، لو كان هو الذي فعل هداهم، وزادهم في تقواهم، لم يقل: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى، وآتاهم تقواهم﴾**[3] ولو كان ذلك، كما يقول الجاهلون، وينسب إلى الله، الضالون، لكان من اهتدى ومن كره وأبى في الأمر عند الله، شرعاً، واحداً، إذ كان كلهم في أمره وقضائه له مطيعاً متقلباً متصرفاً في إرادته سريعاً.

وأما قوله من أين علم إبليس أن آدم يكون له ذرية؟، وأن الموت يقضي عليهم؟ فإن جوابنا له في ذلك: أن الله أعلمه ملائكته، فسمعه إبليس من ملائكة الله فيما كان يسترق من السمع كما قالوا وحكى الله عنهم في قوله: **﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾**[4]، فكانوا قبل أن يبعث الله نبيه، صلى الله عليه وآله، ويكرمه بما أكرمه من الوحي إليه يسترقون السمع، فلما أن بعثه الله «حجبهم»[5] عن المقاعد التي كانوا يقعدونها من السماء ويسترقون من الملائكة الأخبار فيها، فيهبطون بها إلى إخوانهم من كهنة الإنس وأوليائهم، كما قال، ذو المن والجلال: **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي**

---

(١) الجاثية: ١٤.
(٢) محمد: ٨.
(٣) محمد: ١٧.
(٤) الجن: ٩.
(٥) في ب: حجبه.

بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾[1]، فلما أرسل الله رسوله بالوحي البالغ والنور الساطع حجبهم عن علم شيء من أخبار السماء، لكيلا يسبقوا به ولا «يلقوه»[2] إلى إخوانهم من كهنة أهل الدنيا، فقذفهم بما جعل لهم من النجوم شهباً رصداً، فرماهم بالنجوم من السماء، ولم يكن قبل ذلك بشيء منها يرمى فَهِيل[3] لذلك أهل الأرض والشياطين في الهواء، فقالوا في ذلك، كما أخبر الله به عنهم وحكى من قولهم: **﴿أنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾**[4]، فمن الملائكة علم إبليس أخبار آدم وذريته، ولو لم يعلم الله الملائكة بذلك لم يعلمه إبليس ولاهم كما لم يعلموا «ما»[5] كتمهم من أسماء الأشياء التي أعلمهم آدم بأسمائها في وقت ما علمه الله أسماءها وكتم الملائكة إياها، كما قال، سبحانه: **﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾**[6]، فأنبأهم حين أمره الله أن ينبئهم بأسمائهم ما كان قد «خفي»[7] عنهم علمه من الأشياء، فعندما رأى إبليس اللعين الرجيم[8] «تعليم»[9] الله لآدم وتعظيمه لقدره وإسجاده الملائكة من أجله، ولما أظهر فيه من عجائب تدبيره وصنعه، حسده على ذلك غاية الحسد حتى أخرجه حسده لأدم إلى الكفر بربه، وخالف فيما ترك من السجود عن أمره، ثم خشي أن يؤاخذه الله معافصة[10] على ذنبه، فطلب الإنظار والتأخير من ربه، فأنظره وأمهله الله إلى يوم حشره.

ولو حجب الله علم آدم وذريته عن الملائكة لم يكن ليعلمه إبليس ولا هم،

---

(١) الانعام: ١١٣.
(٢) رسمها في أ، ب: لعسوه.
(٣) أي رأوا تهاويل مفزعة.
(٤) الجن: ٩.
(٥) في أ، ب: ما.
(٦) البقرة: ٣١ - ٣٣.
(٧) في أ، ب: عني.
(٨) في أ، ب: الرجين.
(٩) مكانها في ب مغطى بالسواد، وعبارة أ: ما رأى إبليس اللعين الرجين من كرامة الله لادم.
(١٠) مصارعة واثخاناً واقتلاعاً.

وليس إعلامه إياهم، سبحانه، أنه سيجعل لآدم ذرية كإعلامه من قبل إيجاده لآدم بآدم حين يقول، عز وجل: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[1]، وكما أعلمنا في كتابه، على لسان نبيه، صلى الله عليه وآله، بما يكون في دار الاخرة من الثواب والعقاب والمجازاة بين العباد، وليس على الله في ذلك من حجة كبيرة ولا صغيرة.

* * *

وأما ما سأل عنه من استكبار إبليس، وقال: ممن هو؟ أمن الله؟ أم منه؟ أم من غيره؟ فسبحان الله! ما أَبْيَنَ جهل من شك في هذا، أيتوهم أو يظن ذو عقل أن الله ألزم إبليس التكبر والاجتراء عليه فأدخله قسراً فيه؟ وهو يسمع أخبار الله في ذلك عنه، وأنه نسب التكبر إليه، فقال سبحانه: ﴿**وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبا واستكبر وكان من الكافرين**﴾[2]، فذكر أن الاستكبار والكفر من فعل إبليس الكافر المستكبر، ولو كان الله أدخله في الإستكبار فاستكبر، وقضى عليه بالكفر فكفر، ، لم يقل فيه: ﴿**وكان من الكافرين**﴾، ولكان أصدق الصادقين يقول فيه: إنه أطوع المطيعين. وما كان من استكبار إبليس فهو كاستكبار غيره من الناس، قال الله، سبحانه: ﴿**ويوم يُعْرَض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون**﴾[3]، ولو كان الكبر والفسق من الله فيهم فعلاً، وله سبحانه عملاً، لم يجزهم عذاب الهون على فعله الذي أدخلهم فيه، بل كان يثيبهم عليه ويكرمهم لديه.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٤.

(٣) الاحقاف: ٢٠.

المسألة الثالثة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد، المسألة عن آدم، عليه السلام، وزوجته، فقال: خبرونا عن آدم وزوجته حين أسكنهما الله الجنة، «ما كانت»[1] محبة الله ومشيئته لهما في دخولهما فيها، أخلودهما فيها وإقامتهما أم في خروجهما منها؟ فإن زعموا أن محبة الله ومشيئته كانت في خلودهما فقد كذبوا، لأن أهل الجنة لا يموتون ولا يتوالدون ولا يمرضون ولا يجوعون ولا يخرجون، وقد قضى الله الموت على خلقه جميعاً، وقضى على آدم أن تكون له ذرية تكون منهم الأنبياء والرسل والصديقون والمؤمنون والشهداء والكافرون، ثم قال: **﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخْرَجون﴾**[2]، ثم قال: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**[3]، وكيف يكون ما قالوا وقد قضى الله القيامة والحساب والموازين والجنة والنار. سبحان الله! ما أعظم هذا من قولهم. وإن قالوا: إن محبة الله ومشيئته كانت في خروج آدم وزوجته من الجنة وهبوطهما إلى الأرض، فقد زعموا أنه لم يكن ليخرجهما من الجنة إلا الخطيئة التي عملاها والأكل من الشجرة التي نُهِيا عنها، فقد أقروا لله بقدرته ونفاذ علمه، وفي ذلك نقض قولهم.

تمت مسألته

جوابها:

وأما ما سأل عنه من إرادة الله في آدم وزوجته حين أسكنهما الجنة، أكانت إرادته خلودهما فيها؟ أم خروجهما عنها؟، وما توهم من هذه الجنة التي كان فيها آدم وزوجته أنها جنة المأوى التي جعلها الله ثواباً للعاملين ومقراً دائماً لعباده المؤمنين، فإنا

---

(١) في ب: أكانت.

(٢) الاعراف: ٢٥.

(٣) طه: ٥٥.

نقول: إن الجنة كان فيها آدم وزوجته هي جنة من جنات الدنيا ذوات الأنهار والغرف والأشجار، فسماها الله جنة، وهذا «موجود»[1] في لغة العرب غير مفقود، تسمى ما كان من الضِّياع والبساتين ذا فواكه وأشجار وعيون جناناً، أما سمعت إلى قول الله سبحانه ما أبين نوره وبرهانه، وكيف حكى عن الأمم الماضين، الفراعنة المتجبرين، حين يقول، سبحانه: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين**﴾[2]، وقال: ﴿**ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله**﴾[3]، فسمى الله ما كان من الأرضين على ذلك من الحالات في قديم الدهر وحديثه جنات، وأن آدم كان في موضع قد برأه الله له «من الأرض»[4]، كريم شريف عظيم، خلقه فيه وأجرى رزقه ومرافقه عليه، وليس كما ظن الحسن بن محمد وتوهم من فاحش الظن والمقال أن أهل الجنة منها خارجون وعنها منتقلون، وأن آدم وحواء كانا فيها ثم أُخْرِجا، وليس كذلك، بل هو كما قال رب العالمين وأصدق الصادقين فيمن صار إلى جنة المأوى من عباده الصالحين: ﴿**خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه**﴾[5]، وكما قال: ﴿**لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين**﴾[6]، وأخبر أن من دخل جنة المأوى غير خارج منها أبداً، وأنه لن يذوق بعد دخوله إياها نصباً ولا شقاء، وقال، عز وجل، إخباراً منه أنه لا يدخل الجنة إلا المطيعون المجازون من العالمين، فقال: ﴿**وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾[7]، فأخبر سبحانه، أن الجنة لا يدخلها إلا من اتقى وتقدم منه العمل بالحسنى، فأولئك الذين تزلف لهم الجنة، قال الله، تعالى: ﴿**وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد**﴾[8].

---

(١) في ب: فموجود، وعبارة ا: فهذا موجود في لسان العرب.

(٢) الدخان: ٢٦.

(٣) الكهف ٣٩، وهي مذكورة في ب خطأ هكذا: (فلولا . . .).

(٤) سقطت من أ: وعبارة ا: براه الله إياه.

(٥) البينة: ٨.

(٦) الحجر: ٤٨.

(٧) النازعات: ٣٧.

(٨) ق: ٣١.

وأما ما سأل عنه من قول الله: ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، ومن قوله: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**، وما توهم من ذلك أن هذه الأرض التي خَلَق منها آدم هي أرض الجنة وعَرْصَتها، وأن كل العباد راجع إليها، فليس ذلك كما توهم ولا كما قال، وإنما عنى الله بكل ما ذكر من هذه الأقوال هذي الأرض التي منها خلقوا وفيها يدفنون ومن أجداثها يبعثون، قال الله تعالى: **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾**(١)، وقال، سبحانه: **﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾**(٢).

وأما ما سأل عنه فقال: ما كانت إرادة الله في آدم وزوجته؟ أيخلدان في الجنة؟ أم أراد أن يخرجا منها ويهبطا عنها؟ فإنا نقول: إن إرادة الله في وقت خلق آدم وزوجته سكناهما في الجنة ومقامهما، وإن إرادته وحكمه عندما كان من غفلتهما واستزلال الشيطان لهما حتى كان منهما ما كان من معصيتهما لسبب الغفلة والنسيان لما عهد إليهما ربهما من اجتناب الشجرة التي عنها نهاهما، فطلبا البقاء والحياة والاستزادة من العمل الصالح ورجوا أن يخلدا ثم يزدادا طاعة لربهما وتكثر عبادتهما لخالقهما، «فغوى»(٣)، صلى الله عليه، في الشجرة ناسياً، ولم يكن ذلك عن مباينة الله بالعصيان، ولا عن قلة معرفة ما يجب للرحمن، قال الله، تبارك وتعالى: **﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾**(٤)، فلما أن كان ذلك منهما أراد الله أن يهبطهما من الجنة التي كان قد كفاهما فيها لباسهما وقُوتَهما، فأخرجهما منها إلى غيرها من الأرض، وبدلهما بالراحة تعباً، وبالكفاية للمؤنة طلباً وحرثاً وزرعاً(٥)، فكانت إرادته في وقت إيجادهما:

---

(١) المرسلات: ٢٥. (٢) ق: ٤٤.

(٣) في أ، ب: فهوى. (٤) طه: ١١٥.

(٥) رأى الامام يحيي في مكان الجنة التي هبط منها آدم، وهل هي جنة الخلد السماوية؟ أم جنة ارضية؟ هو أحد وجهات النظر في قضية خلافية بين المفسرين لايات القرآن التي تناولت قصة آدم هذه، وبالذات آية البقرة: ٢٥ ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً...**﴾ الاية، ويرجع الخلاف حول هذه القصية إلى عهد ابن عباس، ورغم أن النسقي يقول إن المعتزلة قالت إنها «كانت بستاناً باليمن. لان الجنة لا تكليف فيها ولا خروج منها» إلا أننا نجد الزمخشري، وهو معتزلي يرى أنها كانت في السماء، كما يحكي أبو حيان التوحيدي عن الجبائي، وهو معتزلي، انها كانت في السماء. ويحكي أبو حيان عن ابن عباس قوله: «كانوا في جنة عدن لا في جنة الخلد، وخلق آدم من جنة عدن» قال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الاصبهاني: كانت في الارض، قيل بارض عدن.. =

الكفاية لهما ، وفي وقت نسيانهما : ما حكم به من إخـراجهما وإهبـاطهما منهـا إلى غيرها ، فالهبوط هو القدوم من بلد إلى بلد ، كقول العرب : هبطنا من بلد كذا وكذا إلى بلد كذا وكذا ، وهبطنا عليك أرضك ، وقال الله ، المتقدس الأعلى ، فيمن كان مع عبده ونبيه موسى ، ممن كان ينزل عليه المن والسلوى ويظلل بالغمام ويسقي زلال الماء ، فطلبوا وسألوا البدل بذلك مما هو أقل وأدنى ، فقالوا : **﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم﴾**[1]، فقال : اهبطوا مصر ، أي أقدموا وانزلوا مصر تجدوا فيه ما سألتم من هذه الأدنى ، فأراد سبحانه أن يسكنها آدم أولاً ، ويخرجه منها آخراً ، كما شاء أن يسكن ذريته الدنيا ثم يخرجهم منها إذا شاء إلى الاخرة ، وكما شاء وأراد أن يصلي له نبيه ، صلى الله عليه وآله ، إلى بيت المقدس ، ثم شاء أن ينقله عنه إلى ما هو أعظم ، فينقله إلى بيته الحرام المكرم ، كما شاء ، سبحانـه ، أن يفتـرض على أمـة موسى من الفرائض ، المشددة والأمور المؤكدة ، فافترض ذلك عليهم ، ولم يرض منهم بسواه ، من ذلك ما حرم عليهم من المآكل من الشحوم اللذيذة وغيرها ، وما حظر عليهم من صيد البحر في يوم سبتهم ، حتى كانت الحيتان يوم السبت تأتيهم وتظهر لهم وتكثر عندهم وتشرع قريباً منهم إمتحاناً من الله لهم ، فكانوا لله في تركها مطيعين ، وكانوا عنده على ذلك مكرمين ، ثم عتوا من بعد ذلك وفسقوا ، وخالفوا فتصيدوا ، فأخذهم «الله»[2] بذنوبهـم فجعـل منهـم القـردة والخنـازير ، فقـال ، سبحانـــه ، في ذلك : **﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا**

= وقالت الجمهور هي في السماء وهي دار الثواب » . والبيضاوي يذكر رأي الفريقين ، وينحاز لرأي الجمهور ، فيقول : «والجنة دار الثواب ، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها ، ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال : إنه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم ، وحمل الإهباط على الإنتقال منه إلى أرض الهند كما في قوله تعالى : ﴿ اهبطوا مصر﴾ ،(البحر المحيط) لأبي حيان التوحيدي جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ، جـ ١ ص ٢٧٤ ، ٢٨١ طبعة القاهرة الأولى سنة ١٣٢٨هـ . و(الكشاف) للزمخشري . جـ ١ ص ٤٥ ، ٢٥٩ ـ ٢٦٢ . وتفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) جـ ١ ص ٣٤ . طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ . و(تفسير البيضاوي) ص ٢٦ .

(١) البقرة : ٦١ .
(٢) غير موجودة في أ .

يفسقون﴾[1]، ثم أراد الله التخفيف عن عباده فبعث فيهم عيسى، صلى الله عليه، فأحل لهم بعض ما قد حرم عليهم، قال الله، تعالى، يخبرنا عما جاء به عيسى وقاله، مما أمره الله به، جل جلاله، حين يقول: **﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون، فإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾**[2].

ثم أراد التخفيف عنهم، والنقْل لهم إلى أفضل الأديان، إلى دين ابراهيم الأواه الحليم، فبعث محمداً، صلى الله عليه وعلى آله، بذلك، فصدع بأمر ربه وأنفذ ما أُرْسِلَ به، فكان ذلك إرادة من بعد إرادة، ومتعبداً من بعد متعبد، فصرف الله فيه العباد، فتبارك الله ذو العزة والأياد.

وكذلك حكم على من عصاه بالمعصية، فإن تاب حكم له بالطاعة، وإن عاد فعصى حكم عليه بما حكم على أهل الردى، وإن تاب وأناب، إلى الله وأجاب، حكم له بالهدى والثواب.

فهذه أحكام من الله وإرادات، أراد الله، سبحانه، أن يتصرف في المخلوقين على قدر ما يكون منهم من العملين، فقال، جل وعز: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم تُرجَعون﴾**[3].

وأما ما ذكر من العلم، وأن العلم لا يخلو من أن يكون الله العالم[4] بنفسه ويكون العلم من صفاته في ذاته لا صفته لغيره، أو يكون العلم غيره، فمن قال: إن العلم غيره، فقد جعل مع الله سواه، ولو كان مع الله سواه، لكان أحدهما قديماً والآخر مُحْدَثاً، فيجب على من قال بذلك أن يبين أيهما المُحْدِث لصاحبه، فإن قال إن العلم أحدث الخالق كفر، وإن قال إن الله أحدث العلم فقد زعم أن الله كان غير عالم حتى أحدث العلم، ومتى لم يكن العلم فضده لا شك ثابت وهو الجهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإن رجع هذا القائل الضال إلى الحق من المقال فقال في الله بالصدق، تبارك وتعالى ذو الجلال، فقال: إنه العالم بنفسه الذي لم يزل ولا يزول، وأنه الواحد ذو الأفعال، وأنه لا علم ولا عالم سواه، وأنه الله

(١) الاعراف: ١٦٣.
(٢) آل عمران: ٥٠.
(٣) فصلت: ٤٦.
(٤) في ب: عالم.

الواحد العالم، وجب عليه، من بعد ذلك، أن يعلم أن كل ما نسبه إلى العلم فقد نسبه إلى الله، وسواء قال: أدخله العلم في شيء، أو قال أدخله الله فيه وحمله، سبحانه، عليه، فالله، عز وجل، بريء من ظلم العباد متقدس عن أفعالهم، فأفعالهم بائنة من فعله، وأفعاله بائنة من أفعالهم، لم يحل بين أحد وبين طاعته، ولم يدخل أحداً في معصيته، فعلم الله بما يكون من أفعال عباده «عير»[1] أعمالهم، ولم يضطرهم إلى عمل في حال من حالاتهم، فالعلم بهم محيط فهم متصرفون فيه، وينتقلون من معلوم إلى معلوم بما ركب فيهم من الإستطاعة والقدرة، قد علم ممن عصاه أنه سيعصي، وأن من تاب فقد علم أنه سيتوب، وإن عاد فقد علم أنه سيعود، وليس علمه بأنه سيختار المعصية أدخله في العصيان، لأن ضده قد يكون من العبد وهو التوبة والإحسان، فكيف يجوز على الواحد الرحمن أن ينقل من عباده أحداً من رضاه إلى سخطه، إذاً لقد جبره على معصيته، ولو جبره عليها، إذاً لما كان بد للعبد من الدخول فيها، ولو دخل العبد فيما أدخله ربه «فيه»[2] لوجب له الثواب عليه، ولكان لله من المطيعين، إذ هو جارٍ على مشيئة رب العالمين، ولَمَا كان في الخلق عاص، ولكان الله عن كلهم راضياً، ولكان، في القياس، إبليس عند الله مرضياً، إذ هو يجب «أن»[3]، يدعو إلى ما شاء الله لعباده ورضي، ولما ذمه في التكبر والعصيان، إذ الحامل له والمدخل له فيه الرحمن، ولما قال: ﴿**يا إبليس ما منعك أن تسجد إذ أمرتك**﴾ وهو يعلم أنه المانع له من السجود. فتبارك الله عن ذلك، الواحد المعبود.

ألا ترى كيف تبرأ من أفعالهم، ويأمر بالمجاهدة لهم على اليسير من أعمالهم، ولو كان المتولي لذلك فيهم لما عابه، سبحانه، منهم ولما حض عباده على تغيير ما أحدث فيهم، عليهم، ألا تسمع كيف يقول: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل، واقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾[4]، فقال: «اقتتلوا» فألزمهم الفعل، وقال: ﴿**فقاتلوا التي تبغي**

---

(١) أ، ب: فغير.

(٢) عبارة أ: أدخل العبد فيما أدخله فيه ربه.

(٣) في ب: أبداً، وعبارة أ: يحب أبداً ويدعو.

(٤) الحجرات: ٩.

حتى تفيء إلى أمر الله﴾، فأوجب على غيرهم من المؤمنين نصر المظلومين، فلو كان، على قول الجاهلين، لكان قد ألزم المؤمنين قتال من لا يجب قتاله، ومن تجب ولايته، إذ أجاب الله في دعوته وجرى له في طاعته، وبغى على من أمره بالبغي عليه، ولو كان الله المحدث البَغْيَ في الفاعل له، لكان قد أمر عباده بقتاله حَصْراً فيه دون غيره حتى يفيء هو ويرجع عن إرادته ومشيئته، ولكان أيضاً قتال عباده قتاله دونهم، فكان مقاتلاً نفسه على فعله، إذ كان فعل المُقاتَل والمُقاتِل له فعلاً واحداً، فتبارك الله المتقدس عن ظلم العباد، المتعال عن اتخاذ الصواحب والأولاد، كما قال سبحانه: **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**.

والحمد لله «الحميد» على ما خصنا به من التوحيد، ودلنا به من الدلالات فيما أبان من خلق الأرضين والسماوات وغيرهما من الآيات.

تم الجواب

المسألة الرابعة

ثم أتبع ذلك «المسألة»[1] عن أهل النار «وعن النار»[2]، فقال: «خبرونا»[3] «عن أهل النار»[4] أَلِخيرٍ أراد الله بهم فوضعها فيهم؟ «أم»[5] الشر أراد بهم؟ . . فإن قالوا: الخير أراد بهم، فيقال لهم: «وكيف»[6] ذلك، وقد جعلها وقد علم أنهم لا ينتفعون بها، وأنها لا تكون إلا في مضرتهم، وإن زعموا أنه جعلها فيهم ليضرهم انتقض عليهم قولهم. تمت المسألة.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من أمر النار، وقال: «لم»[7] خلقها «الله»[8] الرحمن؟ الشر أراد بخلقه «لها»[9] ؟ أم لإحسان؟ . . فنقول: إن الله، تبارك وتعالى، جعل النار في دار الدنيا مزجرة لمن اهتدى، لما فيها من التذكرة بالنار التي وعدها «الله[10] للكافرين» في دار الآخرة، ولا شيء، «والحمد لله، أبين نوراً ولا أظهر خبراً[11]» من أن يكون خلق خلقاً أراد منهم أمراً وكره منهم ضده، «وأمرهم»[12] بما أراده، ونهاهم عما سخطه، ثم خلق لهم ثواباً وأعد «لهم»[13] عنده عقاباً، ثم استدعاهم إلى الطاعة بالثواب ونهاهم عن المعصية بالعقاب، فعُبِدَ خوفاً من عقابه وأطيع

---

(١) في ب: مسألته.
(٢) سقطت من ب.
(٣) في ب: أخبرونا.
(٤) سقطت من ب.
(٥) في أ: أو.
(٦) في ب: كيف، بدون واو.
(٧) في أ، ب: لمن.
(٨) غير موجودة في ب.
(٩) سقطت من أ.
(١٠) في أ: الكافرين: بدون لفظ الجلالة.
(١١) عبارة أ: ولله الحمد وأظهر نوراً ولا أبين خبراً.
(١٢) في أ: فأمرهم.
(١٣) سقطت من أ.

«طمعاً»[1] فيما جعل من ثوابه كما قال: «تعالى»[2] ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**﴾[3]، فجافوا، لمخافته وطلب مرضاته، منهم الجنوب، وطهروا أنفسهم من الذنوب، وطيبوا منهم السرائر والقلوب، فأَمَّنوا بالطاعة أنفسهم من نِحَل العاصين، واستوجبوا بذلك اسم المؤمنين، فكانوا كما قال فيهم ووصفهم رب العالمين حين يقول: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾[4]، فخافوا ربهم «واهتدوا»[5]، ومن عذابه نجوا، فلما أعلم الله العباد أجمعين أن الجنة مصير المؤمنين وأن النار مقر الفاسقين، «ليحذر أولوا الألباب النيران»[6]، فأعملوا أنفسهم في الفرار إلى الرحمن، راغبين فيما رغبهم فيه من الجنان، فسبحان من لطف بعباده بما جعل لهم من النار في بلاده، تخويفاً وترهيباً ومنافع وتقوية وترغيباً، ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم**﴾[7]، ثم قال: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**﴾[8] وقال: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[9]، فجعلها لهم في الدنيا مزجرة وتخويفاً وتحذيراً من «نار»[10] الاخرة، مع مالهم فيها في دار الدنيا من المنافع التي لا تحصى والمرافق الجمة التي لا تستقصى، بها يطبخون ويخبزون، وبها من القر يحترسون، وبها في ظلمات الليل يبصرون، وبها ينالون من الحديد ما ينالون من تصريفه في أسبابهم وتقويمه «لمعاشهم»[11]، من أدوات حرثهم وحفرهم وغير ذلك من منافعهم، «وبها ما

---

(١) سقطت من ب.
(٢) سقطت من ب.
(٣) السجدة: ١٦.
(٤) الأنفال: ٢.
(٥) في أ: فاهتدوا.
(٦) في أ: حذر أهل الألباب النيران.
(٧) الأنفال: ٤٢.
(٨) الأنعام: ١٦٠.
(٩) الزلزلة: ٧.
(١٠) سقطت من ب.
(١١) في أ: في معاشهم.

يعدون»[1] لأعداء الله من السلاح، من السيوف والدروع التي تقيهم بأسهم، كما قال، سبحانه: ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم** ﴾[2].

ألا ترى وتسمع كيف قال رب العالمين، حين «يذكر»[3] ويُذَكِّر بالآية عباده «المتقين»[4]، فقال: ﴿ **أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين** ﴾[5]. فجعلها الله الواحد الأعلى منفعة في الدنيا للخلق طراً، ونكالاً في الاخرة لمن استأهلها لا تفتأ[6].

ففي هذا، والحمد لله من الجواب «ما أزاح من قَلْبٍ التحير والشك والارتياب»[7]، وثبت، في إيجاد النار، الحكمة لرب الأرباب.

تم جواب مسألته

(١) في النسخة ب: وما بها يعدون، وفي النسخة أ: وبها يعدون لاعداء الله ما يعدون من السيوف والدروع وغير ذلك من السلاح التي تقيهم من باسهم.

(٢) الانبياء: ٨٠.

(٣) سقطت في ب.

(٤) في أ: المؤمنين.

(٥) الواقعة: ٧١ ـ ٧٣.

(٦) أي لا تنطفىء، وفي النسخة أ: لا يفنى.

(٧) عبارة أ: ما أراح من قلب ذي الشك والتحير والإرتياب.

المسألة الخامسة

ثم أتبع المسألة «عن»[1] المعرفة، فقال: هل يستطيعون أن يجهلوا ما جعلهم الله به عارفين؟ أم لا يستطيعون؟ . . فإن قالوا: لا، فقد انتقض قولهم عليهم، وإن قالوا: نعم، فقل: هل يستطيعون أن يجهلوا معرفة الله، فلا يعرفون أنه خالق كل شيء ومصور كل شيء؟ فإن قالوا: هذه الفطرة، وليس يثاب أحد عليها، فالخلق كلهم يعرفون أنه الله، فقل: هل يستطيعون أن يجهلوا الليل والنهار والسماء والأرض والدنيا والآخرة والناس والخلق كلهم أن الله خلقهم كما شاء وكيف شاء؟ فإن قالوا: نعم؛ فقد كذبوا، والناس كلهم شهود على كذبهم، وإن قالوا: لا، فقد تابعوك. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه، فقال: هل يستطيعون أن يجهلوا ما يعرفون؟ أو يعرفوا ما يجهلون؟ . . فإن مسألته تخرج على ثلاثة معان، ونحن لها مفسرون، ولكلها، إن شاء الله، مميزون:

أولها[2]: معرفة الخالق، وهي «لا»[3] تدرك إلا بالعقل الصحيح والقلب النضيج[4]. قال «الله»[5] سبحانه: **﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾**[6]، وقال «سبحانه»[7]: **﴿وليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾**[8]، وقال: **﴿إن في ذلك**

---

(١) في أ: في.
(٢) في أ: فأولهن.
(٣) في أ، ب: فلن.
(٤) المحكم.
(٥) سقطت من أ.
(٦) الحشر: ٢.
(٧) سقطت في ب.
(٨) ص: ٢٩.

لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[1]، فإذا صح مَرْكَب اللب وثبت فهم القلب، ثم تدبر أمره جميع الخلق وقصدوا في ذلك قصد الحق «تفرع»[2] لهم من الألباب وَجَوْدَة فكرهم وإنصافهم لعقولهم ما يدلهم على معرفة خالقهم وقدرة سيدهم ومالكهم «ودلهم»[3] ذلك على أن لِمَا يرون من خلق أنفسهم واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح وغير ذلك من الأشياء خالقاً، ليس كمثله شيء، ولا يشبهه «في ذلك كله شيء»[4]، ألا تسمع كيف يدل على نفسه بما أبان من قدرته في خلق سماواته وأرضه «وما بث فيهما»[5] كل أوان من صنعه، وينزل من السماء «بقدر»[6] من رزقه، فقال، سبحانه: **﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقهم وما بث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح آيات لقوم يعلقون﴾**[7] فإذا صح للمخلوق لبه وطاب «له بالطاعة»[8] قلبه، ثم فكر «وفي»[9] أمره كله تدبر، بأن له أمر خالقه، وثبت في صدره اقتدار مصوره.

وأما المعنى الثاني: فما أمر الله العباد بعلمه، وحرم عليهم ما هم فيه من جهله، من الحلال والحرام، «والصلاة والزكاة»[10] والصيام والحج إلى بيته والوقوف بمشاعره العظام، وكل ما جاء به محمد، عليه السلام، مما تعبد الله به العباد، وألزمهم فيه الإجتهاد، وهذا «لا»[11] يعلم ولا يسمع إلا بمُخْبِر عن الله مستمع متكلم «بالحق»[12] مناد، ولمن خالفه في ذلك معاد، وكذلك وبذلك بعث الله الأنبياء إلى عباده ليؤدوا «إليهم»[13] فرائضه وأمره، وينادوهم بذلك فيسمعوا، ويعلموهم إياه فينتصحوا «فينجوا»[14] «ولو لم»[15]، يكلموهم به ويسمعوهم إياه

---

(1) ق: ٣٧.
(2) أقرب ما تقرأ عليه.
(3) في أ: فدلهم.
(4) عبارة أ: شيء في ذلك كله.
(5) في أ: وما يليهما فمن.
(6) في أ: ما يقدر.
(7) الجاثية: ٣، وفي أ: «وما أنزل من السماء من ماء» وهو خطأ.
(8) في أ: لله بطاعته.
(9) في ب: في.
(10) في أ: الصلوات والزكوات.
(11) في أ، ب: فلا.
(12) سقطت من أ.
(13) سقطت من أ.
(14) سقطت من أ.
(15) في أ: فلولم.

لم يقفوا على علم ذلك أبداً، ولم يعرفوا حدوده أصلاً، فلم يكن في الفرائض لهم بُدٌّ من مبلغين، ومرسلين مبشرين ومنذرين، ففعل الله بهم كذلك، وبعث إليهم الرسل بذلك، رحمة منه، سبحانه، لهم، وعائدة منه بفضله عليهم.

والمعنى الثالث: فهو ما أُدْرِكَ وعلم بالتجربة مما لم يكن ليدرك أبداً إلا بها، ولا يصح لطالب إلا منها، من ذلك ما أدركه المطبون من علم ما يضر وما ينفع، وما يهيج وما «يقمع»[1] وما يقتل من السموم وما يردع السم عن السَّموم، وما يفسد العصب وما يُجْتَلَب بأكله العطب، وغير ذلك مما يطول ذكره ويعظم لو شرحناه، أمره، مما لا يدرك أبداً إلا بالتجربة أولاً.

فمن هذه الثلاثة المعاني تصح المعارف كلها للعارفين، ويثبت الفهم للمتفهمين، وقد يجهل ذلك كله من شاء أن يجهله، كما يعرفه من شاء أن يعرفه بأهون الأمر وألطف الخبر. فأما التجربة فيجهلها من لم يجرب الأشياء. وأما الفهم والتمييز بالعقل فقد يبطله شارب الخمر بشربه الخمرة فيزيل بذلك ما ركب فيه من لبه، ومن ذلك رقاد الراقد، إذا رقد لم يعلم ممن يدخل إليه أو يخرج عنه «بأحد»[2]، والتبس عليه الليل والنهار، وعميت عنه، بكليتها، الأخبار، حتى ربما استرقد ليلاً فلا يعلم حتى يهجم عليه النهار، وربما رقد نهاراً فلا يعلم حتى يهجم عليه الظلام ويزول الإبصار. فكيف يقول أن أحداً لا يقدر على جهل ما علم ولا علم ما جهل لسبب يعلم ولا بحيلة تفهم؟، ألا ترى أن السكران يعلم في حال سلامة عقله بما يشينه وينقصه ويفضحه، من عمله، حتى لو أعطى من يدعي المروءة منهم ورشى جزاء من «الرشاء»[3] عظيماً، حين سلامة لبه، على أن يكشف له ثوباً أو يبدي من نفسه عيوباً لم يكن ليفعل، وإذا شرب وسكر لم يعلم له «لشرابه، وجاءت وظهرت منه في نفسه، ولها الفضيحة والنكاية»[4]، فهل ذلك إلا

---

(١) في أ: يقع.

(٢) هكذا في النسختين: أ، ب.

(٣) في أ: الدنيا، وهي كما أثبتناها هنا في ب بين السطرين بغير خط الناسخ بدلاً من: المال، المشطوبة، وكذلك في أ: جزءاً، بدلاً من جزاء.

(٤) هكذا في النسختين: أ، ب، وفي النسخة ب لا توجد: «وظهرت منه»، والعبارة مضطربة، ولكن إذا قرأنا الكلمة الأولى: لشرابه، استقام المعنى.

من جهله بما كان يعلم، وقلة معرفته في تلك الحال بما كان يعمل، أَوَمَا رأى من علم علماء وروى رواية وحكاء، من علماء وحكماء، بل مَنْ أَحْكَمَ القرآن، وتلا عن ظهر[1] قلبه الفرقان، ثم ترك قراءته دهراً فجهل ونسي ما علم منه طراً، أو ما رأى من كان دهره جاهلاً وعن كل خير وعلم غافلاً ثم انتبه لنفسه وأنف من جهله فتعلم فعلم ونظر ففهم؟!

وكل ما ذكرنا، والحمد لله، مُنْقِض لكل ما عنه سأل وظن بذلك أنه قد أحال في الكلام كل محال، ولم يعلم أنه في قوله قد أحال وأخطأ في كل ما عنه سأل وتعسف في مدلهمات ظُلَم المقال، وكشفنا عنه وعن غيره من الخلق ممن يريد ويقصد الحق «طمياء»[2] دَيْجور جهله وبينا له ما التبس عليه من أمره حين أقدم بالقول فقال: هل يقدر انسان أو قدر قطذو بيان على أن يجهل ما علم أو يعلم ما جهل، في حالة من الحالات أو وقت من الأوقات، وزعم أن أحداً لا يَدْخُله في ذلك أبداً إرتياب ولا يجهله بسبب من الأسباب، وقد وجدنا ذلك بخلاف قوله وعلمنا أن فعل ربه بخلاف فعله، لا ما نسب هو إلى ربه وقلده، سبحانه، ما ليس من صنعة فعلها، فعلمنا أن الإبصار إلى ظلام الليل وإشراق النهار من فعل الإنسان لا من فعل الرحمن.

ثم إن المعرفة من العارف، تفرعت من لبه عند استعماله لفكره واستخراجه ما أمر باستخراجه من التمييز بعقله، وقد نجد المبصر بعينه يبصر إلى ما يحل له ويحرم عليه، ولو كان البصر من الله لكان الله المدخل له فيه، الناظر الباصر دون الإنسان إليه، تعالى عن ذلك رب العالمين، وتقدس عن مقال الجاهلين. تم جواب مسألته.

---

(١) في النسخة ب لا نجد اللوحة ١٨٢ حيث أنها طمست أثناء «وصل» أجزاء الفيلم رقم ٣٣٦ التي كبرت على أساسه المصورة «٢٩٠٩٥ ب» بدار الكتب المصرية، ولقد اعتمدنا فيها على النسخة «أ» فقط.

(٢) هذا أقرب ما تقرأ عليه، ومعناها الشدة الشديدة.

المسألة السادسة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، فقال: أخبرونا عن الناس، من أنطقهم؟ والكلام من خلقه؟ فإن قالوا: الله، فقد انتقض قولهم، وذلك لأن الكلام يكون فيه الصدق والكذب والتوحيد والإشراك، وأعظم الكذب الشرك بالله والتكذيب والإفتراء عليه، وإن أنكروا أن يكون الله خلق المنطق والكلام فذلك الكفر والشرك بالله والتكذيب بما جاء به من عنده، فقل: خبرونا عن قول الله إذ قال في كتابه ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون**﴾[1]. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه مما ضل فيه ونسبه إلى الله وقال به من المنكر عليه، فقال: خبرونا عن الناس من أنطقهم؟ وعن الكلام من خلقه؟ فنقول: إن الله أنطقهم كما هداهم، وهداهم كما بصرهم، وبصرهم كما أسمعهم، وأسمعهم كما مشاهم، وأمشاهم كما أبطشهم، وأبطشهم كما أقامهم، وأقامهم كما أقعدهم، وأقعدهم كما أشمهم، وأشمهم كما أنكحهم، فلم يكن منه في ذلك كله فعل غير خلق الأداة، خلق الرِّجل للمشي فمشى، وخلق الأذن للسمع فسمع، وخلق الأنف للشم فشم، وخلق العين للنظر فنظر، وخلق الفرج للنكاح فنكح، فما ناله الإنسان من تلك الأداة فهو من فعله، وليس من فعل الله فعل عبده، الله خلق الفرج امتناناً عليه به لينال به من الشهوة ما نال، وفعل العبد «هو»[2] النكاح، فهل يرى الحسن بن محمد «الوسن»[3] الجاهل بقول غير ذلك، أو يقدر على نقض حرف

(١) فصلت: ٢١.
(٢) في الأصل: فهو.
(٣) في النسخة أ رسم الكلمة هكذا: الوسر، والوش، من معانيها: الغافل.

مما شرحنا أو به قلنا أوحججنا؟ ،والحمد لله الواحد الأعلى.

وكذلك كان فعله سبحانه في إنطاقهم، خلق لهم الألسنة واللهوات وما يكون به الكلام من الآلات، ثم أمرهم أن يذكروه ويسبحوه، فقال، سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه: **﴿فاذكروا الله عند المشعر الحرام وأذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾**[1]، وقال: **﴿فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون﴾**[2]، ونهاهم أن يقولوا عليه غير الحق فقال: **﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾**[3]، فجعل لهم سبب القول فيه، ونسبه إليهم، ولم ينسبه إليه، وجعله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله، عن افترائهم عليه، ولو كان الكلام من فعله، وكان الناطق به على ألسنتهم، لكان هو القائل في نفسه ما أنكره عليهم، من ذلك قول فرعون: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[4]، وقول الكافرين لكتاب رب العالمين: **﴿أساطير الأولين﴾**[5]، و**﴿هذا إفك قديم﴾**[6]، ومن ذلك ما قالوا للأنبياء المطهرين، صلوات الله وبركاته عليهم أجمعين، وما رموهم به من السحر والجنون، قال الله، تعالى: **﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به، بل هم قوم طاغون﴾**[7]، أَفَيَرى الجاهل المفتري، الظالم لنفسه، الغوي، يقول: إن الله، سبحانه، كذب أنبياءه ورماهم بما قال الكافرون من السحر والجنون فيهم، وحمل الكافرين على أن يسيئوا بهم الظنون، وينسبوا إليهم الكذب والسحر والجنون، بل كيف ينطقهم بالتكذيب لهم والافتراء عليهم، وهو يأمرهم بالطاعة لهم، ويعطيهم الجنان على الإيمان بهم، فقال، سبحانه: **﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[8]، وقال: **﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم، لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب**

---

(١) البقرة: ١٩٨.
(٢) البقرة: ١٥٢.
(٣) النساء: ١٧١.
(٤) النازعات: ٢٤.
(٥) المؤمنون: ٨٣.
(٦) الاحقاف: ١١.
(٧) الذاريات: ٥٢.
(٨) الحديد: ٢١.

الجحيم﴾[1]، كذب القائلون على الله بذلك، ووقعوا عنده في المهالك، فسبحان الرؤوف الرحيم، العدل الجواد الكريم.

***

وأما ما سأل عنه مما التبس عليه، وتحير فيه لقلة العلم بالله فيه، من «قوله»[2]، سبحانه **﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾**[3]، «هو جعل فينا»[4]، فتوهم أن معنى **﴿أنطقنا الله﴾**[5] هو: تكلم علينا وقال ما قلنا، وليس في ذلك كذلك، بل هو على ما شرحناه أولاً، ومعنى **﴿أنطقنا الله﴾** أي جعل فينا استطاعة ننطق بها، وأذن لنا بالنطق فنطقنا، وشهدنا حينئذ بما علمنا، ولو كان الله الذي فعل الكلام بعينه، وولي قوله بنفسه دون غيره، لقالت جلودهم: نطق الله علينا فيكم، وشهد «هو»[6] لا نحن عليكم وتكلم علينا بما علم منكم، تعالى الله عما يقول المبطلون ويضيف إليه الملحدون، وليس إنطاقه إياها في الآخرة إلا كإنطاقه للألسنة في الدنيا والآخرة، وليس إنطاقه للألسنة إلا كإسماعه السمع، فلما جعل في السمع استطاعة على أن يسمع سمع، وكذلك «العين واليد»[7] والرِّجل، فالعين الله خلقها، والنظر إلى الأشياء فعل العبد، واليد الله خلقها، والإنسان يبطش بها، والرجل «الله»[8] خلقها، والإنسان «بها مشى»[9]، فمن الله، سبحانه، خلق الأدوات، وإيجاد الآلات في الأبدان، وما تفرع منها فمن «أفعال»[10] الإنسان، وذلك، «ولله الحمد»[11] ذو المن، «بيِّن»[12] «الشأن»[13] لمن عرف الله على حقيقة العرفان. تم جواب مسألته.

---

(١) الحديد: ١٩.
(٢) في أ: قول الله.
(٣) فصلت: ٢١.
(٤) سقطت من ب.
(٥) غير موجودة في أ.
(٦) في أ: هاو.
(٧) في أ: اليد والعين.
(٨) في ب: فالله.
(٩) في أ: شي بها.
(١٠) في أ: فعل.
(١١) في أ: والحمد لله.
(١٢) في ب: تبين.
(١٣) في أ: البيان.

المسألة السابعة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الحركات، فقال: من خلقها؟

فإن «قالوا»[١]: الله خلقها، كان ذلك نقضاً لقولهم، وذلك أن كل عمل، من خير أو شر، طاعة أو معصية، إنما يكون بالحركات. فإن قالوا: إن الله لم يخلقها، فقد أشركوا بالله، وذلك ابتلاء عمل، لأنه لا يتم خلق الإنسان إلا بالحركة. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه[٢] فقال: من خلق الحركات اللواتي تكون من الخلق في الحالات؟ فنقول: سبحان الله الرحيم، العدل، الجواد، البريء من أفعال العباد، المقدس عن القضاء بالفساد، كما قال في نفسه ذو الأياد: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾[٣]، ثم نقول: إن بين أفعال الله وأفعال خلقه «فرقا بيِّناً»[٤]، وأنه واضح في الخلق عند من أراد معاني الحق، فأفعال الله متتابعات متلاحقات في كل شأن، وأفعال المخلوقين، ذوي العجز المربوبين، «غير»[٥] متلاحقات، بل هن عن التلاحق عاجزات، وآخر أفعال الله بأولهن لاحق، وأولهن لآخرهن غير سابق، فأفعال الخالق موجودات، معلومات، ثابتات متجسمات، وأفعال الخلق «زائلات»[٦] غير موجودات، بل هن في كل الحالات معدومات، وفي ذلك، والحمد لله من البيان، ما فَرَّق عند ذوي العلم والإتقان،

---

(١) في أ: قال.

(٢) عبارة ب: وهو أن سأل فقال.

(٣) الاعراف: ٢٨.

(٤) في أ: فرق بين.

(٥) في أ، ب: فغير.

(٦) في أ، ب فزائلات.

بين أفعال الخالق، ذي البقاء والجلال، وبين أفعال الخلق «ذوي»[1] الفناء والزوال.

ألا ترى وتسمع كيف أكذب الله من نسب أفعال العباد إلى ربه؟ فأكذبه سبحانه، ونفاها عن نفسه، حين يقول: **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء، أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾**، وقال: **﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾**[2]، أفظن من جهل و«عمى»[3] أن الله فعل كذبهم عليه ثم رماهم به وقال إنهم قالوه فيه؟ فمن يا ويحه إذاً الكذوب المبطل، الظالم المتعدي، الغشوم المدغل[4]؟ من قال وفعل؟ أم من لم يقل ولم يفعل؟ أما سمع الحسن بن محمد قول الجليل، وما حكى «أوضح»[5] التنزيل عمن ظلم وجار و«أساء»[6] وفعل فعلاً ثم رمى به إلهه واعتدى، من قصي بن كلاب[7] ومن به اقتدى، ممن سلك مسلكه وتبعه، وشرع في ذلك مشرعه، فسن لقريش سنة اتبعتها، واقتدى جميع العرب بها، فبحر لهم البحائر[8] وسيب لهم السوائب[9]، ووصل لهم الوصائل[10]، وحمى لهم الحام[11]، فكانوا على ذلك حتى ظهر الإسلام، وأكرمهم الله بمحمد، عليه السلام، فقال الله سبحانه، في ذلك، ونفى

---

(١) في ب: ذي.

(٢) الزمر: ٦٠.

(٣) في ب: غبي.

(٤) من معانيها: المريب، والخائن، والواشي، والمغتال.

(٥) في أ: واضح.

(٦) في النسخة ب: أسى.

(٧) سيد مكة في الجاهلية.

(٨) جمع بحيرة، التي بحرت أذنها، أي شقت، وهي الناقة كانت تترك في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر، فلا تركب، ولا تمنع عن ماء أو مرعى، ويحرم لبنها إلا على ولدها أو لضيف.

(٩) جمع سائبة، وتجمع على سيب كذلك، وهي التي تعامل كما تعامل البحيرة بسبب النذر.

(١٠) جمع وصيلة وهي التي وصلت أخاها من أولاد الغنم إذا ولدت أنثى وذكر، فلم تذبح، لأنهم كانوا يجعلون الأنثى لهم والذكر لآلهتهم، فإذا اجتمعا كانت الأم وصيلة.

(١١) وهو فحل الإبل إذا انتجت أنثاه من صلبه عشرة أبطن، وكانوا يحرمون في الجاهلية ظهره، ويقولون: قد حمى ظهره. راجع «تفسير البيضاوي» لآية: **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾** «المائدة: ١٠٣» ص ١٩١ ط ـ القاهرة سنة ١٩٢٦ م.

عن نفسه ما رموه به من ذلك، وألزمهم فعله، وبرّأ منه، تبارك وتعالى، نفسه، فقال: ﴿**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، وأكثرهم لا يعقلون**﴾[1].

أفترى الحسن بن محمد ومن استجهله فقال بقوله وذهب مذهبه، يقولون لله، إذ نفى ذلك من فعلهم عن نفسه، بل أنت فعلته فيهم وخلقته «وركبته»[2] لديهم، وأدخلتهم فيه، وقضيته عليهم؟ لقد كذّبوا إذاً الرحمن العلي الأعلى، وصدقوا قريشاً الجاهلية الجهلاء، وكفروا بالله كفراً يقيناً، واحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً.

ففي هذا والحمد لله من الحجة كفاية لمن كانت له بالحق من الخلق عناية.

***

ومما نحتج به على الحسن بن محمد من المقال، وندحض به قوله المحال، أن يقال له: إذا كنت تزعم أن الله خلق هذه الحركات التي هي «من»[3] أفعال العباد، من أخذ وإعطاء، وحذو واحتذاء، ولبس وارتداء، وقول ومقال، وزور ومحال، فلا نشك نحن ولا أنت ولا أحد علم شيئاً أو فهم، أن قريشاً بَنَتْ بنخلة العُزَّى، وثقيفاً بالطائف اللات، فزينوهما بالجواهر والعقيان ثم عبدوهما وجعلوهما قسماً من دون الله «الرحمن»[4]، ومن ذلك ما جعلت ونحتت وأقامت ونصبت، على الكعبة وفيها، قريش من الأصنام، وما كانوا يجلون ويعظمون ويذبحون لهبل[5] وأشباهه عند بيت الله الحرام، فيقول الحسن بن محمد: إن الله تعالى، بنى لهم اللات[6] والعزى[7]، وأمرهم بعبادتهما والقسم دونه بهما، وأنه أقام لهم تلك الأصنام، وأضل بها كل من ضل بها من الأنام، وعظمهن، وذبح، جل عن ذلك، لهن، وقرب تلك القرابين إليهن. لعمر الحسن بن محمد وأتباعه

---

(١) المائدة: ١٠٣.
(٢) في ب: تركته.
(٣) سقطت من ب.
(٤) سقطت في النسخة أ.
(٥) صنم كان بالكعبة قبل انتصار الاسلام.
(٦) صنم كانت لقريش، أو لثقيف بالطائف.
(٧) صنم كانت لغطفان، قطعها خالد بن الوليد عندما بعثه إليها الرسول عليه السلام. راجع «تفسير البيضاوي» لاية: «أفرأيتم اللات والعزى» «النجم: ١٩» ص ٧٢٧.

وأهل «البدعة»[1] من أشياعه، لو كان الله خلق وفعل أفعال الفاعلين، لكان العابد، دون من عبدهن، لهن، فلذلك يلزم من قال ذلك، بلا شك، بهذا القول الكفر، إذ يقولون: إن الله فاعل أفعال قريش دونها، وفاعل كل ما فعله من الفواحش غيرها، فَلِمَ، يا ويحه! إذاً بعث محمداً إليهم يعيب ذلك عليهم؟! لقد بعثه إذاً يعيب عليه «فعله دونهم»[2] ويبطل ما صنع، ويخفض ما رفع، «وقريش»[3] إذاً كانت لله مطيعة، وفي مرضاة خالقها ماضية سريعة فيما فعل، معظمة مُحِلَّة لما أحل، ومحمد لله[4] في فعله مضاد، وفي كل قضائه محاد، فلقد، إذاً، هدم محمد، صلى الله عليه وآله»[5]، ما بنى الرحمن، وعانده وخالف عليه في كل ما شاد، فهذا أكفر الكفر وأعظم الفرية «على الله»[6] والأمر، فسبحان من هو بريء من عصيان كل عاص، وطغيان كل مفتر طاغ. تم جواب مسألته.

(١) في النسخة أ: البلاغة.
(٢) في أ: فعلهم دونهم.
(٣) سقطت من ب.
(٤) في ب عبارة: «ولم يكن محمد الله لله» بين السطرين بغير خط الناسخ.
(٥) سقطت من أ.
(٦) سقطت من ب.

المسألة الثامنة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن الأعمال، فقال: خبرونا عن الأعمال التي عمل بها بنو آدم، أشيء هي؟ أم ليست شيئاً؟.. فإن قالوا: بل هي شيء، فقل: من خلق ذلك الشيء؟ فإن قالوا: الله خلقه، انتقض «عليهم قولهم»[1]، وإن قالوا: ليس «ذلك»[2] مخلوقاً، كان ذلك شركاً بالله وتكذيباً لكتابه، لأن الله، سبحانه، خالق كل شيء، «فقل لهم»[3]: ألم تعلموا أن أفعال بني آدم شيء، فإن قالوا: نعم، فقل: والله خلقها، فإن قالوا: ليست بشيء، فقل لهم: فقد زعمتم أن الله يثيب على غير شيء، ويعذب على غير شيء، ويغضب من غير شيء «ويرضى من غير شيء»[4]، ويدخل الجنة بغير شيء، ويدخل النار بغير شيء. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من أفعال العباد، فقال: أشيء هي أم غير شيء؟ وقال: إن كانت شيئاً فمن خلقها؟ وإن لم تكن شيئاً فهل يعذب أو يثيب الله على غير شيء؟.. فإنا نقول، وإلى الله، سبحانه، نؤول: إنها شيء وأشياء، وطاعة وعصيان، وإساءة وإحسان، ألم تسمع الله، سبحانه، يقول: ﴿**لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً، «وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً»[5]**﴾[6]، فسمى تحرك ألسنتهم بما قالوا من الكذب والافتراء شيئاً، ثم أخبر بأن السماوات لو كان فيهن من العقول والتمييز

(١) في أ: قولهم عليهم.
(٢) سقطت من ب.
(٣) في أ: وقل لهم.
(٤) سقطت من أ.
(٥) غير موجودة في أ.
(٦) مريم: ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢.

ما فيكم لانفطرن لإعظام ما جاء من قولكم، وكذلك لو «أن الجبال»[1] كان فيها بعض ما ركب «فيكم من الفهم»[2] لخرت لإعظام اجترائكم على الخالق بما به اجترأتم. وقال، سبحانه: ﴿**وكل شيء فعلوه في الزبر**﴾[3]، فسمى أفعالهم شيئاً، فقد أوقع في الزبر، والزبر «هي»[4] الكتب.

وقال ابن عباس: إن الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها هي هذه «الكتب»[5] التي أنزلها الله على أنبيائه من التوراة والإنجيل والفرقان، الكريم الجليل[6] ونحن «نقول»[7]: إن الزبر هي الكتب التي ذكر الله في قوله: ﴿**ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾[8]، وفي قوله: ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون**﴾[9]، فهذه التي ذكر الله من الكتب عنده، وأنه يظهرها يوم دينه وحشره هي الزبر «التي»[10] ذكر الله أن أفعالهم فيها، لا ما قال ابن عباس من أنها «هي»[11] المنزلة على أنبيائه، من توراته وإنجيله وما نزل على محمد من فرقانه، ألا تسمع كيف يقول: ﴿**وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير وكبير مستطر**﴾[12] وهذه الكتب المطهرة، من التوراة والإنجيل والفرقان، المكرمة، ففيها بعض ما فعل العباد وكثير منها لم يقص خبره ولم يذكر، جل جلاله، أمره، كما قال ذو العزة والأياد، ورافع السماء وداحي الأرض ذات المهاد، ﴿**منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**﴾[13] وقال: ﴿«**نحن**»[14] **نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون**﴾[15]، يريد نقص عليك بعض خبرهما وما كان من محاورتهما وأمرهما، وقال، سبحانه، في أهل الكهف، وما كان من سؤال قريش «للنبي»[16] عنهم، فقال الله، في ذلك: ﴿**إذ يتنازعون**

---

(١) سقطت من أ.
(٢) في أ: من الفهم بكم.
(٣) القمر: ٥٢.
(٤) في أ، ب: فهي.
(٥) سقطت من ب.
(٦) في أ، ب عبارة مكررة هي: «فقال هي الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها».
(٧) في أ، ب: فنقول.
(٨) الاسراء: ١٣.
(٩) الجاثية: ٢٩.
(١٠) في ب: الذي.
(١١) في أ: هذه.
(١٢) القمر: ٥٢، ٥٣.
(١٣) غافر: ٧٨.
(١٤) غير موجودة في ب.
(١٥) القصص: ٣.
(١٦) في أ: النبي صلى الله عليه.

«بينهم»[1] أمرهم، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾[2]، وقال، سبحانه: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾، وقال: ﴿من نبأ موسى وفرعون﴾، فأخبر نبيه، صلى الله عليه وآله بما مان من قول أهل بلدهم فيهم، وقص عليه قبل ذلك ما كان من فعلهم في أنفسهم، رحمة الله عليهم، واعتزالهم إلى الكهف، وإخلاصهم لله دينهم، ثم أمره بأن لا يماري فيهم إلا مراء ظاهراً، وكتمه عدتهم، ثم قال ﴿قل ربي[3] أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾ففي كل ذلك يخبر أنه لم يعلمه، صلى الله عليه وآله، ولم يخبره في كتابه من أخبار من مضى وفات في قديم الدهر «وانقضى»[4] إلا باليسير من القصص دون الكثير، ويدل على أن ما لم يقص عليه من أخبار الأمم الماضية والحقب الخالية أكثر مما قص وأعظم وأطول وأطم، وكل ذلك «دليل»[5] من الله، في واضح التنزيل، على أن ما ذكر الله من الزبر التي فيها كل ما فعله العباد مستطر غير هذه الكتب التي ذكر فيها جزءاً وترك ولم يذكر بعضاً، لأن ما جمع فيه كل شيء بخلاف ما جمع فيه بعض شيء، إذ نصف الشيء وبعضه خلاف الشيء كله.

فأما الكتب التي ذكرها الله في كتابه ونزل فيها ما نزل من وحيه وقرآنه فهي ما أقسم به، سبحانه، حين يقسم فيقول: ﴿والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور﴾[6]، وقوله: ﴿وأنزلنا عليك الكتاب تِبْياناً لكل شيء﴾[7]، وقوله: ﴿إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾[8] وقال: سبحانه، فيما حكى عن مؤمني الجن إذ صرفهم إلى نبيه يستمعون منه القرآن، فقال: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضى وَلَّوْا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً

(١) في أ: أمرهم: بينهم.
(٢) الكهف: ٢١، ٢٢.
(٣) في ب: قال: له لا أعلم، والاية في أ نقف عند: بعدتهم.
(٤) سقطت من ب.
(٥) في أ، ب: فدليل.
(٦) الطور: أ.
(٧) النحل: ٨٩.
(٨) الواقعة: ٧٨.

لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[1]، فهذا، وما كان مثله في القرآن من ذكر الكتاب والكتب «هو»[2] ما أوحى الله ونزل، سبحانه، مما قص فيه من أخبار خلقه، وما أراد، وترك ما لم يرد من أخبار العباد.

ثم نقول، من بعد شرحنا ما أراد الله في قوله: **﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾**: إن هذه الزبر، وإن الاستنساخ، وإن الكتاب الذي يخرج لهم فيه أخبارهم وما كان من أعمالهم، فهو كاللوح المحفوظ، واللوح، والكتاب، والزبر عند رب الأرباب، فهو العلم المعلوم، المحيط بالملك المفهوم، الذي لا يَزِلُّ شيء من الأشياء عنه، ولا يخرج، ولله الحمد، منه، وهو علم الله، العالم بنفسه، المتقدس عن شبه خلقه، وإنما يحتاج إلى كتاب المعلومات من يكِلُّ علمه في بعض الحالات، فأما رب الأرباب فهو محيط بكل الأسباب، فكل ما عمل الخلق فهو في «العلم»[3] المستطر، أي فمعناه معلوم مختبر، يوقفهم في يوم حسابهم عليه، فيعرفونه طراً لديه، فلا يضل عن أفهامهم، بقدرة الله، شيء من أعمالهم، **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[4]. وقال: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**[5] قال لقمان لابنه، وهو يعظه **﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾**[6] وقال في ذلك رب العالمين: **﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**[7]، فأخبر أنهم يلاقون كل ما كانوا يفعلون، وأن ذلك كله، صغيره وكبيره مثبت في الزبر عنده، وكل هذه الأسباب تدل على أن الزبر خلاف ما نزل من الكتاب.

ثم قال: إن أثبتوا أن أفعال العباد شيء، فسلهم: من خلق ذلك الشيء؟

فنحن، بحمد الله، نقول: وعليه منا المعمول: إن خالق كل شيء عامله، وعامله «فاعله»[8]، قال، سبحانه: **﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[9]، فسمى

---

(1) الأحقاف: ٢٩.
(2) في أ، ب: فهو.
(3) في ب: الكتاب.
(4) الزلزلة: ٧.
(5) الكهف: ٤٩.
(6) لقمان: ١٦.
(7) الأنبياء: ٤٧.
(8) في أ، ب: ففاعله.
(9) المؤمنون: ١٤.

العاملين خالقين، وقال شاعر من فصحاء العرب:

ولأنــت تفــري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يريد: «أنك»[1] تتم ما دخلت فيه وصنعته وتكمل كل ما قمت به وعملته، وغيرك لا يُصْدِر إذا أورد وأنت تصدر حين تورد، وقد بَرَى من يفسد ويسرق ويكذب ويفسق، فهل يقول الحسن بن محمد، في ذي الجلال خالقه، أنه المتولي لذلك الفعل دون فاعله؟ فيكون قد قال بخلاف قول الله، ورد في ذلك كله على الله حين يقول: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**﴾[2]، فميز بين الحرث والزرع، فجعل شق الأرض وحرثها وتسويتها وبذرها لهم فعلاً، وجعل إخراجه وفلق حبه وزرعه وتقويته له فعلاً، فقال، سبحانه: ﴿**إن الله فالق الحب والنوى**﴾[3]، وكذلك تقول العرب للغلام، إذا أرادت له الخير والإكرام: زرعك الله زرعاً حسناً، تريد: بلغك وأنبتك نباتاً حسناً، قال الله، سبحانه: ﴿**فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً**﴾[4]، يريد أنشأها وكبرها وغذاها فأحسن بإرزاقه غذاءها.

وقد يكون من هذه الأشياء التي هي أفعال، الزنا وشرب الخمر وارتكاب «الرذائل»[5]، فماذا يقول الجاهلون في هذه الأشياء؟ مَنْ فعلها عندهم؟ الخالق؟ أم المخلوق؟ ومن أظهرها وأوجدها؟ الرب؟ أم المربوب؟؟ فتقدس وتعالى ذو الجلال عما يقول المبطلون.

بل، ما يقول، ويحه وويله من الله، سبحانه و«هوله»[6]، في هؤلاء المجوس الذين أقاموا لأنفسهم ناراً وبنوا لها، تعظيماً وإجلالاً، داراً، ليلهم ونهارهم يؤججونها ويوقدونها، وهم في ذلك من دون الله يعبدونها، أهم اجترأوا على الله فيما فعلوا؟ أم الله أدخلهم في عبادة ما عبدوا؟

فإن قال: بل فعله المجوس الأنجاس، وتعدى به على الله العصاة الأرجاس، فقد أصاب الجواب وأجاب في ذلك بالصواب، وإن قال: إن الله

---

(١) في ب: أنت.
(٢) الواقعة: ٦٣.
(٣) الأنعام: ٩٥.
(٤) آل عمران: ٣٧.
(٥) في أ: الردى، وفي ب: الردا.
(٦) في أ، ب: عوله.

فعله، وأدخلهم فيه، وقَسَرهم على ذلك، وأجبرهم عليه، فقد زعم أنهم يصبحون ويمسون لله مطيعين، وفي مرضاته، سبحانه، ساعين، إذ هم في قضائه وإرادته متصرفون، وفيما أدخلهم فيه داخلون، وعما صرفهم عنه من طاعته منصرفون.

بل، فليخبرنا أهل هذه المقالة من أهل المحاربة لله والضلالة، ما الذي يجب عليهم ويرضونه في أحبابهم وفيهم، إذا رأوا مجوسياً يشتم الله؟ التَّغْيير عليه؟ أم الإقساط إليه والإحسان؟ فإن قالوا: بل يجب عليه التغيير والنكير إن نحن سمعنا شاتماً يشتم الرحمن اللطيف الخبير، قيل لهم: لم ذاك، وأنتم تزعمون، في أصل قولكم، أن الشاتم بريء من شتمه، وأن الله، سبحانه، «الشاتم دون المجوسي لنفسه»[1]، إذا زعمتم أن ذلك فعل الله دون مخلوقه وعبده، «فلئن»[2] كان عليه الله بذلك قضى فما قضى إلا بما أراد سبحانه، وارتضى، أفتنكرون على المجوس المؤتمرين بما أراده منهم رب العالمين؟! لقد، إذا، سخطتم من الله ما ارتضى، ورضيتم له من ذلك ما لم يرد ولم يشأ، بل الواجب في ذلك على كلكم، إن كان القول في الله كقولكم، تكرمة المجوس والإحسان إليهم، إذ قد قاموا لله بما قضى به عليهم، فهم لله، في قولكم ومذهبكم، مطيعون، وأنتم، ومن قال بقولكم، لله، سبحانه، عاصون، إذ أنتم لما أراد منهم ولم ينكره عليهم منكرون، وأنتم لهم ظالمون، وعليهم بالمنكر متحاملون.

ففي قليل مما احتججنا به من عدل الله ما كفى عن إعادة ما ذكرنا أولاً وشفى، والحمد لله عن التطويل وأغنى، غير أنا لا نجد بداً إذا كرر وسأل من أن نشرح ونفسر كل ما يقوله من المقال، وإذا احتج بالمحال أبطلناه، وإذا عارض الحق بالباطل دفعناه، كما قال مولانا لا مولاه: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما يصفون**﴾[3] وقال، في تولي المحقين وخذلان المبطلين: ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾[4]، يقول، سبحانه: لا ولي ولا متولي ولا مرشد لهم ولا كافي. تم جواب مسألته.

---

(١) في أ: الشاتم لنفسه دون المجوس.

(٢) في ب: فان.

(٣) الأنبياء: ١٨.

(٤) محمد: ١١.

المسألة التاسعة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الآجال فقال: خبرونا عن الأجال، من وقتها، أموقتة هي أم غير موقتة؟ فإن قالوا: الله وقتها فقد أجابوك، فقل: هل يستطيع أحد أن يزيد فيها أو ينقص منها؟ إن شاء عجلها عن وقتها وإن شاء أخرها؟ فإن قالوا: لا، فقد انتقض عليهم قولهم، وإن قالوا: نعم، فقل لهم: فقد زعمتم أن الناس يستطيعون أن يقدموا ما أخر الله، ويؤخروا ما قدم الله «وهذا هو»[1] التكذيب لما جاء من عند الله، وذلك قوله: ﴿**ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون**﴾[2]. تمت مسألته.

جوابها:

«أما ما سأل»[3] عن الآجال فقال: هل يستطيع أحد أن ينقص منها أو يتعدى فتنقطع ويتلف بعضها؟ وزعم أن ذلك لا يكون أبداً ولا يقدر عليه أحد أصلاً، ولا ينال أحد على أحد تعدياً.

فقول أهل الحق أجمعين، والله سبحانه، على ذلك المعين، أن الله وقت لعباده آجالاً وصرف لهم في أمورهم أمثالاً، وجعل فيهم قدرة على أن يقتل بعضهم بعضاً، فمن شاء خاف ربه في كل حال واتقى، ومن شاء كفر وظلم وأساء وجار في فعله وخالف واعتدى، ألا تسمع كيف يقول رب العالمين لجميع من أمره من المأمورين: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾[4]، فنهاهم عن قتل النفس، إذ علم أنهم عليه مقتدرون، وفي ذلك ولله الحمد، مُطْلَقون، وله

(١) في ب: وهو هذا.
(٢) المنافقون: ١١.
(٣) في ب: وسأل.
(٤) الأنعام: ١٥١.

مطيقون، ولو لم يعلم أنهم كذلك، ولا أنهم يقدرون على شيء من ذلك لما نهاهم عنه ولا حذرهم منه، لأن نهي الإنسان عن الطيران مستحيل في اللغة واللسان وعند كل من عرف البيان، ولقد فرق الله بين فعل عباده في ذلك وبين فعله، وبين، سبحانه، لهم كل أمرهم من أمره، فقال، سبحانه: ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**﴾[1]، فأخبر أن سكرة الموت وورود ما ينتظر من الفَوْت من الله، لا من الخلق، فصدق الله، إن الموت يأتي بالحق وينزل بما وعد من الصدق، فسمى ما كان منه حقاً وحكماً، وما كان من عباده الظلمة عدواناً وظلماً، ولو كانا من الله، شرعاً سواء، لذكر الله أنهما منه جميعاً حقاً، وقال، جل جلاله: ﴿**ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون**﴾[2]، ففرق بين القتل والموت، فكان القتل من عباده فعلاً، والموت، عز وجل، منه حتماً، وقال: ﴿**ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً**﴾[3]. فقال: «قتل مظلوماً»، فأخبر بقوله: «مظلوماً» أن له قاتلاً ظلوماً عنيداً، ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[4]، فإن كان قُتِل بأجله فأين الظلم ممن قد استوفى كل أمله وفنيت حياته، وجاءت وفاته، وفنيت أرزاقه، وانقضت أرماقه، فما يرى إذاً ذو عقل للقاتل في مقتول فعلاً، ولا عليه تعدياً ولا قتلاً ولا جناية ولا ظلماً، ولا يرى له حاكم عليه حكماً أكثر من جرح إن كان جرحه أو وكز إن كان وكزه، لأن قاتله ومفني أرزاقه ومبيد أيام حياته هو رب العالمين، في قول الجاهلين. ولو كان ذلك كذلك لنجا القاتل من المهالك ولم يكن على من جرح إنساناً متعمداً جرحاً فقتله أكثر من أن يجرح جرحاً مثله ويخلى، فإن مات منه مضى، وإن برىء منه فقد سلم ونجا، وكذلك قال الله: ﴿**والجروح قصاص**﴾[5]، فما معنى قوله: «النفس بالنفس» عندهم، وماذا يقع عليه حقاً ظنهم «أشيء»[6] سوى إخراج نَفْسِه من جسده كما أتلف وأخرج نفس صاحبه بجرحه، ولو كان كما يقولون لكان واجباً على الحكام إذ يحكمون أن يقتصوا منه لأولياء المقتول جرحاً، وخلوا عنه بعد ذلك، ولا يطلبون لنفسه تلفاً ولا قتلاً، وإن انقطع أمله وحان أجله

(١) ق: ١٩.
(٢) آل عمران: ١٥٧.
(٣) الاسراء: ٣٣.
(٤) فصلت: ٤٦.
(٥) المائدة: ٤٥.
(٦) في ب: ابشأ.

مات، وإن لم يحن أجله ونجا من القتل والفوات فيكون قد أتوا على ما قال الله في قوله: «والجروح قصاص»، لا، بل أراد، سبحانه، من ولي الأمر إخراج نَفْسه وإتلاف روحه وقطع عمره، ليجد غب[1] ما اكتسب من فعله، وقال، سبحانه: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾، فما هذا السلطان الذي جعله الله لولي المقتول عند من قال بهذا البهتان والزور من القول المخبول؟!، فلا يجدون بداً، والحمد، من أن يقولوا أنه ما جعل الله له من القتل عليه وأطلقه له فيه بجناية يديه، فله أن يقتله إن شاء وإن شاء أخذ الدية وأعفى.

ثم يقال لهم: هل جعل الله له سلطاناً على ما يقدر إذا شاء عليه أم على ما لا يصير أبداً إليه؟ فإن قالوا: على ما يقدر عليه، فقد رجعوا عن مقالتهم، وتابوا إلى الله من جهالتهم، وإن قالوا: على ما لا ينال أبطلوا كتاب الله ذي الجلال، ونسبوه، سبحانه، إلى الاستهزاء وقول الزور في ذلك والردى.

ثم يقال لهم: هل يقدر أحد من المخلوقين على قتل أحد من المربوبين، وإن كان لم ينقطع أجله ولم يفن في ذلك أمله ولم يبلغ المدى الذي جعله الله مداه وصيره له أجلاً وجعله منتهاه؟ فإن قالوا: يقدر على ذلك منه بما جعل الله من الاستطاعة فيه، فقد تركوا قولهم، وقالوا بالحق، ورجعوا، وقالوا على خالقهم، سبحانه، بالصدق، وإن هم قالوا بخلاف ذلك، فقد أبطلوا ما جعل الله لولي المقتول من السلطان، وأكذبوا الله فيما أنزل من البرهان، وإن قالوا: نحن نقول أن السلطان هو قتله بما قتل، ولم يمكن الولي تركه أبداً، لأنه إذا وجب عليه السلطان فقد انقطعت حياته وحانت وفاته، فلم يقدر على تخلية سبيله، ولا بد للولي من أن يقتله بقتيله.

قيل لهم: فأين قول الله، جل جلاله وتقدس عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿فمن عُفِيَ له من أخيه شيء﴾[2]، فما معنى عفي؟.. وإن جحدوا القرآن وأبطلوه كفروا، وإن سلموا للحق فقالوا: يمكنه العفو والصفح وأن يتصدق بذلك ويهبه ويأخذ الدية ويتركه، قيل لهم: يا سبحان الله! ما أشد تناقض قولكم وأفحش ما

(1) عاقبة.

(2) البقرة: 178.

تجيبون به من مذهبكم ورأيكم!! ألستم تقولون في أصل مقالتكم إنه لا يوقف ولا يقدر عليه ولا ينال منه حتى ينقطع أجله فحينئذ يقتله من أطلق له قتله، وأنه إذا سلم إلى صاحبه فقد انقطع أجله وذهبت أيامه، فكيف إذاً يقدر ولي القتيل على تركه والعفو عنه؟ وعلى تخلية سبيله يعيش ويأكل ويظل يمشي ويقعد ويورد ويصدر ويقبل ويدبر وقد انقطع أجله وذهبت أيامه وفنيت أرزاقه؟ أيقدر هذا على أن يعفو، والعفو يكون به للقاتل الحياة وتزول عنه الوفاة، فكيف يقدر على ذلك وقد انقطع عنه، بزعمكم، أجله، وذهب عمله وفني رزقه وكتب الله عليه موته؟ كذب العادلون بالله، وقالوا ظلماً، واستحقوا بذلك عند الله إثماً وجعلوا أمور الله كلها عبثاً وهزؤاً.

ويقال لهم: ما تقولون في قول الله، سبحانه: ﴿**ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾[1]، فسمى الله، الجليل، قتلهم، لكل من قتلوا من قتيل، عصياناً، وذكره منهم جوراً وعدواناً، فما قولكم في ذلك؟ وما تدينون به وتعتقدون؟ أتقولون أن قتل الفاسقين لمن قتلوا من المؤمنين كان بأمر من رب العالمين وقضاء منه على الكافرين؟ ولو كان ذلك كذلك لوجب لمن أنفذ قضاء ربه أجزل الثواب على فعله وأمره، وقد وعدهم الله على ذلك النيران، وألزمهم في ذلك اسم العدوان، وهذا «أعظم»[2] الكفر بالرحمن، وما لم يقل به عليه الشيطان، وإن قلتم: بل كان ذلك لمن فعله فعلاً، ومنهم على المؤمنين اعتداء، انتقض قولكم ورجعتم إلى الحق في الله والصدق.

ويقال لهم: إذا زعمتم أن الأجل انقطع بأمر الله، وأن الله جاء به، وأن انقطاعه من عنده، فمن جاء بالقاتل حتى قتل المقتول، الله جاء به وقضاه عليه وأدخله فيه؟ أم إبليس أغواه وزين قتله لديه؟.. فإن زعمتم أن الله جاء بأجله وبقاتله لينفذ ذلك من علم الله فيه، فقد زعمتم أن الله جاء بالظلم والعدوان وأدخل العبد في العصيان، فإن كان ذلك عندكم كذلك فعلام يعذب الله الإنسان «إذ كان»[3] في قولكم: الله جمعهما على «العصيان»[4] والظلم والبهتان.

---

(١) البقرة: ٦١.
(٢) في ب: فأعظم.
(٣) في ب: إذا كان.
(٤) غير موجودة في ب.

ويُسْألُونَ، فيقال: ألستم تزعمون أنه لن تخرج نَفْس من أحد، من حر ولا عبد، حتى يأتي أجله ويستوفي أمله وكل عملـه؟ وذلك من الله، زعمتـم، فمـا تقولون في رجل ضرب السكين ضربة واحدة في نحر عبد مسكين، فمات، وأنتم تنظرون، فما الـذي أوجـب الله عليكم من الشهـادة؟ أتشهـدون أنـه قتيلـه؟ أم «تقولون: بل نشهد»[1] أنه وجأه[2] وجرحه، ولا ندري من قتله؟ أم تقولون: إن ربه الذي أتلفه، لأنه جاء بأجله، ولو لم يأت أجله لدامت حياته وطال عمره، ولم يكن الجرح ليرزأه؟ فهكذا تقولون؟ أم عليه، بَتاً، بالقتل تشهدون؟ فإن شهدتم بالقتل أصبتم، وإن قلتم غير ذلك أحلتم، وماذا تحكمون على هذا الذي رأيتموه وجأ نحر المقتول، وفهمتموه، وقامت عليه بذلك شهود، وكلهم عند الإمام عدل محمود، أترون وتحكمون بقتله كما قتل؟، قال الله، سبحانـه: ﴿**النفس بالنفس**﴾[3]، أم تجرحونه جرحاً مثله، فإن مات فذاك، وإن سلم تركتموه لعلمكم أن الذي قتـل الأول هو مجيء أجله وفناء أيامه وانقضاء «أمله»[4] وتحلون عن هذا لما له من تأخير الأجل وطول الرزق والأمل، لقد أبطلتم إذاً حكم ربكم وفضحتم أنفسكم لأهل ملتكم.

ويُسْألون، أيضاً، عمن قتل نفسه بيده، أقتلها وهي حية في بقية من أجلها؟ أم ميتة قد انقضى أجلها؟ فإن قالوا: قتلها وهي حية في أجلها فقد أقروا أنه كانت له بقية فقطعها بيده، قَلَّت البقية أم كثرت، وإن قالوا: قتلها بعد أن فني أجلها، فكل ما فني أجله فهو ميت لا شك عند فناء أجله، وقتل ميت ميتاً محال. فلله الحمد على ما هدى إليه من الحجة والمقال، وله الحول في ذلك والقوة، وله الجبروت والقدرة.

ويقال لهم: ويحكم! قال الله سبحانه: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم**﴾[5]، وذلك أن المشركين كانوا يقتلون أولادهم خشية الفاقة والعالة والفقر، فنهاهم الله عن ذلك، وأخبرهم أنه يرزقهم وإياهم كما خلقهم،

---

(١) في أ: أم تشهدون.
(٢) ضربه.
(٣) المائدة: ٤٥.
(٤) في ب: أيامه.
(٥) الاسراء: ٣١.

فكيف نهاهم عن قتل من قد جاء أجله وحان موته؟ وكيف يرزقهم وقد أفنى، بزعمكم، أرزاقهم بما جعل من قتل آبائهم لهم من انقطاع آجالهم؟ وكيف نهاهم عن قتل من (ليست)[1] له حياة ولا بد أن تحل به الوفاة، فلقد أمرهم إذاً أن يحيوا من قد أمات وأفنى أجله ففات، فأي قول أشنع من هذا القول في الله الكريم؟! فسبحان الممهل الحكيم!

وقال، سبحانه، لرسوله، صلى الله عليه وآله: **﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة، فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾**[2]، أفتقولون أن الله، سبحانه، أمر نبيه أن يعبىء أصحابه فرقتين، فرقة تؤدي معه صلاة الفريضة، وفرقة تحرس النبي وأصحابه وتَلْقَى (الكريهة)[3] وليس في ذلك منفعة ولا خير ولا دفع ما يخاف من التلف والضير من ميل العدو على المؤمنين ميلة واحدة، فيكون في ذلك ما يخاف من الواقعة، وأن ما أمر الله به من الاحتذار والحذر غير نافع له ولا لأصحابه وأن آجالهم إن كانت قد جاءت قتلهم أعداؤهم، احترسوا أم لا، وإن لم تكن جاءت لم يقدروا عليهم، ولو ألقوا بأيديهم إليهم. فهذا من قولكم أعظم التخطئة لربكم وأجهل الجهل لنبيكم، **لقد** أبطلتم إذاً كتاب الرحمن وقلتم شططاً (وبهتاناً)[4].

ويقال للجهلة الضالين من المشبهين المجبرين: ما قولكم في قول ربكم، وما يخرج ذلك عندكم، حين يقول، سبحانه: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾**[5]، ما أراد الله بهذا من قوله؟ أليس هذا عتاب منه لرسوله، يخبره أنه لم يكن ينبغي له أن يأسرهم ولا يطيع أصحابه في التشاغل بأخذهم دون الإثخان لهم بقتلهم؟ ثم قال، سبحانه وجل جلاله وعز سلطانه: **﴿تريدون عرض الدنيا﴾**[5]، يريد بذلك ما أخذوه منهم وفيهم من الفداء، ثم قال: **﴿والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم﴾**[5]، يقول: والله يريد منكم الاجتهاد في أمر الآخرة وما

(١) في ب: ليس.
(٢) النساء: ١٠٢.
(٣) في ب: الكرهة.
(٤) في ب: من البهتان.
(٥) الأنفال: ٦٧.

يقربكم إليه ويزيد في كرامتكم لديه، ثم قال: **﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾**[1]، يقول: لولا حكم من الله سبق بالعفو عنكم في وقت أسركم وترككم الاستقصاء في قتل عدوكم لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم. فتبارك الله الحليم الكريم. وأخبر الله، تبارك وتعالى، نبيه، صلى الله عليه وآله، أنه قد فعل ما كان غيره أحب إلى الله وأرضى. ولم يتعمد، صلى الله عليه وآله، لله في ذلك اسخاطاً بل لعله توهم أن الأسر، في ذلك الوقت، (أنكأ للكافرين وأذل وأشقى)[2] حتى أعلمه الله أن القتل في وقت قيام الحرب كان أنفع، وعلى الإسلام وأهله بالخير أرجع.

***

أفيقول الحسن بن محمد وأشياعه، ومن كان على الجهل من أتباعه، أن آجالهم كانت قد جاءت فدفعها رسول الله صلى الله عليه وآله، عنهم، فعاب الله عليه ما فعل من دفع وفاتهم وتأخير ما كان الله قد جاء به من حضور آجالهم؟ أم يقولون إن آجالهم لم تأت ولم تحضر، وقد بقي لهم من الحياة زمان وأعصر، فإنه قد كانت لهم مدة باقية وأرزاق دارَّة غير فانية، فلم يستطع رسول الله، صلى الله عليه وآله، أن يقطع ما لم يقدر على قطعه من آجالهم، وأن يبيد ما قد بقي من أعمارهم، فلامه الله إذ لم يفعل ما لم يستطع ويبيد ويقطع من ذلك ما لم ينقطع، فلا بد أن يقولوا بأحد هذين المعنيين أو يتقلدوا وينتحلوا أحد هذين القولين، فيكونوا بانتحال أحدهما (كافرين)[3] وفي دين الله، سبحانه، فاجرين، أو يقولوا على الله ورسوله بالحق، فيقروا أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، ومن كان معه من الخلق كانوا يقدرون على قتلهم والإثخان لهم وترك أسرهم، ولامهم الله في ذلك إذ هفوا ولهوا ولم يفعلوا.

تم جواب مسألته.

---

(١) الأنفال: ٦٨.

(٢) في أ: أنكأ وللكافرين أذل وأشقى.

(٣) في ب: كفرين.

المسألة العاشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الأرزاق، فقال: أخبرونا عن الأرزاق، من قدرها؟ ومقدرة هي؟ أم غير مقدرة؟ ومقسومة هي؟ أم غير مقسومة؟.

فإن قالوا: نعم، هي مقدرة ومقسومة، فقد انتقض قولهم، فقل لهم: فهل يستطيع أحد أن يأخذ إلا رزقه؟ أو يأخذ إلا ما قسم الله له؟ فإن قالوا: إن الله خلق الأموال والأطعمة والأشربة فذلك رزقه، وبين (لهم)[1] حلالها ومأخذها، فإن أخذوها من باب الحلال كانت حلالاً، وإن أخذوها من باب الحرام كانت حراماً، فقل لهم: أفهم يأخذون لأنفسهم ما شاءوا؟ فأيهم شاء أن يكون غنياً مكثراً كان؟ وأيهم شاء أن يكون فقيراً معدماً كان؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا، لأن الناس كلهم حريص أن يكون غنياً وكاره أن يكون فقيراً، وقد قال الله، سبحانه، خلافاً لقولهم: ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾[2]، وقال: ﴿**والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت إيمانهم فهم فيه سواء، أفبنعمة الله يجحدون**﴾[3]، في آي كثيرة من كتاب الله، سبحانه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه الجاهلون، وتوهم، في الله، المبطلون، أن الله الواحد الخلاق حرم على عباده أرزاقاً رزقهم إياها، وتفضل عليهم بها، فرزقهم رزقاً

(١) غير موجودة في أ.
(٢) الزخرف: ٣٢.
(٣) النحل: ٧١.

وآتاهم ثم عاقبهم على ما أعطاهم، وأنه لا يأكل أحد ولا يلبس ولا ينتفع إلا بما رزقه الله وآتاه وصير إليه بما قدره له وأعطاه، فقالوا في ذلك بتجوير الرحمن ونسبوه إلى الظلم والعدوان، فقالوا: إنه يطعم ويرزق عباده طعاماً ثم يكتبه عليهم حراماً، فيوجب عليهم، على قبول ما أعطاهم، العقاب، ويحرمهم، بأخذ ما صير إليهم، الثواب، وقد وجدناه، سبحانه، يكذبهم في قولهم، ويبين ذلك لنا ولهم بما قسم بين عباده من الأرزاق ورفق عليهم من الأرفاق[1]، من ذلك ما حكم به في الغنائم والصدقات، وما جعل من ذلك لذوي المسكنة والفاقات، فقال، سبحانه: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب**﴾[2] الآية، فحكم بذلك لمن سمى من أولئك، فحرمهم ذلك الفاسقون، وأكله، دونهم، الظالمون، فشربوا به الخمور، وركبوا به الذكور، وأظهروا به الفجور، وأصروا على معاصي الله إصراراً وجاهروا (الله)[3] بالمعصية في ذلك جهاراً، فأعد الله لهم على ذلك النيران، وحرمهم ثواب الجنان.

(وكيف)[4] يقول الحسن بن محمد ذو الغفلات، ومن تبعه من ذوي الجهالات، أن الله، سبحانه، (رزق)[5] هؤلاء الظالمين، هذا، وقد حكم به في كتابه للفقراء والمساكين، وقال الله، سبحانه: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾[6] فحكم بذلك لنفسه ولرسوله وقرابة نبيه ومن سمى من اليتامى والمساكين وابن السبيل في تنزيله، فاستأثر به الفاسقون عليهم ولم ينفذوا ما جعل الله من ذلك لهم، بل دحروهم دحراً، ونصبوا لهم، دونه، العداوة سراً وجهراً، وقد جعله الله لأوليائه رزقاً، وحكم لهم به حكماً حقاً، فغلب عليه الفاجرون وظلموهم فيه ظلماً، وقال، سبحانه: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم**

(١) أحد معانيها المنافع.

(٢) التوبة: ٦٠ وتمام الآية ﴿**والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) في أ: فكيف.

(٥) في ب: رزقه.

(٦) الانفال: ٤١.

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[1].

فكان الذي أتى به صلى الله عليه وآله، ما أنزل الله في وحيه من فرائضه وقسمه فيه في أوليائه من خلقه، فخالف على ذلك الفاجرون، ورفضوا ما جاء به خاتم النبيين من الله رب السماوات والأرض، فجعلوه دُولة بين أغنيائهم، وحرموه من جعله الله له من فقرائهم، عماية وصمماً، ومجاهرة لله وظلماً، فأخذوا ما جعل الله لغيرهم، وتعدوا ما حكم الله به فيهم، ولا يشك من كان لبه سالماً، وكان بامر الله عالماً، أنهم على ذلك معذبون، وأنهم على مخالفته فيه مسئولون.

(فكيف)[2] يقول الحسن بن محمد: إن الله رزق هؤلاء الظالمين المعتدين الفاسقين رزقاً ثم صيره لهم وسلمه في أيديهم، ثم يعذبهم عليه ويحاسبهم فيه؟! أم كيف يجتريء ويقول: إن الله، رب العالمين والسماوات والأرض، جعله لمن حكم له به من ضعفة المسلمين ثم انتزعه منهم فجعله رزقاً للأغنياء الفاسقين دونهم، فكيف يكون ذلك والله سبحانه، يقول: **﴿كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم﴾**، أو لم يسمع من ضل وغوى فقال على خالقه بالقول الردي، الله، سبحانه، كيف يقول في الوحي المذكور في كتابه المسطور: **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾**[3]، فعلم أن في خلقه من سيأكل أموال اليتامى عدواناً وظلماً فنهاهم عن ذلك وحرمه عليهم، وحكم بعذاب السعير لمن استخار ذلك فيهم، أفيقول المبطلون أن الله، سبحانه، جعل أموال اليتامى، لمن نهاه عن أكلها، رزقاً، ثم نهاهم عن أكل ما رزقهم وآتاهم؟! لقد قالوا على الله كذباً وضلوا ضلالاً بعيداً.

ثم قال، جل جلاله، وصدق في كل قوله مقاله **﴿يوصيكم الله في أولادكم، للذكر مثل حظ الأنثيين﴾**[4]، فحكم للأنثى بجزء (وحكم)[5] للذكر بجزئين، ثم قال: **﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه**

---

(١) الحشر: ٧.
(٢) في أ: وكيف.
(٣) النساء: ١٠.
(٤) النساء: ١١. وفي ب يقف نص الاية عند: «مما ترك».
(٥) غير موجودة في ب.

أبواه فلأمِّه الثلث﴾ فما يقول من ضل وعمى وحار وشقي إن (هو)[1] تعدى، وفي المخالفة تردى، فحرم بتعديه الوالد ومنع من ميراث أبيه الولد، وأخذ ذلك فأكل به واكتسى وشرب وتزوج ولها، هل يكون ذلك عندهم له من الله رزقاً رزقه إياه؟ وقد يسمعون حكم الله به للورثة دون من أخذه واصطفاه، فقد أبطلوا بذلك حكم الرحمن، ونقضوا ما نزل، سبحانه، في الفرقان. وإن قالوا: بل أخذ ما ليس له حقاً، وأكل من ذلك ما لم يجعله الله له زرقاً، كانوا في ذلك بالحق قائلين، وعن قول الباطل والمنكر راجعين.

ثم يقال لهم: ما تقولون فيمن غصب مالاً فأخذه، وتعدى فيه وسرقه، فأكله حراماً وشربه، أتوجبون عليه الزكاة فيه؟ أم توجبون رده إلى صاحبه عليه؟ فقد يجب عليكم في قياسكم وقولكم أن تقولوا: إنه رزق له رزقه الله إياه وقدره له[2]، ولولا ذلك لم يأخذه ولم يقدر على أكله وشربه ولا على الانتفاع به، فإن كان كما تقولون وإليه تذهبون أن كل ما غصب غاصب أو أخذه من المال أخذاً غصباً، فهو من الله له بتقدير وعطاء ورزق، فلن يجب عليه أبداً رده ولا أن ينازعه فيه ضده، بل هو أحق به من كل مستحق، وهو له ملك بتمليك الله له إياه وحق، فأْمُروه فليؤد ما أوجب الله على أهل الأموال في الأموال من الزكاة والحج والإنفاق في سبيل الله والإفاضة على كل من سأله ورجاه.

ألا تسمعون كيف يقول الله، ذو الجلال وذو القوة والقدرة والمحال، حين يقول: **﴿ولله على الناس حج البيت، من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**[3] والسبيل (هو)[4] الجدة مع صحة الأبدان من مانعات حوادث الأزمان، فعند المقدرة والسلامة والأمان يجب فرض الحج على كل إنسان، وهذا في أصل قولكم، وما تذكرونه من رأيكم، بما قد حوى وأخذ من المال الحرام مستطيع لحج بيت الله الحرام قادر على ذلك بما أخذ من أخيه وأخرجه بالغصب والغلبة له من يديه، إذ تزعمون أن كل ما أخذ وأكل وشرب ولبس فهو رزق مقسوم، ومن الله، جل جلاله، عطاء لعباده معلوم.

---

(١) في أ، ب: وصى.
(٢) في ب بزيادة كلمة: لها.
(٣) آل عمران: ٩٧. وفي ب تقف الاية عند: «سبيلا».
(٤) في أ، ب: فهو.

وقال الله، سبحانه: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[1]، فلا يشك أن الزكاة تجب فيما رزق الله العبيد من رزق إذا بلغ ما تجب فيه الزكاة وتقع، فليتصدق وليقرض الله قرضاً حسناً مما في يديه، فإن الله يقول: ﴿**إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم**﴾[2]، ولن يقبل الله إلا الحلال، ولن يضاعف إلا لمن أنفق مما ملك من الأموال، فإن كان هذا له من الله عطاء فأْمُروه فلينفذ ما أمره الله به وليؤد ما عليه فيه، وانهروا عنه المطالب له به، الذي أخذه غصباً من يديه واستأثر به عليه.

وإن قلتم: لا يجب عليه فيما في يديه من هذا المال المغصوب حق ولا يلزمه فرض وأوجبتم على أنفسكم أخذه من يديه ورده على صاحبه، وقلتم: لا يكون إلا ذلك، والحق كذلك، فقد أزلتم عنه ملك ما غصب، وحرمتم عليه منه ما أكل، وأقررتم أن ما أخذ من ذلك فأكله وشربه ليس له من الله رزقاً ولا نائلاً ولا عطاء، وأن عليكم أن تأخذوا ما في يديه من المال فتردوه إلى من كان له من الرجال، وتُضَمِّنوه ما أتلف منه، وتوجبوا عليه، إن كان أخذه من دار أو بيت أو حرز أو قرار ما أوجب عليه الواحد الجبار من القطع، فإنه يقول، سبحانه: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾[3].

فيا سبحان الله! ما أبين الحق وأنور الصدق، فلو كان الله رزقه ما أكل مما سرق وغصب لما أوجب عليه أن يقطع الحاكم يده في أن أخذ ما أعطاه ربه وآتاه وأكل ما به غذاه، فسبحان البعيد من ذلك، الصادق في قوله، العدل في جميع أموره وفعله.

فإن هم من بعد ذلك سألونا فقالوا: هل يقدر أحد أن يأكل غير ما رزقه الله؟ قيل لهم: إن مسألتكم هذه تخرج على معنيين، وتنصرف في وجهين:

فإن أردتم أن كل شيء مما بث الله وأخرج رزق العباد، فكذلك لعمري هو، لأن الله قد سماه، في الجملة، بذلك، فقال: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء مباركاً، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع مديد رزقاً للعباد وأحيينا**

(١) البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، والنساء: ٧٧، والنور: ٥٦، والمزمل: ٢٠.
(٢) الحديد: ١٨.
(٣) المائدة: ٣٨.

به بلدة ميتاً، كذلك الخروج﴾[1]، يقول، سبحانه: أخرجنا به ما لا يخرج من الحب والأكل إلا بالماء وقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[2]، وقال: ﴿إنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً، متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[3]، فقال: شققنا الأرض شقاً، يريد شققناها عن النبات الذي يخرج منها من الحب والفواكه وغيره، وفلقناها فلقاً، والأبُّ (هو)[4] الحشيش والعشب الذي تأكله الأنعام، وينبت في الأودية والجبال والاكام، متاعاً لكم ولأنعامكم، يقول: بلاغاً[5] لكم ولأنعامكم إلى وقت انقضاء آجالها وآجالكم، فرزقناكم فواكه وحباً ورزقنا أنعامكم عضاها[6] وأباً، فكل ما أخرج قد سماه لأهله ومن يملكه رزقاً، فهو رزق لمن أجاز الله له أكله وأحل له أخذه وأمره عليه بشكره، فقال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[7]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾[8] وقال: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾[9]، فرزق ذو المن والسلطان والجبروت والبرهان كل عبد ما أحل له وأمره بأخذه، فأما ما نهاه عن أكله وعذبه في قبضه، فليس ذلك، لعمرهم، من رزقه، وكيف يجوز على ذي الجلال والجبروت أن يجعل لعباده رزقاً وقوتاً به يعيشون وفيه يتقلبون، ثم ينهاهم عن أخذ ما أعطاهم وإليه ساقهم وهداهم.

فهذا، والحمد لله، لا يعيى على من وهبه الله علماً وآتاه تمييزاً ولباً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين.

تم جواب مسألته

---

(١) ق: ١٩ ـ ١١.
(٢) الواقعة: ٦٣.
(٣) عبس: ٢٥ ـ ٣٢.
(٤) في أ، ب: فهو.
(٥) يبلغ للشيء ويكفي الوصول للمطلوب.
(٦) العض، بكسر العين، ما صغر من شجر الشوك وجمعه أعضاص، وبضم العين يطلق على الشعير، والحنطة، والقت، واليابس من الحشيش وأيضاً ما صغر من شجر الشوك، وبالجملة فالمراد هنا ما يكون طعاماً للأنعام.
(٧) البقرة: ٦.
(٨) البقرة: ١٧٢.
(٩) النحل: ١١٤.

المسألة الحادية عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن العقول، فقال: خبرونا عن العقول، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا: مخلوقة، فقل: أمقسومة هي بين العباد أم غير مقسومة؟ فإن قالوا: بل هي مقسومة، فقل: فأخبرونا من أين عرف بعض الناس الهُدَى فأخذ به، وجهله بعضهم فتركه، وكلهم حريص على الهدى، كاره للضلالة، راغب في العلم، مبغض للجهالة، وقد زعمتم أن الله قد جعل سبيلهم واحداً وعقولهم واستطاعتهم واحدة، وهي حجة الله عليهم؟

فإن قالوا: بتوفيق من الله، فقد أجابوا، وإن قالوا: أخذ هداه منهم من أحب وتركه منهم من أتبع هواه وأطاع إبليس إلى دعائه، قيل لهم: فما صير بعضهم تابعاً لهواه؟ والعقول فيهم كاملة مستوية؟ فإن قالوا: بتوفيق من الله وفق من شاء منهم، فقد أجابوا، وإن قالوا: فضل الله بعضهم على بعض فقد صدقوا، وإن قالوا غير ذلك، فقد كذبوا.

إلا أنه لو كان الناس في العقول سواء، ما كان من الناس جاهل وعاقل وأحمق وحليم، ولَسُمِّي الجاهل عاقلاً والعاقل جاهلاً، ولكن الأمر في هذا أبين من ذلك، ولكنهم قوم يجهلون. وإن قالوا ذلك من قِبَل الأدب والتعليم، فقل: لو كانت عقولهم مستوية، ما احتاج بعضهم إلى بعض في أدب ولا تعليم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما عنه سأل وقال مما ألحد فيه من المقال، فقال: أخبرونا عن العقول أمخلوقة هي أم مقسومة أم غير مخلوقة ولا مقسومة؟ فنحن، والحمد لله، نقول: إن

الله خلق العقول وأوجدها فيهم، وجعلها حجة له عليهم، وسببها لهم، سبحانه وتعالى، تسبيباً، وركبها فيهم، احتجاجاً عليهم، تركيباً، فهي حجة الله العظيمة، ونعمته على خلقه، الكريمة، تدعو أبداً إلى الخير والهدى، وتنفي عن الخلق الضلالة والردى، تدل على الخالق ذي الجلال، وتنفي عمن أراد الحق التكَمُّه والضلال، فهي أبداً لمن استعملها داعية إلى الإسلام، مخرجة له من حنادس دياجير الظلام، ثم قسمها، سبحانه، بين خلقه ليدلهم على ما أوجب عليهم من حقه، فأعطى كل من أوجب عليه أداء فريضة منها أكثر مما يحتاج إليه في أداء ما افترض عليه، فليس مَنْهِيٌّ يجب عليه عقاب ولا مأمور يجب له ثواب إلا وقد ركب الله فيه من العقل وقسم له وعليه أكثر من الحاجة في أداء مفترضه وما يخرجه، بحمد الله، إن استعمله من جهالته. ثم أمرهم باستعمال ما أعطاهم من الحجة المركبة فيهم، وأخبرهم أنهم إن لم يستعملوها لم يصلوا إلى علم ما لعلمه أعطوها، فأمرهم أن يستعملوها فيفكروا وينظروا ويميزوا ويتدبروا، فإذا فكروا وميزوا بتلك الحجة التي لن يضل معها طول الأبد، أن أنصفها بحمد الله، من أحد، ولذلك ما قاله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾[1]، يقول: أنظروا بأبصاركم ثم دبروا فاعتبروا بعقولكم فيما ترون وتبصرون، هل له من خالق غير الله، فيما تعلمون؟! كما قال، سبحانه ألهم إله غير الله سبحانه عما يشركون، وقال: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾[2]، وقال: ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[3]، ثم قال، تنبيهاً لهم وحثاً على استعمال العقول، ليصح لهم الحق من القول إذا نظروا فيما ذكر الله مما أراهم وفطر لهم: تفكروا، فقال الله سبحانه: ﴿**حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إن في السماوات**

(١) الحشر: ٢.
(٢) الزخرف: ٩.
(٣) القصص: ٧١ ـ ٧٣.

والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾[1]، فقال، في أول السورة: لآيات للمؤمنين يقول: يصدقون بما يرون وينصفون العقل فيقبلون منه ما عليه يدلهم حين يبصرون ويستبصرون في الحق ويستدلون على الله بما ذرأ من الخلق فيكونون بذلك مؤمنين، ولله بالخلق والقدرة مقرين، ثم قال: (لقوم يوقنون)، فأخبر أنه قد ذرأ وجعل لهم من الدلالة عليه في خلق أنفسهم ما بأقل قليله على خالقهم يستدلون، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو يوقنون، ثم (كرر)[2] الدلالة لهم والإحتجاج عليهم بذكر ما أنزل من السماء من رزق فأحيا لهم به الزروع وفرع به في الأصول الفروع، ثم (ذرر)[3] الإحتجاج والتوقيف لهم و تعريف فذكر تصريف الرياح وما يكون فيها وبها من الألقاح فقال: (وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)، فتتابعت الآيات متناسقات بما فيهن من العبر والدلالات حتى وصل إلى قوم يعقلون، فأخبر بذلك أن كل ما ذكر لا يعلم ولا يخبر ولا يفهم إلا بما ركب وجعل لهم فيه من حجة العقل، فقال، سبحانه، احتجاجاً عليهم وتنبيهاً في ذلك كله لهم من الأبصار التي لا ينتفع بها في التذكرة وحثاً على استعمال الألباب في كل الأسباب: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾[4]، يقول: توفيقاً لهم وتعريفاً واحتجاجاً على ذوي العقول، وقال: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[5]، فحض بالأمر بالاعتبار ذوي الأبصار.

وقال، سبحانه: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[6] فنظر قوم وفكروا، وعقولهم في ذلك أنصفوا، فأبصروا واهتدوا وعرفوا الحق فرشدوا، وأنكر قوم وخالفوا ما تفرع لهم من المعقول، فجحدوا، فعاقبهم الله على ذلك من فعلهم، وأضلوا أنفسهم بمكابرة عقولهم، وأبطلوا النظر واتبعوا الجبر، فاتبعوا الهوى وتركوا الهدى، وتعلقوا بالأخبار المنقولة الكاذبة ورفضوا ما فيهم من حجة

---

(1) الجاثية: ١ ـ ٥.
(2) في أ: ذكر.
(3) في أ: ذكر.
(4) ق: ٦ ـ ٨.
(5) الحشر: ٢.
(6) محمد: ٢٤.

الله الصادقة، فبذلك عندوا، وأنفسهم بالتجبر منهم أهلكوا، فليس للعباد على الخالق من حجة يحتجون بها، ولا متعلق ولا طُلْبَةٍ في ذلك يطلبونها، بصرهم وهداهم، وركب فيهم ما كفاهم، وبعث إليهم المرسلين مبشرين لهم ومنذرين، فأمروهم ونهوهم وعذابه حذروهم، وإلى ثوابه دعوهم، وأروهم عجائب الآيات، واحتجوا عليهم بالدلالات، ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم**﴾[1].

فهذا قولنا في ربنا، وشرحنا لما احتج به، سبحانه، علينا.

فإن قالوا، وبما ندفعه، إن شاء الله بحقنا تعلقوا: ألستم تزعمون، وبغير شك تقولون: إن الله قسم العقول بين خلقه، وجعلها لهم حجة فيهم، نعمة أنعم بها عليهم، وأيادي أكملها لديهم، ثم تقولون أنه افترض عليهم فروضاً فجعلها عليهم كلهم شرعاً سواء، إن أدوها أثيبوا وإن تركوها عوقبوا، ثم يقولون ونقول: إن ذلك لا ينال إلا بالعقول، وقد نرى اختلاف العقول في الناس أجمعين، فنعلم أنهم فيها متفاضلون، وأن ليس هم فيها على القسمة متساوين، فأين ما يحوطون من عدل رب العالمين، وقد ساوى (بين عباده)[2] فيما افترض عليهم، وجعل ذلك، سبحانه، سواء فيهم، ثم فضل بعضهم على بعض فيما لا يُنال أداء ما فرض من الطاعات ولا يوصل إلى تمييز شيء من شيء إلا به من الآلات، من العقل الرصين والفهم المبين؟

قلنا لهم: قد سألتم، فاسمعوا ما به أُجِبْتُم، فكذلك بالعدل على الله نقول، وفي كل أمرنا فيه، سبحانه، نحول، وسنبين لكم، إن شاء الله، الجواب، ونشرح لكل ما تتكمَّهون فيه من الارتياب، ونختصر ذلك لكم بما يقر في أفهامكم ويثبت إن كنتم للحق طالبين مريدين في ألبابكم، فنقول، إن الله تبارك وتعالى افترض على خلقه فروضاً، وأوجب عليهم، سبحانه، أموراً، ثم أعطاهم ما بأقل قليله يُنَال أداء ذلك من الالات، ويقتدر على أدائه متى قصد من (الساعات)[3]، فجعل في

---

(١) الانفال: ٤٢.
(٢) في أ: بينهم.
(٣) هكذا في أ، ب. يحتمل أن المراد الازمنة والاوقات المستعملة كظروف للأعمال.

أقلهم عقلاً من العقل ما ينال بأقل قليله تمييز ما أوجب الله عليه تمييزه، والإحاطة بما أوجب عليه الإحاطة به من معرفته والإقرار بوحدانيته والأداء لكل فرائضه فساوى بين عباده فيما إليه يحتاجون، وله، في فرائضه، يستعملون، ثم زاد، بعد أن ساوى بينهم، في الحجة، من شاء، فضاعف له العطاء والكرامة، وزاده في العقل والسلامة، كما زاد بعضهم بسطة في العلم والجسم، فليس لأحد على الله في ذلك حجة، إذ قد أنالهم من ذلك أكثر من البغية لئلا يكون للمخلوقين عليه حجة فيما فضل بعضهم على بعض من الجَلَد والطول والجمال والهيئة والكمال والبياض والفصاحة، فكل ما أدخلتم عليه فيما فضل الله به بعض الخلق من العقول، فواجب عليكم لنا أن تجيبونا به فيما بين البياض والسواد والقصر والطول حذو المقال بالمثال ليس لكم، والحمد لله، عنه تَحَرُّف ولا انتقال إلا بأن ترجعوا إلى الصدق، فقد بان لكم والحمد لله الحق، فاتقوا إملاء الشيطان وتسويله وإغواءه، وتخييله، ولا تكونوا من الذين قال الله فيهم: **﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾**[1] وسنضرب لكم، بقوة الله وحوله، في ذلك مثلاً يبين لكم أموركم، ويخامر نور حقه ضميركم وصدوركم:

أرأيتم رجلاً له بيتان من حشيش، وله غلامان، فدفع إلى أحد غلاميه شمعة واحدة متوقدة، ودفع إلى الاخر ثلاث شمعات، ثم قال لهما: ليحرق كل واحد بما معه ما في أحد هذين البيتين من الحشيش، فهل ترون لصاحب الشمعة الواحدة المتوقدة المتلهبة على مولاه حجة في أن أعطى صاحبه ثلاثاً وأعطاه واحدة، فيقول لا والله، ما أقدر أن أحرق بيتاً من حشيش بهذه الشمعة الواحدة، فأعطني ثلاثاً مثل صاحبي وإلا فلا حيلة لي في إحراقه؟

وقد يعلم كل ذي عقل سوي من رشيد أو غوي، أن الذي يكفي هذا الحشيش من هذه الشمعة لفحة واحدة، وأن من معه ثلاث شمعات، وعشر، واحد في القدرة على إحراق ما أُمِر بإحراقه، وإنفاذ أمر سيده فيه، فهل تقولون لسيده: كلفته وصاحبه إحراق بيتين من حشيش متساويين، ثم كلفته إحراقه بشمعة واحدة،

---

(١) محمد: ٢٥.

وكلفت صاحبه إحراق بيته بثلاث، فأعطه ثلاثاً وإلا فقد كلفته ما لا يناله بهذه الواحدة ولا يطيقه، فأنت له في ذلك ظالم وعليه بفعلك هذا متحامل.

أم تقولون للعبد: أنت مخطىء في فعلك، جاهل في قولك، فأنت تنال بهذه من حشيشك مثل ما ينال صاحبك بشمعاته في حشيشه، والأمر في قليل النار وكثيرها، عند تأججها وإلتهابها، سواء، لا حجة لك على مولاك فيما كلفك وأعطاك.

فكذلك، ولله الحمد، الأمر فيما أعطى الله العباد من حجته فيما فضل به من شاء من بعد ذلك من خليقته، فأما من سلب عقله من المجانين والأطفال، فلم يوجب الله عليهم الأعمال، بل أزاح عنهم ذلك ولم يوجبه عليهم، وحالهم في وقتهم ذلك عند الله (حال)[1] لا يسألهم فيها عما افترض من الأعمال حتى يفيقوا، ومما هم فيه يخرجوا، ويبلغ الأطفال من الفهم ما يصح لهم به التمييز ويخرجوا من حال الطفولية والصغر إلى حال القوة والكبر، وفي ذلك ما قال الرسول، صلى الله عليه وآله: «رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يعقل».

والحمد لله العدل في فعله، الرحيم بخلقه، الذي كلف يسيراً، وأعطى عليه كثيراً.

تم جواب مسألته.

---

(١) في ا، ب: فحال.

المسألة الثانية عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الإرادة، فقال: أخبرونا عن الإرادة، إذا أراد الله شيئاً، يكون؟ أو لا يكون؟ فإنه قد قال: ﴿**فعال لما يريد**﴾[1]، فإن قالوا: نعم، قيل لهم: وهل أراد الله أن يدخل خلقه كلهم في الهدى؟ فإن قالوا: نعم، قد أراد أن يدخلوا كلهم في الهدى على غير جبر منه ولا إكراه، فيقال لهم: فهل دخلوا في الهدى، كما أراد، على غير وجه الجبر منه لهم والإكراه؟ تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من (إرادة)[2] الله، سبحانه، فقال: إذا أراد الله شيئاً يكون؟ أو لا؟ فإنه قد قال الله ﴿**فعال لما يريد**﴾، فكذلك قولنا في خالقنا ومصورنا وبارئنا ومميتنا ومحيينا، سبحانه وجل وتقدست أسماؤه، كما قال في نفسه (فعال لما يريد)، فكل ما شاء أن يفعله، سبحانه، فعله.

ثم نقول، من بعد إثبات القدرة للرحمن ونفي التشبيه والتجوير عنه في كل ما شاء: إن الإرادة من الله، على معنيين، نَيِّرَيْن، عند من عَلَّمه الله وفهمه، بَيِّنَيْن.

فإحداهما: إرادة حتم (وجبر)[3] والأخرى إرادة أمر، معها تمكين وتفويض، فأما إرادة الحتم فهي ما أراد من خلق السموات والأرض والجبال وما أنبت من الأشجار ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون**﴾[4]، وما أراد، سبحانه، من قضاء الموت على خلقه من جميع أهل سماواته وأرضه، والذهاب والفوت، فقال، سبحانه: ﴿**كل نفس ذائقة الموت**

---

(١) هود: ١٠٧، والبروج: ١٦.

(٢) في أ: الارادة.

(٣) سقطت من ب.

(٤) النحل: ٨.

وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[1]، وقال: ﴿**كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام**﴾[2]، فأخبر بما حكم به على خلقه، وبما ألزمهم في ذلك وأوجبه عليهم من حتمه، فقال: ﴿**قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[3]، وقال لنبيه، صلى الله عليه وآله، إخباراً منه بما حتم عليه: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾[4].

ومن إرادة الحتم التي أراد الله فعلها ففعلها، قوله: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها**﴾[5]، فكان قضاؤه فيهن خلقه، سبحانه، لهن حين أراد إيجادهن وصورهن وأوحى ما شاء فيهن من أمرهن، ومن ذلك ما يقول الواحد الجبار ذو الملكوت الغفار: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**﴾[6]، فذكر أن الموت منه، وأنه يقضي به و(يبديه)[7]، فكان هذا منه إرادة حتم ليس لأحد فيها منهم فعل.

ومن ذلك ما قال الله، سبحانه: ﴿**ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾[8]، فأراد خلقه فخلقه، وقال: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾[9]، فأخبر عن نفسه بما أراد أن يجعله منهم فجعله وصوره وأوجده، كما قال: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾[10].

وأما المعنى الآخر: فهو الإرادة التي معها تمكين، وهو قوله سبحانه:

---

(1) آل عمران: ١٨٥.
(2) الرحمن: ٢٦.
(3) الجاثية: ٢٦.
(4) الزمر: ٣٠.
(5) فصلت: ١١، ١٢.
(6) الزمر: ٤٢.
(7) في ب: يبد.
(8) ق: ١٦.
(9) الحجرات: ١٣.
(10) يس: ٨٢.

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾[1]، فكان قضاؤه في ذلك، سبحانه، ما أمر به من أن لا نعبد معه غيره، وما أمر به من البر والإحسان إلى الوالدين، فأراد الله، سبحانه، من العباد أن يطيعوه ويعملوا له بما ركب فيهم وأحسن به إليهم من الاستطاعات، وما أعطاهم من الآلات، بالاختيار منهم لطاعته، والإيثار منهم لمرضاته، ليثيبهم على فعلهم ويعاقبهم على تركهم، ولو أراد منهم الطاعة جبراً، وصرفهم عن المعصية قسراً، لكان كلهم جارياً في طاعته تابعاً لمرضاته، ولم يكن المذنب الشاسع أولى بالعقوبة من «المهتدي»[2] الطائع، ولم يكن العامل بالطاعة «أحق»[3] من عامل المعصية، إذ كانا كلاهما أُدْخِلا في عملهما إدخالاً واستعملا في إرادة الله استعمالاً. فتبارك الله عن ظلم العباد، وتقدس عن القضاء بالفساد، الذي لم يطع كرهاً ولم يعص مغلوباً، بل أمر ونهى، وحذر وهدى، وعَرَّف النجدين، وبين العملين، ثم أعطى كل شيء خلقه، وأعد للمطيعين الثواب وللعاصين العقاب، ثم قال، سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[4]، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾[5]، فأمرهم، سبحانه، بالإيمان، وحضهم على التقي والإحسان، ونهاهم عن الكفر والطغيان وعن جميع ما لم يُرِد من العصيان، فقال، سبحانه: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[6]، وقال: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾[7]، ومثل هذا في القرآن كثير، وقال: ﴿لا تأكلوا الربا﴾[8]، وقال: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾[9]، الاية. ولله الحمد باين البيان، فأمرهم بما أراد من طاعته ونهاهم، سبحانه، عن معصيته.

ثم قال، سبحانه، من بعد أن أعطاهم من الاستطاعة ما أعطاهم، ثم أمرهم

---

(١) الاسراء: ٢٣.
(٢) في ب: المؤمن.
(٣) في ب: بأهل.
(٤) آل عمران: ١٠٢.
(٥) النساء: ١٣٦.
(٦) الاسراء: ٣٢.
(٧) الانعام: ٥١: ١٥١.
(٨) آل عمران: ١٣٠.
(٩) النساء: ١٠، وتمام الاية: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾.

ونهاهم، فقال: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[1]، وقال: ﴿**من يعمل سوءاً يجز به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾[2]، ثم قال، سبحانه: ﴿**فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم، إن هذا لهو حق اليقين**﴾[3].

ثم قال، من بعد إكمال الحجة عليهم وإثباتها فيهم: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾[4].

أفلا ترى كيف بين ما كان منه فعلاً، وبين ما أمر به العباد أمراً، فلم يقل فيما حتم به عليهم حتماً وما كان منه عليهم قضاء وحكماً من الموت ولا من الخلق: موتوا، ولا: لا تموتوا ولا: اخلقوا، ولا: لا تخلقوا، ولم يقل فيما أراده منهم فعلاً بتخيير واختيار لعظيم المنة والاختيار: كل من قضينا عليه المعاصي عاص، كما قال: ﴿**كل من عليها فان**﴾، ولم يقل أمرنا وقضينا عليه بالعصيان، كما قال: ﴿**إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير**﴾[5]، بل أخبر أنه من ذلك بريء، فقال: ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾[6]، فتبارك الله الواحد الأعلى الذي إذا أراد أن يفعل شيئاً كان بلا كلفة ولا إضمار ولا تفكر ولا إضطراب، إذا أراده أوجده، وإذا أوجده فقد أراده، فقضاؤه كائن وفعله من أفعال العباد بائن، ليس له مثل ينال ولا شبه تضرب له فيه الأمثال، وهو الواحد المتعال، الصمد الواحد الأحد الذي ﴿**لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد**﴾[7].

تم جواب مسألته

---

(١) الزلزلة: ٧.
(٢) النساء: ١٢٣.
(٣) الواقعة: ٨٨ ـ ٩٥.
(٤) الكهف: ٢٩.
(٥) ق: ٤٣.
(٦) الاعراف: ٢٨.
(٧) الاخلاص: ٣، ٤.

المسألة الثالثة عشرة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن الطبع والختم، فقال: أرأيتم من طبع الله على قلبه وختم على سمعه وبصره، أهو ممن دُعِيَ إلى الإيمان فيثاب على أخذه ويعاقب على تركه؟ فإن قالوا: نعم، فقل: كيف يقبلون الإيمان، وقد ختم على قلوبهم، والله يقول: ﴿**سواء عليهم، أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[1]، فهل ضرهم الطبع أو الختم؟ أم نفعهم؟ أم لم يضرهم ولم ينفعهم؟ فإن قالوا: إنما ختم على قلوبهم بكفرهم، فقل: هل ضرهم الطبع حين فعل بهم، وحال بينهم وبين التوبة والدخول في الإيمان؟ فإن قالوا: لم يضرهم، ولو شاءوا آمنوا، فالله قد كذبهم، واجترأوا على الرد على الله قوله، فقل: فتراهم حين طبع على قلوبهم حين لم يقبلوا الإيمان؟، فإن قالوا: فإنهم لا يقدرون على الإيمان حتى يفتح الله قلوبهم فقد أقروا لله بقدرته، وانتقض عليهم قولهم، إذ زعموا أن الختم قد ضرهم وأنهم يعذبون على ما كان من تركهم الإيمان وأخذهم بالكفر بعد الختم وعملهم بما لا يستطيعون تركه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من الطبع والختم من الله فقال: أرأيتم من طبع الله على قلبه وختم على سمعه وبصره، أهو ممن دعي إلى الإيمان فيثاب على أخذه ويعاقب على تركه؟ فقولنا في ذلك على الله بالحق، إن الله لم يرد بذلك إذ قاله أنه طبع على قلوبهم لا يقدرون على الفهم معه، ولا أنه ختم على سمعهم ختماً لا يقدرون على السمع والإستماع، وعلى البصر فلا يقدرون على الإبصار والإنطباع، وذلك «أبين»[2] الأمر ولا ينكره مَنْ عقل.

(١) يس: ١٠.

(٢) في أ، ب: فأبين.

ألم تر وتسمع أن الجاهلية كانوا أرصن عقولاً وأعظم أحلاماً وأكثر أفهاماً من أهل هذا الدهر؟ ولذلك قالت قريش للرسول فيما كان يعيب من آلهتهم ويبين لهم في ذلك من جهالتهم، فكانوا يقولون لعمه أبي طالب ومن قام معه دون رسول الله، صلى الله عليه وعلى أهل بيته وقرابته: عاب آلهتنا، وسخف عقولنا، وأطاش أحلامنا. فكانوا ذوي أحلام وعقول جمة وأفهام، فكيف يكون من طبع على قلبه، على ما قد يسمعون عنه من فهمه، وكذلك كانوا يستمعون إلى الرسول إذا قرأ القرآن ويقولون في قراءته كل قول ويدبرون فيه التدبير ويسطرون فيما جاء به الأساطير.

من ذلك ما كان يقول ويتبعونه عليه من القول منهم الوليد بن المغيرة، اللعين، وكانوا له على كفره تابعين، حين تلا عليهم قول رب العالمين، فقال ما حكى الله عنه في سورة «نون» حين يقول: ﴿ **فلا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين**﴾[1].

كذلك كان يقول الوليد الملعون: إنْ هذا إلا قول البشر، ويقولون: معلم مجنون، كما حكى الله في الكتاب المكنون، وقال فيهم ربهم وذكر عنهم ومنهم، فقال، سبحانه: ﴿ **أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون**﴾[2]، ويسمعهم ما كان رسول الله، صلى الله عليه وآله، يحاججهم به ويقرأ القرآن عليهم ويأمره الله، سبحانه، بذلك فيهم، فيقول: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾[3]، وقال، جل جلاله وصدق في كل قول مقاله: ﴿ **وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً**﴾[4]، وقال: ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**﴾[5].

فهل يقول أحد من ذوي العقول أن من كانت هذه حاله كان مختوماً على

---

(١) القلم: ١٠ ـ ١٥.
(٢) الدخان: ١٣.
(٣) الشعراء: ٢١٤.
(٤) المزمل: ١٠. وفي ب مذكورة خطأ هكذا: (فاصبر...).
(٥) طه: ١٣٠. وفي أ، ب مذكورة خطأ هكذا: (واصبر...).

سمعه، ورسول الله، صلى الله عليه وآله، يناجيه ويناديه؟ وهل يجوز على الرسول أن ينادي ويناجي من سمعه مختوم؟ وكذلك كان نظرهم وأبصارهم فيما يأمرهم الله أن يبصروه من السماوات والأرض، إذ يقول: ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج**﴾[1] فهل يجوز على الله أن يأمر بالإبصار من هو بالختم أعمى؟ فهذا لا يجوز على ديان الاخرة، والدنيا، ولن يقدر أحد أن يقول أنهم كانوا عمياناً لا يبصرون وأنهم كانوا صماً لا يسمعون، ومن ذلك ما قد بان منهم ما كانوا عليه من الكمال والمعرفة والعقول والتمييز في كل حال، فإن قالوا: إن الله طبع على قلوبهم وختم على سمعهم وأبصارهم عما جاء به الرسول من الحكمة والقول فقط وخلوا وما سوى ذلك فقد وقعوا في أعظم مما كرهوا من المهالك إذ زعموا أن الله سبحانه ختم[2] على سمعهم وأبصارهم فلا يبصرونه ولا يسمعونه، وطبع على قلوبهم فلا يفقهونه ولا يميزونه، ثم أرسل نبيه، صلى الله عليه وآله، يدعوهم إلى مغالبته ونفي ما فعل بهم وركب فيهم وتغييره، تعالى الله عن ذلك، وإزاحته عن أنفسهم إذ كان قد أرسله إليهم يدعوهم إلى الإيمان والاهتداء والخير والبر والإحسان والطاعة له ولنبيه والإستماع لأمرهما والعمل بالقول وباللسان والضمير بطاعتهما، وقد علم أنهم لا يقدرون على ذلك، فنسب من قال بهذا إلى الله العبث والاستهزاء بنبيه، صلى الله عليه وآله، وزعم أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، أتاهم يدعوهم إلى المحال ويأمرهم بالمغالبة والدفع لما فعل فيهم ذو الجلال.

ألا تسمع كيف قد أثبت لهم الفهم بما يقال لهم، والمعرفة بما يتلى عليهم في قوله، سبحانه: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم**﴾[3]، فأخبر الله الواحد الجليل فيما أوحي ونزل من التنزيل أن الهدى قد تبين لهم وصح لديهم وثبت في قلوبهم، ولولا سلامة القلوب من الختم الذي يذهب إليه الجاهلون، ويقول به، على الله سبحانه، الظالمون،

---

(١) ق: ٦.

(٢) في أ هنا عبارة زائدة هي: على عن شيء بعينه. وفي ب بزيادة: على نبي بعينه.

(٣) محمد: ٢٥.

لم يثبت أبداً في قلوبهم الهدى، ولو لم يثبت لم يبن، ثم أخبر الله ما سبب إرتدارهم في الطغيان ومعصيتهم من بعد أن بين لهم ذلك الرحمن، فقال: «الشيطان سول لهم وأملى لهم»، ولم يقل: الرحمن ردهم وأضلهم، ثم أخبر بالسبب الذي كان عنهم فتمكن، إذ قالوه، الشيطان منهم، فقال، سبحانه: ﴿**ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله، سنطيعكم في بعض الأمر، والله يعلم إسرارهم**﴾[1].

ثم أخبر بما يصيرون إليه عند موتهم من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: ﴿**فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم**﴾[2]، ثم أخبر لِمَ فعل ذلك بهم، وحتم عليهم بضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: ﴿**ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم**﴾[3]، ثم قال: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها**﴾[4]، أفيظن أحد ممن وهب لباً وتمييزاً وعلماً أن الله، سبحانه، أوجب ما أوجب عليهم، وذكر ما ذكره عنهم، وأمرهم بالسير في الأرضين، والنظر في آثار الأولين ممن هلك بما هم عليه من الكفران وبما يختارونه من الفجور والعصيان، ولم يجعل لهم إلى ذلك سبيلاً ويركب، إليهم، فيه دليلاً، وهم لا يقدرون على ذلك لما قد فعله بهم من الختم على أسماعهم وأبصارهم والطبع على قلوبهم التي بها يعقلون وبسلامتها يميزون ويفهمون؟ كذب العادلون بالله والقائلون الزور على الله، بل سلم ذلك لهم ووفره لإكمال الحجة عليهم، ثم أمرهم بالتسديد، وما ربك بظلام للعبيد.

***

ثم نذكر، من بعد دفع هذه المهالك، ونشرح الصدق بما علمنا الله من ذلك، فنقول: إن معنى الختم والطبع من الله، تبارك وتعالى، هو على معنى التمثيل لهم والتقريع، وإثبات الحجة عليهم وتبيين ضلالتهم لهم، فيقول، سبحانه: إن امتناعكم من فعل الرشيد وقلة قبولكم له، كمن طبع على قلبه بما منعه

(١) محمد: ٢٦.
(٢) محمد: ٢٧.
(٣) محمد: ٢٨.
(٤) محمد: ١٠.

من لبه وحرمه من تمييزه ونظره، وجودة فهمه، وبما عدم من النظر والغوصان في بحور الفكر من البهائم التي قد منعها الله من ذلك كله إذ لـم يجعل لها عقولاً تميز بها، فلما أن لم يجعل لها سبيلاً إلى ما يناله البشر من العقل والفهم والتمييز والنظر كان ذلك منه فيها فعلاً وكان منه طبعاً على قلوبها عما فهمه من التمييز أربابها.

فَمَثَّلَهُم في قلة تفهمهم وإنصافهم لمعقولهم وتركهـم لرشدهـم واتباعهـم لغيهم بمن طبع على قلبه وختم، عن التمييز، على سمعه وبصره، عن أن تعلم ما يعلمون أو تفهم ما يفهمون من البهائم التي جعلت قلوبها علـى غير ما جعلـت قلوبهم من ذلك وختم عليها فكانت بهائم سوائم كذلك، ألم تر كيف يقـول ذو العزة والإنعام: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾[1]، وقـال: ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾[2]، يقول: إذ أعطوا من الفهم والتمييز النطق وجودة التحرف في غامض الفكر ما لم تعطه البهائم وما قد حجبها عنه العزيز العالم وخلقها على غيره من الخلق وصورها على ما قد يراه «جميع»[3] الخلق فأبوا استعمال ما ركب فيهم، وأمتن الله به، سبحانه، عليهم، وتركوا النصفة وأخذوا في المكابرة والمعاندة لربهم والكفر لنعمـة خالقهـم، فكانـوا لذلك وفيه أضـل من الأنعام، إذ تركوا ما لو علمته الأنعام وعرفته وميزته وفهمته لقبلتـه وتسارعـت إليه ولدخلت بأجمعها فيه، ثم لثابرت، إلى الممات، عليه.

فهذا والحمد لله قول لا ينكسر على من قال به، بل يصح وينير لذوي العقول ويستبين ويصح، وقد يخرج ذلك على معنى آخر، فيكون على قدر علمه منهم بما سيكون من اختيارهم للضلال وإيثارهم للسفال وتركهم للهدى وقلة رغبتهـم في التقى، وأنهم للعنتهم وحميتهم وشدة حسدهم لنبيهم لا يختارون ما جاء به من الله براً بهم، وأنهم لا يطيعونه فيما دعاهم، من حظهـم، إليه، وأنهـم سيجاهـرون بالجرأة عليه، فلما أن علم الله منهم أنهم يختارون، بما ركب فيهم من القـدرة والإستطاعة وسلم لهم من الجـوارح والآلـة، معصيتـه علـى طاعتـه، ومخالفـة

---

(١) الأعراف ١٧٩، وهي في أ ب مذكورة خطأ هكذا: (إن هم إلا كالانغام).

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) في ب: جمع.

مرضاته، وأنهم يلقونه يوم الحشر كفاراً كذلك، فختم لهم، إذ قد علم من غاية أمرهم فختم عليها ولها بما علم أنه يكون آخر اختيارها وعملها، وكذلك قيل في محمد، سيد المرسلين، إنه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، فسمي خاتمهم إذ كان آخرهم، فلما أن علم الله آخر أعمالهم وما عليه يكون فناء آجالهم، ختم بذلك عليهم ودعاهم به وذكره عنه وفيهم، فكان ذلك العمل منهم اختياراً، وكان ما قال الله فيهم منه إخباراً.

وأما ما ذكر الله من الطبع على قلب من على قلبه طبع، فسنقول فيه بوجه من قال به، إن شاء الله، أصاب ووجده بيناً نيراً في اللسان والإعراب، وهو ما تقول به العرب لمن ذكر في ملأ من الناس عن إنسان شيئاً مما يفعله ويكتسبه ويصنعه من الردى والخنا: يا فلان طبعت ويحك فلاناً وأفسدته وطرحته بما طبعته به من أعينهم[1]، فعلى ذلك يُخَرَّج الطبع من الله لقلوب الفاسقين، عند ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وعباده المؤمنين، فيكون طبعه لها عندهم هو ما ذكر وأخبر به عنها من باطن أسرارها وفاحش إضمارها وفسادها وقلة قبولها للحق واهتدائها وكفرها لربها وحسدها لنبيها، وبما فيها من الدغل[2] والعداوة لخاتم النبيين والمشاقة لرب العالمين والمنافقة للمؤمنين والصد عن سبيل أحكم الحاكمين، كما قال أصدق الصادقين: ﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم**﴾[3]، فيكون ما قص عنهم من قصصهم وأخبر به من الضلالة عنهم ومن الحيرة والتَّكَمُّه[4] والجهالة والكفر والنفاق والسفالة، وما سماهم به من ذلك ودعاهم طبعاً طبعهم به، فهذه، والحمد لله، حجة فيما سأل عنه من الختم والطبع شاء فيه مُجْزِيَةٌ لمن أراد الحق من جميع الناس كافية. والحمد لله على توفيقه، ونشكره على تسديده، وكذلك يقول المحقون، لا ما قال، في الله، المبطلون: أنه

---

(١) عبارة ب: طبعت ويحك عندهم وأفسدته وطرحته بما طبعته في أعينهم.

(٢) الدغل: من معانيه: الخيانة والوشاية، والغيلة، والفساد، والحقد الباطن، والتماس العيوب.

(٣) محمد: ٣٢.

(٤) من معاني التكمة: أن يصير صاحبه أعمى، أو أعشى، أو ذاهب العقل، أو لا يدري وجهته التي هو موليها.

سبحانه، ختم على الأسماع فلا تسمع وعلى الأبصار فلا تنفع ، وأنه على قلوب الكافرين طبع ، ثم أمرهم بخلاف ما فعل بهم ، وكلفهم فعل ما منه منعهم ، وعنه ، سبحانه ، حجزهم ، ثم عذبهم على ترك ما لا يقدرون على فعله لما قد حجزهم عنه به من طبعه وختمه ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وخسر المبطلون خسراناً مبيناً .

تم جواب مسألته

المسألة الرابعة عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن الزيادة، فقال: خبرونا عن الزيادة، فان الله يقول: **﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾**[1]، وقوله لقوم: **﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾**[2]، ألستم تعلمون أن الله زادها مرضاً، ومد آخرين في طغيانهم يعمهون، وأعقب قوماً نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه؟ فإن قالوا: نعم، ولكنه صنع ذلك بهم عقوبة بذنوبهم، فيقال لهم: «نعم»[3] أفيسوا معذورين بما عملوا من معصية حين فعل بهم ذلك؟ فإن قالوا: لا، فقل: فقد دخلتم فيما عبتم إذ زعمتم أن الله يعذب قوماً على ما لم يستطيعوا تركه لأنه فعل ذلك بهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله «سبحانه»[4] وتوهم فيه من التجوير له في فعله، فقال: خبرونا عن الزيادة التي ذكرها الله، سبحانه وعظم عن كل شأن شأنه، حين يقول سبحانه: **﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾**، وعن قول

---

(١) البقرة: ٩.

(٢) التوبة: ٧٦.

(٣) في أ، ب: فنعم.

(٤) غير موجودة في ب.

الله سبحانه: ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾.

فسنجيب، ان شاء الله في ذلك من الجواب بما يقبله ذَوُوا الإنصاف والالباب، فنقول في ذلك على الله سبحانه بالصواب:

فأما قوله، سبحانه: ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ فهم المنافقون الذين يحتجرون[1] من الرسول ومن المؤمنين بانتحال الإيمان وتلاوة ما أنزل من القرآن، وقلوبهم لذلك منكرة، وفي دين الله فاجرة، وبه، سبحانه، كافرة، فهم يراءون بألسنتهم الرسول مخافة القتل والتنكيل، وهم عن الله بضمائرهم حائدون، وللحق بينهم وفي سرائرهم معاندون، ألا تسمع كيف يقول فيهم، ويدل بصفاتهم عليهم، حين يقول: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾[2]، وقال، سبحانه، يخبر عنهم بما هم فيه وما يجتمعون في خلواتهم من المشاقة عليه: ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾[3]، ومن ذلك ما قال، سبحانه، في الأعراب: ﴿ **قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً، إن الله غفور رحيم** ﴾[4]، ومن قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ما يقول الله، سبحانه: ﴿ **سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم** ﴾[5]، فأخبر الله عنهم بما كان من كذبهم فيما ذكروا أنه شغلهم، وأخبر بنفاقهم وتوهمهم، وما وهموا نبيه، صلى الله عليه وآله، من إحقاقهم فيما طلبوا منه من الاستغفار لهم والصفح في ذلك عنهم، فأمره الله، سبحانه، أن يخبرهم أن استغفاره لهم غير دافع عقوبة الله عنهم إذا أراد الله الانتقام في ذلك منهم، فقال،

---

(١) أي يستترون ويتخفون.
(٢) البقرة: ١٤.
(٣) البقرة: ٧٦.
(٤) الحجرات: ١٣.
(٥) الفتح: ١١.

سبحانه: ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً، بل كان الله بما تعملون خبيراً** ﴾، ثم أخبر نبيه، صلى الله عليه وآله، عن أمورهم بما كانوا يتوهمون أنه قد «خفي»[1] عليه علمه مما كانوا ظنوه وأجَنّوه في صدورهم، فقال ذو المعارج والجلال: ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وزين ذلك في قلوبكم، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾[2]، فأخبرهم، سبحانه، بما ظنوا من الظن القبيح في الرسول والمؤمنين وتوهموا، وما زين في قلوبهم الشيطان من ذلك وأملى، وأنهم كانوا في ذلك قوماً بوراً.

وأما قوله، جل جلاله وتقدس عن «أن» يحويه قول[3] ويشبهه شيء أو يناله: ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ فقد تخرج على معنيين، وكلاهما، ان شاء الله، للحق مضاف.

فأما أحدهما فأن يكون المرض الذي في قلوبهم هو الشك الذي هم فيه يلعبون من حجدانهم لما يرون من آيات ربهم، فقلوبهم لذلك مريضة فلا يؤدون لله، سبحانه، من فرائضه فريضة، فهم في شكهم ولعبهم يترددون وفي «خطيئاتهم»[4] و«طمياء»[5] حيرتهم يعمهون، كما قال، سبحانه: ﴿ **بل هم في شك يلعبون** ﴾[6]، فقد تكون زيادة الله لهم من المرض الذي ذكر أنه في قلوبهم لشكهم وضلالهم هو بما يزيد نبيه، صلى الله عليه وآله، من الوحي والبرهان وتنزيل ما نزل من القرآن الذي به مرضت قلوبهم ومنه دويت صدورهم، فكلمازاد الله منه نبيه تبياناً وعلماً وفضلاً وحكماً إزداد لذلك مرض قلوبهم تراكماً وزادهم الله بتنزيل الحق غيظاً وغماً، وقد يكون ذلك المرض حل في قلوبهم لشدة الحسد منهم لنبيهم، صلى الله عليه وآله، على ما جعل الله من البركات واليمن في كل الحالات لديه، ولما خصه الله به دونهم وآثره به، سبحانه، عليهم من هبوط الملائكة نحوه، وما عظم به الله له خطره وقدره، فجعله له صفياً، يوحي إليه وينزل إليه وحيه بفرائضه عليه، وما خصه به من أن جعل طاعته له طاعة، ومعصيته له

---

(١) في ب: غبي.
(٢) الفتح: ١٢.
(٣) عبارة ب: عن يشبه شيء أو يتاله.
(٤) عير موجودة في ب.
(٥) غير واضحة في الأصل.
(٦) الدخان: ٩

معصية، فقال: ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[1]، وقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾[2]، وقال، سبحانه: ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[3]، وقال: ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾[4].

فلما أن رأت قريش هذه الكرامات البينات النيرات التي لا يقدرون على دفعها ولا يأتون أبداً بمثلها، اشتد لذلك حسدها لرسول العالمين وعهدوا[5] عليه وعلى من معه من المؤمنين، فمنعه الله منهم، ورد حسدهم وبغيهم في نحورهم، فنصبوا له المحاربة وطالبوه أشد المطالبة، فردهم الله بغيظهم، كما قال سبحانه: ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾[6]، وذلك حين تحزبت قريش والعرب وطلبوا رسول الله صلى الله عليه وآله، غاية الطلب، فكفاه الله في ذلك اليوم والمسلمين القتال بأخيه ووصيه[7] علي بن أبي طالب أفضل المستشهدين، فقتل عمرو بن عبد ود[8] اللعين، وكان

---

(١) النساء: ٨.
(٢) النساء: ٥٩، ومحمد: ٣٣.
(٣) الحشر: ٧.
(٤) الفتح: ١٧.
(٥) أي تحالفوا وتعاقدوا، والمراد بذلك حلف قريش والعرب في غزوة الاحزاب.
(٦) الاحزاب: ٢٥.
(٧) وتعبير «وصيه» يعكس وجهه نظر الشيعة القائلين بالوصية من الرسول لعلي بن أبي طالب بإمارة المؤمنين من بعده، والمؤلف زيدي، يرى، كالزبدية، ثبوت الوصية.
(٨) وهو من بني عامر بن لؤي، وكان أحد أربعة اقتحموا الخندق على المسلمين يوم غزوة الأحزاب من إحدى الثغرات، والثلاثة الاخرون هم: عكرمة بن أبي جبل، وهبيرة بن ابي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري وعندما نازله علي «ثار النقع بينهما حتى حال دونهما، فما انجلى النقع حتى رؤي علي على صدر عمرو يقطع رأسه. فلما رأى أصحابه أنه قد قتله علي اقتحموا بخيلهم الثغرة منهزمين هاربين، وقال علي، رضي الله عنه، في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رايه ونصرت دين محمد بصراب
لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الاحزاب
نازلته وتركته متجدلا كالجذع بين دكادك وروابي»

(والمتجدل: اللاصق بالأرض، والدكادك: الرمل اللين، والروابي: التلال).
راجع (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر ص ١٨٥، ١٨٦، تحقيق. شوقي ضيف. ط. القاهرة سنة ١٩٦٦م.

عماد المشركين وفارس المتحزبين، فانهزم بقتله جميع الكافرين، وفل الله حد المبطلين، وأظهر دعوة المحقين، ونصر رسوله خاتم النبيين، وكبت أعداءه المحادين، قال، سبحانه: ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم، وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين** ﴾[1] فلما أن أذلهم وهزمهم وكبتهم كما كبت الذين من قبلهم تدارك[2] الكبت في قلوبهم وترادفت الحسرات في صدورهم ومرضت لذلك وبه منهم القلوب وأحاطت به منهم الذنوب، فهم في كل يوم يرون من نصر الله لنبيه ويسمعون عنه ما يزيدهم حسداً، ويحدث لهم في قلوبهم مرضاً، حتى صدق الله رسوله الرؤيا بالحق التي كانت في غزوة الحديبية، أراه وأكمل له من دخول مكة آمناً لا يخاف رصاداً، فنزل بالمشركين من ذلك ما كانوا يخافون، وحقق الله لرسوله ما كانوا يحذرون ومن بغى عليه، لينصرنه الله أن الله لقوي عزيز.

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتان من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾، فقد يمكن أن الله سبحانه، لما أن كذبوه وأخلفوه خذلهم، ومن الارشاد والتوفيق تركهم، فتكمَّهوا في ضلالهم وارتكبوا من أعمالهم، فأعقبهم كثرة ضلالهم وعظيم إجترائهم على قول الزور والبهتان، وارتكاب الضلال والعصيان تمادياً في ذلك حتى مردوا على الكذب والفساد والنفاق وقول المحال والإلحاد، فيجوز أن يقال: أعقبهم الله نفاقاً إذ تركهم من التوفيق والتسديد والتحقيق حتى غلب عليهم الهوى، ورفضوا الخير والهدى، واستعملوا بينهم النفاق في كل أمرهم، فعادوا منافقين، وللرشد تاركين، ينافق بعضهم بعضاً، ويفرضه في العيب له فرضاً[3]، وقد يكون الذين أعقبهم في قلوبهم النفاق هو فعلهم وكذبهم وغدرهم في موعدهم الذي أوجبوه لخالقهم، وذلك أن الكذب والردى يجر بعضه بعضاً، فلما أن كذبوا فيما قالوا ووعدوا خالقهم من أنفسهم فأخلفوا كانوا لغيره فيما يعدون

---

(١) المجادلة: ٥.
(٢) أي تلاحق وتتابع.
(٣) أي يقطعه قطعاً. والفرض أحد معانيه: الحز والقطع.

أخلف، ولسواه، سبحانه، أكذب، فكاذَبوا بيناتهم وأبطلوا بالزور قالاتهم، فدعت حالةٌ حالةً، حتى تكمهوا في الغي والضلالة، ودعا ما كان منهم أولاً من الكذب والإخلاف إلى قلة الصدق والانصاف، فحل بينهم التضاغن وذهب عنهم الائتلاف، فعاد كل منافق في قوله غير صادق، فكأن الذي أعقبهم النفاق آخراً هو فعلهم للكذب والإخلاف أولاً، فجر فعل الضغائن إلى ارتكاب موبقات الكبائر حتى صار ذلك لهم عادات، وكان لهم وعليهم علامات يعرفون بها دون غيرهم ودلالات، فهذا أيضاً معنى يصح في اللسان ويعرفه من كان ذا بيان. والحمد لله ذي الجلال والبرهان والجبروت والسلطان.

وأما ما سأل عنه من معنى قول الله سبحانه: ﴿ **إلى يوم يلقونه** ﴾، فقد يمكن أن يكون المعنيُّ باللقاء هو الله الرحمن الأعلى، يريد بقوله: «يلقونه»، أي يلقون حكمه ويعاينوه، وقد يكون الذي «يلقونه»[1] ما تقدم من عملهم ومضي، فيعاينوه في الآخرة يوم الحساب ويجدونه عند الله مثبتاً في الكتاب، كما قال، سبحانه: ﴿ **إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[2]، وقال: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**[3]، يقول، سبحانه: يرى جَزَاءً جَزَاءً، ويعاين ما حكم عليه به من الخير والثواب والعذاب والعقاب، فيكون لقاؤهم لأعمالهم هو توقيف الله لهم على القليل والكثير من أفعالهم، وما يكون منه، سبحانه، على ذلك من جزائهم، فيلقى المحسنون ما وعدهم الله في إحسانهم ذلك من الثواب ويلقى المجرمون ما وعدهم من العقاب.

تم جواب مسألته

(١) في ب: يلقاهو.
(٢) يس: ١٢.
(٣) الزلزلة: ٧.

المسألة الخامسة عشرة

ثم أتبع ذلك «الحسن بن محمد»[1] المسألة عن ما صنع الله بعباده، فقال: خبرونا عما صنع الله بالعباد، هل يعذبهم عليه؟ فإن قالوا: لا، فقل: خبرونا عمن زاده الله كفراً، ومده في طغيانه، وأعقبه النفاق في قلبه هل يعذبه عليه؟ فان قالوا: نعم، فقد دخلوا فيما يعيبون، وان قالوا: لا، فقد زعمتم أن الله لا يعذب من كان على الكفر، ولا يضر من كان عليه، وأنتم تزعمون أن الله إنما صنع ذلك عقوبة لهم، وسلهم: هل استطاع هؤلاء التَّرك لما صنع الله بهم، والخروج منه؟ فإن قالوا: لا، فقد أجابوا، وإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله، وخالفوا قول الله، إذ يقول: ﴿ **فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾، فقول الله، بزعمهم، باطل في قوله: ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾[2]، تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه مما إلتبس عليه، فتعسف بقول الزور فيه، فقال: أخبرونا وبما عندكم نبئونا عن قول الله، سبحانه: ﴿ **ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾[3]، وفيما صنع الله بالعباد، تقولون: هل يعذبهم على ما فيه أدخلهم وعليه جبرهم؟

فلعمري، لقد تقدم في ذلك الجواب، وقلنا فيه، إن شاء الله، بالصواب، ولا بد أن نقول فيما سأل عنه في هذا الجواب، نأتي على شرحه، إن شاء الله، بشرح شاف، فنقول:

---

(١) سقطت من أ.

(٢) الانعام: ١١٠.

(٣) البقرة: ٧.

إن معنى قوله، سبحانه: ﴿ **ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ هو تركه توفيقه وتسديده وعونه ولطفه وتأييده، لما خرجوا من طاعته وارتكبوا بطغيانهم من معصيته، فولى بعضهم بعضاً، ولم يقم لهم، سبحانه، أمراً، كما قال سبحانه: ﴿ **وكيف نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** ﴾[1]، فلم يبرأ سبحانه منهم، ويكلهم إلى أنفسهم، جل وعظم شأنه، إلا من بعد أن تولوا وكفروا وتعدوا واستوجبوا منه الحد، لأن بما تمادوا فيه من الطغيان كما يستوجب الرشد والتوفيق بالطاعة منه المؤمنون ويستأهل بالاهتداء منه والزيادة في الهدى المهتدون، كما قال أحكم الحاكمين وأصدق القائلين: ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾[2] فأخبرنا سبحانه أنه ولي المتقين، مجانب خاذل للفاسقين، وكذلك قال سبحانه رب العالمين: ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾[3]، يريد، سبحانه، أنه ولي الذين آمنوا والمتولي في كل الأسباب لهم، وأنه الخاذل للكافرين والتارك لتأييدهم، الرافض لتوفيقهم وتسديدهم، ألا ترى كيف يقول ويخبر بتأييده وصنعه وتسديده ولطفه للمؤمنين، وتخليته بين المؤمنين والكافرين وممن أطغاهم من الطاغوت والطواغيت، فهم الذين أجابوا إلى دعاتهم واتبعوهم في أهوائهم من مستجيبي الشيطان وأبالسة الإنس الملاعين الذين أطغوهم واستهووهم في الردى والطغيان، ومنوهم مع الإقامة على ذلك، من الله الغفران، قال الله، سبحانه: ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[4].

وأما ما قال وعنه سأل فقال: هل يعذب الله أحداً على فعله به؟ أم يقدر الخلق على الخروج مما أدخلهم، جل جلاله، فيه؟

فقولنا في ذلك على الله بما تقدم من شرحنا «له»[5] من أن الله جل جلاله أعز وأكرم وأرأف وأرحم وأحلم من أن يدخل عباده في سبب من الأسباب أراده ثم يعذبهم عليه ويعاقبهم فيه، إن هذا ألا جور الجور من الفعل، وأنه من فاعله

(١) الأنعام: ١٢٩.
(٢) محمد: ١٧.
(٣) محمد: ١١.
(٤) البقرة: ٢٥٧.
(٥) غير موجودة في أ.

لأجهل الجهل، فلو كانت أفعاله لا تتم إلا بأفعالهم لكانت حاله في العجز كحالهم، ولكان مضطراً إلى خلقهم وإيجادهم، إذ لا يتم له فعل إلا بأعمالهم، فلقد آتاهم إذاً نظراً منه لنفسه لا لهم، وضرورة الخالق إلى الخلق في فعله كضرورة الخلق إلى الخالق في أمره، فكل إلى غيره محتاج، وذلك «بين»[1] على قياسهم في المنهاج، ولو اشتبهت الحالات لاشتبهت، بلا شك، الذات، فسبحان من بان عن خلقه فليس له حد ينال ولا مثل يضرب له به الأمثال، الذي بان من كل فعل فعله وجل عن كل قول قوله.

وأما ما قال من قوله: هل يقدر الخلق على أن يخرجوا مما أدخلهم الله فيه وصنعه بهم؟ فإن إدخال الله وصنعه بالعباد يكون على معنيين كليهما متضادين، أحدهما: إدخال حكم وأمر وافتراض منه، معه تمكين واختيار، لم يرد الله أن يدخلهم فيه جبراً، بل أراد أن يدخلوا اختياراً بما ركب فيهم وأعطاهم من الآلات والاستطاعات، ليكمل لهم الثواب على الطاعات، ولو أدخل قوماً في الطاعة وأدخل آخرين في المعصية ثم أثاب وعاقب لكان على «غير»[2] فعلهم عاقب وأثاب، جل الله عن ذلك رب الأرباب. فهم قادرون على الخروج من هذا الفعل على ما ذكرنا من تمكين الله الواحد الأعلى.

وأما المعنى «الثاني»[3] الذي أدخلهم فيه وصنعه بهم، فهو ما خلقهم عليه وصورهم من الخلقة وقومهم عليه من الفطرة من الأجسام والعروق والعصب والعظام والأسماع والأبصار، وما عليه الجن من السرعة والذهاب في الهواء، وما خلق عليه الآدميين من الثقل و«الخفة»[4]، فلا يقدر جِنِّيٌّ يزيح ما فيه من الخفة فيثقل، ولا آدمي عن الثقل إلا الخفة يرحل، وكذلك لا يقدرون على الخروج من سواد إلى بياض، ولا من بياض إلى سواد، ولا من قصر إلى طول، ولا من طول إلى قصر، فهذا ما لا يقدر عليه الخلق ولا ينالونه، وذلك أن الله خلقهم وجبلهم عليه فلم يزدادوا من محبوبه ولم ينقصوا من مكروهه.

تم جواب مسألته[5]

---

(١) في أ، ب: فبين.
(٢) في ب: غيره.
(٣) في ب: الأخر.
(٤) في أ، ب: الخفاء.
(٥) غير موجودة في ب.

المسألة السادسة عشرة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، عن قول الله، سبحانه: ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم**﴾[1]، أليس إنما يريد الغنيمة أو المشركين وغلبتهم النصر؟، فإن قالوا: نعم، فقل: هل كانوا يقدرون على أن لا يقاتلوا ولا يخرجوا إلى القتال؟، فإن قالوا: نعم، فقد زعموا أنهم كانوا يقدرون على أن يخلف الله وعده الذي وعده رسوله، وهذا قول عظيم يدخلهم في أعظم مما كرهوا، وإن زعموا أنهم لم يكونوا يقدرون على أن يخرجوا للقتال، لا المؤمنون ولا الكافرون، أقروا بما كرهوا، فإن الله قد أراد أن يقاتل المؤمنون الكافرين وأن يقاتل الكافرون المؤمنين، وأن الفريقين لم يكونوا يستطيعون التخلف ولا الترك للقتال حتى ينجز الله وعده ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ويوهن كيدهم، وكذلك أراد بالفريقين جميعاً، وقد كان فيما صنع الله بالفريقين يوم بدر بينة لنبيه وبرهان، وذلك أن الله، سبحانه، لم يكل المؤمنين إلى ما زعم الجهال المكذبون أن الله جعل في العباد استطاعة ثم وكلهم إليها، فلم يرض حتى أيدهم بنصره وأمدهم بملائكته ثم أجرهم على صبرهم على البأس، وهو صبَّرهم وأجرهم على الثبات، وهو ثبتهم وأجرهم على ائتلافهم، وهو ألف بينهم وأجرهم على صرامتهم، وهو ربط على قلوبهم وأجرهم على ظفرهم، وهو ألقى الرعب في قلوب عدوهم، وهذا كله خلاف لقولهم ورد عليهم فجعل غلبة المؤمنين الكافرين نصراً وعزاً وتأييداً، وجعل غلبة الكافرين دُولة بلاء وإملاء فأنزل في قتال المؤمنين الكافرين بأحد[2]: ﴿ **فأثابكم غماً**

(١) الأنفال: ٧.

(٢) مكان على جبل، يقع عند شفير الوادي في مقابله المدينة، وكانت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، راجع (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر ص ١٥٣ - ١٦٦، وهنا في الأصل عبارة زائدة هي: إلى المشركين من المؤمنين.

بغم﴾، أما الغم الأول فالهزيمة والقتل، وأما الغم الآخر قال الله تعالى: ﴿«**لكيلا تحزنوا على ما فاتكم**» من الغنيمة، «**ولا ما أصابكم**﴾ يعني من قتل من إخوانكم﴾ قال: ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾[1] فإن قالوا: إن الله إنما فعل بذنوبهم ومعصيتهم، قيل: فإنه إنما عصى منهم نفر يسير وهم الرماة، نحو من خمسين رجلاً، فقد عم ذلك البلاء جميع المؤمنين حتى وصل إلى نبي الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فشج في وجهه وكسرت رباعيته، وقد كان المسلمون يوم أحد سبعمائة أو يزيدون، فأخبر الله أنه صنع ذلك بهم فأثابهم غماً بغم، أفليس الله قد أراد أن يصيبهم ذلك بأيدي الكافرين، ولأن ينهزموا، وأن يقتل من قتل منهم، ثم أخبر أيضاً بما صنع بهم بعد الذي كان منه إليهم من الغم، فقال: ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء**﴾[2]، قال الله لنبيه: ﴿**قل إن الأمر كله لله**﴾[3]، ثم قال: ﴿**يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك**﴾. فأخبر عما أخفوا في أنفسهم، فقال: ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا**﴾، يقولون: لو كنا في بيوتنا ما أصابنا القتل، قال الله، تكذيباً لهم: ﴿**قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم**﴾، فأخبر أنه قد كتب القتل على قوم قبل أن يقتلوا، وجعل لهم مضاجع إليها يصيرون، ثم نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأن يظنوا بالله كظنهم، فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير**﴾[4]، وقال في غلبة الكافرين المؤمنين وهزيمة المؤمنين، فقال: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين**﴾[5]، وقال: ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا**﴾[6] في آي كثيرة يخبر أن الأمر كله منه، وهو يدبر أمر خلقه، ويصرفهم كيف

---

(١) آل عمران: ١٥٣.
(٢) آل عمران: ١٥٤.
(٣) آل عمران: ١٥٤.
(٤) آل عمران: ١٥٥.
(٥) آل عمران: ١٤٠.
(٦) آل عمران: ١٦٦.

يشاء، وأخبر أن الذي أصاب المؤمنين يوم أحد إنما كان بإذن الله من قتل الكافرين إياهم وهزيمتهم لهم، حتى قتل منهم سبعون رجلاً، وأنتم تزعمون أنه لم يأذن في المعاصي وأنها لا تكون بإذنه، ولكن الإذن قد يكون على معنيين: أما أحدهما فيكون أمراً منه يأمر به، والآخر يكون إذناً على وجه الإرادة، أنه أراد أن يكون، لأنه فعال لما يريد، ثم قد عيَّر الذين قالوا لإخوانهم: ﴿**إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**﴾، وكذبهم وأخبر بما قد سبق منه لهم وما قد كتب عليهم، وعير الذين قالوا: ﴿**لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا**﴾ فكذبهم الله لما قالوا من ذلك.

فلو تدبرتم كتاب الله وآمنتم بما فيه ما عارضتم أمور الله تعالى ولا عبتم «ولفهمتم قضاءه»(١)، تردون عليهم، برأيكم، أمره، وتعقبون حكمه، وتظلمون عدله، وتقولون «إنه»(٢) فعل بخلقه شيئاً ثم عذبهم عليه بما صنع بهم فقد ظلمهم، فسبحان الله ما أعظم قولكم وأضعف رأيكم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من القتال، فقال: هل أراد الله من المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين؟ ومن الكافرين أن يقاتلوا المؤمنين؟ أم أراده من المؤمنين دون الكافرين «بذلك»؟(٣).

«ولله الشكر»(٤) نقول، وإليه أمورنا تؤول فنقول: إن الله شرع حقاً وأوجب صدقاً، فدعا إليه الناس، وكشف عنهم به الالتباس، ثم أوجب على الخلق كلهم الدخول فيه والمقاتلة عليه، فكل من كان على «ما»(٥) شِرْعة الله «تعالى»(٦) من الحق فقد أراد الله منه مقاتلة من خالف عنه من الخلق، وإنما أراد، سبحانه، من عباده أن يقاتلوا على ما رضيه من دينه، فأما ما لم يرده من أفعال الكافرين ولم يشرعه ولم يرضه من عبادة أصنام المشركين، فكيف يريد من أصحابه القتال عليه، وقد

---

(١) في ب: ولا عبتم قضاؤه.
(٢) في ب: أنه.
(٣) في أ: فبذلك.
(٤) في أ: ولله الحمد.
(٥) سقطت من ب.
(٦) سقطت من ب .

كرهه منهم، وذمهم على المقام فيه، ودعاهم إلى الخروج منه، وقد علم كل من كان له علم وآتاه الله شيئاً من فهم الحكمة أن المشركين عن آلهتهم كانوا يدافعون وعن دينهم يقاتلون وعلى ما كان آباؤهم من القتال يثابرون، فإن كان الله أراد منهم ذلك، وجعلهم فيه كذلك، فقد ارتضاه، وعلى الأديان كلها اصطفاه، كما ارتضى الذي بعث به خاتم النبيين وأراده، وأمر بالقتال عليه المؤمنين، فإن قالوا: ارتضاه وأراده وأمر بالقتال عليه عباده، كفروا بالرحمن وتابعوا قول الشيطان، وإن قالوا: بل سخطه وسبه، وأمرهم لإشقائهم بالمقاتلة عليه، فقد سووا عنده بين ما ارتضاه وبين ما سخطه أو أباه، وهل يأمر بحياطة ما لا يريد إلا الجاهل غير الرشيد؟! فإن كان حكم عليهم بعمل الردى لما أراد بهم بزعمهم، من الشقاء، فعلى ماذا يعذبهم ويشقيهم وفي الحميم يصليهم، وهم له طائعون وفي إرادته منهم متصرفون؟! أهذا عندهم من صواب الحكيم، العدل في فعله الرحيم؟!، بل هذا من فعال الجائرين، وأعظم ما عاب، سبحانه، من اعتداء الظالمين. فلا يجدون بداً من أن ينسبوا إلى الله التجهيل والظلم والتعدي والجور الجليل، أو يدخلوا في الحق ويرجعوا إلى الصدق، فيقولوا: إن الله أمر وأراد حياطة ما ارتضى، وكره ونهى عن حياطة ما لم يشأ.

وأما ما ذكر من قول الله «عز وجل»[1]: **﴿وإذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم، إنه عليم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً، ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً﴾**[2]، فقال وتوهم أن هذا الأمر المفعول الذي يقضيه الله، هو قضاؤه على الفريقين بالقتال والمزاحفة والاقتتال، وليس ذلك «ولله الحمد»[3] على ما قال، ولا على ما توهم من المحال، أن الله يقضي على الكافرين بقتال المؤمنين، ولا أنه يقلل المؤمنين في أعين الكافرين تشجيعاً منه لهم على قتال المؤمنين وتأييداً بذلك لهم على المهتدين، ولكن قللهم في أعينهم لكيلا يروهم بحالة الكثرة مع ما في قلوبهم من هيبة الروعة فيهزموا ويذهبوا ويرجعوا ولا يقاتلوا،

---

(١) في ب: جل وعز.
(٢) الأنفال: ٤٣.
(٣) في أ: والحمد لله.

فكان ذلك خذلاناً لهم وحرباً عليهم، وقللهم في أعين المؤمنين لكيلا يروهم على الكثرة التي كانوا عليها فيهابوا ويخافوا، فقللهم في أعينهم تأييداً منه لهم، ومعونة وإحساناً إليهم، فأما قوله: ﴿ **ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** ﴾ فمعناه: ليقضي الله وعداً كان منجزاً، وهو ما وعد رسوله والمؤمنين من النصر إذا نصروه والتسديد لهم إذا قصدوه.

ألا تسمع كيف يقول: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1]، ويقول: ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾[2]، فقضى، تبارك وتعالى، لرسوله وللمؤمنين، عند الالتقاء، بما وعدهم من النصر، وفعل لهم بما ضمن فعله من الأمر، وتغنيمهم ما وعدهم من إحدى الطائفتين: طائفة الجيش، وطائفة العير، فغنمهم الله طائفة الجيش كما وعدهم من الأمر واتخاذ ما وعد المؤمنين من النصر على الكافرين، فهو الأمر الذي ذكر الله أنه كان مفعولاً، لا ما يتوهم أهل هذا القول الفاسد المخذول.

وأما قوله: ﴿ **هو الذي أيدكم بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم** ﴾[3]، فنصر الله رسوله، كما قال، سبحانه: ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾[4] فألف الله على ذلك بين المؤمنين، لا كما ظن الحسن بن محمد وأصحابه أهل العمى والقول بالردى: أن التأليف من الله كان بين الكافرين والمؤمنين في القتال، وأنه ساق بعضهم إلى بعض جبراً حتى ألف بينهم للقتال، وهذا «أحول»[5] المحال، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ألا ترون كيف قال: ﴿ **أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ و﴿ **ألف بين قلوبهم** ﴾، فرد اسم المضمر في الهاء والميم من «قلوبهم» على الاسم الظاهر من «المؤمنين»؟، فسبحان أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

---

(١) محمد: ٧.
(٢) الحج: ٤٠.
(٣) الأنفال: ٦٢.
(٤) الفتح: ٢٦.
(٥) في أ، ب: فاحول.

وأما ما سأل عنه من قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾[1]، وقال: لو لم يخرج المشركون، أليس كان يبطل وعد الله لنبيه وللمؤمنين؟ فقولنا في ذلك: أن الله، سبحانه، وعد نبيه، كما قال، إحدى الطائفتين، طائفة العير وطائفة الجيش المستعير، وأن الله لم يجبر الفاسقين على الخروج إلى قتال المؤمنين، بل عن ذلك نهاهم، وإلى طاعته وطاعة رسوله دعاهم، فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون**﴾[2]، ونقول: لو أطاعوا الله فيما أمرهم لم يخرجوا لمحاربة الحق ولم ينصبوا.

فأما ما قال من أن ذلك لو كان «لبطل»[3] وعد الله أهل الإيمان، الذي وعدهم من الغنيمة والإحسان، فليس ذلك كما قال أهل الجهالة والعمى والضلال، ولكن الله سبحانه، علم أنهم سيخرجون، وعلى الحق والمحقين سيبغون، فلما أن علم ما يكون من اختيارهم حكم بما علم منهم عليهم، وبشر رسول الله صلى الله عليه وآله، بما سيسوق من الغنيمة والنصر إليه، ولو علم منهم اختيار المقام لما وعد غنائمهم نبيه، صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أن خرجوا، وعلى الله ورسوله أجلبوا، خذلهم سبحانه وأخزاهم وأذلهم وأرادهم، وألقى الرعب في قلوبهم كما قال، سبحانه: ﴿**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾[4]، فأرداهم ،ونصر المؤمنين، وأعز، بتأييده، الدين، وكبت الكافرين، فأتاهم بالسيف قتلاً، وشتت أمرهم وجمعهم هزيمة وأسراً، وأنزل الملائكة المقربين مدداً للمؤمنين، واعزازاً للحق والمحقين، فزادهم قوة إلى قوتهم المركبة الثابتة فيهم.

وأما ما سأل عنه وقال وتوهم من المحال في قول الله، تبارك وتعالى: ﴿**فأثابكم غماً بغم**﴾، و«أن»[5] ذلك الغم هو غمهم «يوم حنين»[6] حين أدال المشركين على النبي والمؤمنين، فغلط وأخطأ في ذلك، ولم يكن، ولله الحمد

---

(١) الانفال: ٧.

(٢) الأنفال: ٢٠.

(٣) في أ: يبطل.

(٤) آل عمران: ١٥١.

(٥) غير موجودة في الاصل.

(٦) سقطت من ب.

كذلك، ولم يدل الله الكافرين على المؤمنين، لأن الإدالة هي معونة وتأييد ونصر وتسديد، ولم يقل مؤمن بالله: إن الله نصر في ذلك اليوم أعداءه على أوليائه «ولا نصر»[١] جيش أبي سفيان «اللعين»[٢] على جيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الله أراد بالمؤمنين المحنة والبلاء حتى يعلم الله أهل الصبر والإحتساب والتقى، ألا تسمع كيف قال الله: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**﴾[٣]، فنصرهم في أول الأمر وأراهم ما يحبون، فخالفوا نبيه وعصوه في تنحيهم عن باب الشِّعْب الذي أوقفهم عليه وأمرهم أن يرموا من صار من المشركين إليه، فلما رأوا الهزيمة على المشركين قد أقبلت، وتيقنوا أنها بهم قد حلت، طمعوا فيما يطمع فيه مثلهم من الغنائم، ورجوا أن يكون شدهم على الكفار مع أصحابهم، أصلح، وفي الأمر الذي يريدون أنجح، فزلوا وعصوا الرسول فيما أمرهم من الثبوت على باب الشعب، وكان ثباتهم عليه على المشركين أصعب، فلما أن تنحوا أمكن للكافرين ما أرادوا، فظفروا من المسلمين ببعض ما أحبوا، ثم لاقوا من بعد ذلك من نصر الله للحق ما كرهوا، فثبت الله من بعد ذلك المؤمنين، وغفر لأهل الخطيئة المذنبين، وأنزل عليهم السكينة، وغشاهم النعاس أمنة منه، كما قال الله سبحانه: ﴿**ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية الأولى، يقولون هل لنا من الأمر من شيء**﴾، قال الله، سبحانه، لنبيه، صلى الله عليه وآله: ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ ثم قال، سبحانه، «لنبيه»[٤]: ﴿**يخفون في أنفسهم، ما لا يبدون لك**﴾ ثم أخبر عما أخفوا، وما من المنكر أحيوا فقال: ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا**﴾، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، حين أتته قريش ونزلوا بأحد، شاور أصحابه، فأشاروا عليه بأن يثبت في المدينة، فإن أقاموا أضرهم المقام حتى ينصرفوا، وإن صاروا إلى المدينة فدخلوا، قاتلهم بها الصغير والكبير والنساء من فوق البيوت، فأراد ذلك رسول

---

(١) في أ: أعان.

(٢) سقطت من أ.

(٣) محمد: ٣١.

(٤) سقطت من أ.

الله، صلى الله عليه وآله، ثم أشاروا عليه من بعد بالخروج إليهم، فنهض فلبس لأمَتَه[1] ثم خرج عليهم، فقالوا: يا رسول الله، قد رأينا رأياً، إنا لم نقاتل ببلدنا وبين دورنا أحداً إلا أظهرنا الله عليه وبلغنا فيه ما نريد، فأقم بنا مكاننا على رأينا الأول، فقال رسول الله، صلى الله عليه وآله، «كان هذا أولاً، إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتى يقاتل عدوه»، فخرج وخرج معه ألف من الناس، فلما فصل من المدينة رجع عنه عبد الله بن أبي سلول، رأس المنافقين، في ثلثمائة من الفاسقين، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى لقي القوم، فكان من أمرهم ما ذكرنا ومن حالهم ما شرحنا، فذلك قولهم: **﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾** نقول[2]: لو أطاعنا وكان الرأي إلينا لكنا قد ثبتنا في بلدنا حتى يدخلوا علينا فنقاتلهم ويرجعوا عنا فنتبعهم، فقال سبحانه: **﴿ قل إن الأمر كله لله﴾**، أي الأمر أمر نبيه الذي افترض عليكم طاعته، فليس لأحد منكم سبيل إلى مخالفته إلا بالكفر والعصيان للواحد العزيز الرحمن، ثم أعلاهم من بعد تلك اليقظة وأنزل عليهم الأمنة ورد إليهم النصر وشد لهم ما أضعفوه من الأمر وصرف عنهم أعداءهم لأن يدركوا كل ما طلبوا أو طمعوا به فيهم من القوة والظهور عليهم.

وأما ما ضل فيه من قوله: **﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم﴾**، فقال: إن الله كتب على الكافرين قتل المؤمنين، وكتب على المؤمنين ظهور الكافرين وقتلهم إياهم، فتوهم أن الكتاب من الله هو حتم وفعل فيهم «وقضاء»[3] كائن قضى به عليهم، ولو كان ذلك كما ظن الحسن بن محمد لكان المشركون لله مطيعين ولأمره وقضائه منفذين، ولم يكن عليهم في ذلك إثم، ولا عند الله جرم، بل كانوا في ذلك مثابين وعليه غير معاقبين، ولم يكن المؤمنون بمثابين إذ الله فعل بهم ذلك من القتل وقضاه عليهم، وكل في الطاعة له سواء، تبارك عن ذلك العلي الأعلى.

فأما وجه الحق في ذلك، ومعنى قول الله، سبحانه: **﴿كتب عليهم﴾**، هو علم منهم لا أنه أكرههم ولا قضى عليهم، ولكن علم من يختار الخروج ولقاء

---

(١) درعه، وجمعها لام ولؤم بفتح الهمزة.

(٢) الفاعل هنا ضمير يعود على المنافقين.

(٣) في ب: قضى.

الأعداء ومن يقتل عند التنازل واللقاء، فعِلْمُه وقع على اختيارهم، فخروجهم فعلهم لا فعله، وقتلهم فعل الكفار لا قضاؤه، فهم على خروجهم وقتالهم واجتهادهم مأجورون، وعند الله مستشهدون، والفسقة المشركون على قتلهم معاقبون، وعند الله في الآخرة معذبون، فكل نال بفعله من الله ما أوجبه عليه من الثواب والعقاب. والحمد لله رب الأرباب، والمجازي للخلق يوم الحساب.

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾، فقال، بزعمه، وتوهم، بجهله أن الله يديل أهل الكفر والعصيان على أهل الطاعة والإيمان، وأنه أدال يوم أحد المشركين على النبي ومن كان معه من المؤمنين، فليس ذلك كما ذهب إليه، وسنشرح ذلك، إن شاء الله تعالى، ونرد بالحق قوله عليه.

فنقول: إن الله جل جلاله، يديل المؤمنين على الكافرين، ولا يديل الكافرين على المهتدين، كذلك قال في يوم حنين: ﴿**ثم رددنا لكم الكرة عليهم**﴾[1]، فكان بِرَدِّه الكرة للموحدين هو المديل لهم على الكافرين، ولم يقل في شيء من كتابه وما نزله من آياته أنه أدال أهل الشرك والنفاق على أهل الدين والإحقاق.

***

فأما ما ذكر الله من المداولة بالأيام بين جميع الأنام، فإن مداولته للأيام هو إتيانه بالليل تارة وتارة بالنهار، وأما ما يأتي ويداول بين عباده وأرضه فيهما من الأمطار التي يحيي بها الأرضين ويعيش بها جميع العالمين، قال، سبحانه: ﴿**ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج**﴾[2]، فسقى اليوم قوماً هم إلى السقي يحتاجون، وسقى غداً آخرين، وما يحدث في الأيام من الأرزاق للعباد وإحياء ما شاء من البلاد وبالمداولة بالأيام بين الأنام ما نزل بهم من المصائب الهائلات، وما يمن به عليهم من الآلاء والنعم السابغات، من ذلك ما

---

(١) الاسراء: ٦.   (٢) ق: ٩ - ١١.

يأخذ من الأقارب والآباء والأخوة والأبناء وجماعة القربى، وما يهب، عز وجل، لمن يشاء من الأولاد الذكور وما يصرف ويدفع من الشرور، فهذه الأشياء كلها التي تكون في لياليه، سبحانه، وأيامه مداولة منه، لا شك، بين عباده، فأما ما يظن الجهال وأهل التَّكَمُّه في الضلال من أن معنى هذه الآية هو إدالة الفاسقين على الحق والمحقين، وأنه يمكن في الأرض للفاجرين ويمهد للفسقة العاصين «بما قد حرم عليهم ولم يجعله بحمد الله لهم بل شدده عليهم غاية التشديد في ترك مشاقة أهل الحق والتسديد، وأمر في ذلك بالاتباع لهم وترك الخلاف في جميع الأسباب عليهم»[1] «فهذا كذب منهم على رب العالمين، وكيف يجوز أن يديل ويمهد للعاصين»[2]، بل كيف يتوهم على الرحمن الكريم الواحد ذي الجلال العظيم أن يكون أدالهم وأعطاهم ما عنه زجرهم ونهاهم؟ فتبارك ذو السلطان المبين عن مقالة أهل الضلال الجاهلين. «والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم»[3].

تم جواب مسألته

(١، ٢) في أ: تقديم وتأخير بين العبارتين.

(٣) غير موجودة في ب.

المسألة السابعة عشرة

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله، عز وجل، ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾[1]، فقال: خبرونا عن الإذن، وإنكاركم أن يكون الله أذن في المعاصي، فقل: الإذن من الله على وجهين:

فإذن أذن فيه أمر بأمره، وإذن أذن فيه إرادة منه أن يكون لما يشاء من أمره، وما كان من معصية فلا تكون إلا بإذنه وكذلك أظنه، وذلك إرادة منه، فإن قالوا: نعم، فقد أقروا بنفاذ أمره وإرادته، وإن جحدوا وأنكروا، فإن الله قد أكذبهم في كتابه، فقال للمؤمنين: ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾، يعني بذلك ما أصابهم من القتل والهزيمة، وإنما كان ذلك تأييداً للكافرين، فقد آذن الله للكافرين أن ينالوهم بما أصابوهم من القتل والجراح والهزيمة، فإن زعموا أن اذن الله أمره فقد زعموا أن الله أمر بالمعاصي، وأمر المشركين أن يقتلوا المؤمنين، وكل مأمور إذا فعل ما أمر به فهو مطيع وله عليه أجر، والكتاب يكذبهم، وإن زعموا أن إرادته على وجهين: على وجه الأمر، والآخر على وجه الإرادة، فقد أقروا بالحق، وفي ذلك نقض لقولهم ورد عليهم، فقد زعموا أن الله يريد أن يكون ما لا يأمر به ولا يرضاه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما قال، وعنه «بجهالته»[2] سأل، من قول الله «تبارك و»[3] تعالى: ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله**﴾، فقال: إن ذلك عنده من الله إذن للكافرين

---

(١) آل عمران: ١٦٦.

(٢) غير موجودة في أ.

(٣) غير موجودة في ب.

فيما نالوه من الرسول والمؤمنين في يوم أحد من القتل، وما نالوا به حمزة، رحمه الله، من المثل[1]، وما نالوا به الرسول، صلى الله عليه وآله، من الجراح، وما اجترأوا على الله فيه وعليه من هشم وجنته وكسر رباعيته، فكيف يتوهم من كان له عقل وفهم يبين به عن الجهل، أن الله أذن لأعدائه في فعل ذلك بأوليائه؟ كذب من ظن ذلك وقال على الله بهتاناً وزوراً، وكانوا عنده، سبحانه، قوماً بوراً، وكيف يأذن للفاسقين في القتل والسواد على المؤمنين وهم الخيرة عنده من عباده أجمعين، بل الإذن منه للمؤمنين في قتل المشركين وقتالهم حتى يسلموا أو يفيئوا عن جهلهم وضلالهم، ألا تسمع كيف يقول سبحانه، للمؤمنين: ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**﴾[2]، ويقول: ﴿ **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة**﴾[3]، ويقول، سبحانه: ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾[4]، ففي كل ذلك يأمر المهتدين بقتال الضالين «المضلين»[5] وبقتل المحادين المشركين، فهل سمع الحسن بن محمد بشيء من كتاب الله، سبحانه، وأمره وإذنه للمؤمنين؟ وزجره أمراً منه للكافرين بقتال المؤمنين أو «حضاً»[6] لهم على المسلمين؟ بل في كل كتابه يأمر بقتال الكافرين ويحض على محاربة الفاسقين، من ذلك قوله: ﴿ **قاتلوا المشركين كافة**﴾[7]، وقال، ترغيباً في «قتال»[8] الناكثين، وتفضيلاً للمؤمنين المجاهدين على جميع العالمين: ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾[9]، فدل، بما جعل لهم من الجزاء وأعد لهم على ذلك من كريم العطاء، أن ذلك من فعلهم له رضى.

ثم قال فيمن تعدى على المؤمنين، وخالف فيهم حكم رب العالمين: ﴿ **إن**

---

(١) التمثيل والتنكيل.
(٢) محمد: ٤.
(٣) التوبة: ١٢٣.
(٤) التوبة: ٥.
(٥) في ب: المبطلين.
(٦) في أ، ب: خطأ.
(٧) التوبة: ٣٦.
(٨) في أ: جهاد.
(٩) التوبة: ١١١.

الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾[1]، فأخبر أنهم، على ذلك، عنده معذبون، فدل ذلك من فعل العدل الرحيم، على أنهم كانوا له مخالفين، وفي تعديهم وقتلهم له عاصين، وعلى فعلهم، لا فعله، أوجب عليهم العذاب، ولو كان أذِن لهم في ذلك لأجزل لهم عليه الثواب، فسبحان الرؤوف الجواد، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن الإذْن بالفساد.

فليعلم من سمع قولنا من العالم أن الإذن من الله على معنيين:

فأما أحدهما: فإذْن أمر وإرادة وحكم ومشيئة، وذلك قوله، سبحانه: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**[2]، فهذا معناه معنى حكم بالزيادة للشاكرين وبالعذاب للكافرين، وكذلك قوله: **﴿أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾**[3].

وأما المعنى الآخر: فإذن تخلية وإمهال للعصاة فيما يكون منهم من العصيان فعلى ذلك يخرج معنى قول الله، سبحانه: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله﴾، يعني، تعالى، بتخلية الله لهم، وكذلك قال، سبحانه، في هاروت وماروت ومن يتعلم منهما: **﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾**[4]، يريد، سبحانه، بتخلية الله لهم لإثبات الحجة عليهم، إذ قد مكنهم من العمل والفعل، ثم أمرهم بتقواهم وبصرهم غيهم وهداهم، وعن تعليم السحر وتعلمه نهاهم، فإن ائتمروا، وتعليم السحر وتعلمه تركوا، أنيلوا الثواب، وإن أبوا، وما نُهوا عنه تخيروا، وجب عليهم بفعلهم العقاب، وحُرِموا بذلك من الله الثواب.

تم جواب مسألته

---

(١) البروج: ١٠.
(٢) ابراهيم: ٧.
(٣) الحج: ٣٩.
(٤) البقرة: ١٠٢.

المسألة الثامنة عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن التزيين، فقال: خبرونا عن التزيين بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا أن الله يزين لعباده دون أن يكون أمراً منه، فقد رد الله عليهم قولهم، فقال، في الأنعام: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله،فيسبوا الله عَدْواً بغير علم، كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾**[1] وقال، في السجدة: **﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم﴾**[2]، وقال، في النمل: **﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾**[3]، هذا كله تزيين إرادة؟ أو ليس إرادة؟. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه، وقال، وتوهم من زور «المقال» ، من أن الله، تباركت أسماؤه، وعزت بكريم ولايته أولياؤه، زين للكافرين أعمالهم تزييناً، وحسنها في قلوبهم تحسيناً، وأنه أراد بذلك منهم إقامتهم فيها، ومثابرتهم عليها، جل الله عن ذلك، وتقدس عن أن يكون كذلك، واحتج في مقاله، وفيما ارتكب من ضلاله، بقول الله، سبحانه: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فتسبوا الله عدوا بغير علم، كذلك زينا لكم أمة عملهم﴾**، فصدق الله فيما قال، تبارك وتعالى فيما قال، وتقدس ذو الجبروت والجلال؟

فأما قوله تبارك وتعالى: **﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله،فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾**، فإن هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام المخزومي، لعنه

---

(1) الأنعام: ١٠٨.

(2) فصلت: ٢٥.

(3) النمل: ٤.

الله، وذلك أنه لقي أبا طالب، عم رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويقع في أدياننا. واللات والعزى لئن لم يكف عن شتمه آلهتنا لنشتمن إلهه. فأنزل الله في ذلك ما ذكر في أول هذه الآية، تأديباً للمؤمنين، فأمرهم بالكف عن شتم أصنام المشركين لكيلا «يجترئوا»[1] بغير علم على شتم رب العالمين.

وأما ما احتج به الحسن بن محمد في الآيات المنزلات آية النمل وآية الأنعام وآية حم السجدة، وما ذكر فيهن ذو الجلال والإكرام من قوله: «زيَّنا» و«قيَّضنا»، فإن ذلك من الله هو الإمهال وترك المعافصة لهم بقطع الآجال، وما كان في ذلك منه لأهل الجهل من التبري منهم والجدل منه، فسبحانه، لمن عشا عن ذكر ربه منهم، فلما أن أُمهلوا وعلى ما هم عليه من الشرك والكفر تُركوا وبالعقوبات لم يُعاجَلوا، وأملى لهم ليرجعوا فتمادوا ولم ينيبوا ورأوا من إمهال الله وتأخيره لهم، وصرف ما عاجل به غيرهم من القرون الماضية والأمم الخالية، من ثمود وعاد وفرعون «ذي»[2] الأوتاد وقوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرس والأيكة وقوم تُبَّع والمؤتفكة، وغير ذلك من القرون المهلكة، فزادهم تأخير ذلك عنهم اجتراء وتكذيباً ومجانة وافتراء وترتيباً بصرف ذلك عنهم ما هم عليه من أعمالهم وفاحش قولهم وأفعالهم، فكان إملاء الله لهم وتركهم ليرجعوا أو لتثبت الحجة عليهم وتنقطع المعذرة إليهم، هو الذي أطمعهم وزين عملهم لهم فجاز أن يقول: «زينا لهم» إذ قد تفضلنا وأمهلنا وأحسنا في التأني بكم ورحمنا، وكذلك تقول العرب لعبيدها، يقول الرجل لمملوكه، إذا تركه من العقوبة على ذنب من بعد ذنب وتأني به وعفا عنه وصفح ليرجع ويصلح فتمادى في العصيان ولم يشكر من سيده الإحسان، فيقول له سيده: أنا زينت لك وأطمعتك فيما أنت فيه إذ تركتك وتانيت بك ولم آخذك ولم أعاجلك.

فهذا على مجاز الكلام المعروف عند أهل الفصاحة والتمام.

وأما الآية التي في حم السجدة فكذلك، الله أوجد القرناء وخلقهم، ولم

---

(١) في ب: يجتر.

(٢) في ب: و.

يجمع بينهم وبين من أطاعهم، ولم يامرهم بطاعتهم ولا اتباعهم، بل «حضهم»[1] على مخالفتهم، وأخبر بعداوتهم، ونهاهم عن اتباع الهوى، فقال: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾[2]، ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم**﴾[3]، وقال فيمن يأمر ويوسوس بالسوء من الشياطين: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا**﴾[4]، فبيَّن كل ما افترض وأمر به، فلم يترك لذي عِلَّة قبله متعلقاً، فكان نقيضه لهم ما ذكر من القرناء هو تخليته لهم وتبرئة منهم، وترك الدفع لنوازل الأسواء عنهم، وذلك فيما تقدم عنهم من الكفر بربهم والشِّرْك بخالقهم.

تم جواب مسألته

«وبتمامها»[5] تم الجزء الأول. والحمد لله كثيراً «وصلواته على خير خلقه محمد النبي وآله الطيبين وسلامه»[6]، «وحسبنا الله وحده وكفى»[7]، ويتلوه الجزء الثاني من مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه، ورد الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم، عليه السلام، في نفي ذلك عن الله، سبحانه، وإثبات العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد.

---

(١) في ب: حظهم.
(٢) الكهف: ٢٨.
(٣) القلم: ١٠.
(٤) فاطر: ٦.
(٥) سقطت من أ.
(٦) عبارة أ: وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين وسلم.
(٧) غير موجودة في ب.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

المسألة التاسعة عشرة

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله سبحانه: **﴿ومن ظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ونسي ماقدمت يداه﴾**إلى آخر الاية ،فقال :«أخبرونا»[1]عن الجعل بالإرادة دون الأمر، فإن أنكروا، فأخبرهم أن الله يقول: **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا﴾**[2]، وقال، سبحانه: **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير والله غفور رحيم﴾**[3]، وفي آيات كثيرة من الكتاب، فيقال لهم: ما ذلك الذي جعل الله، وهو كائن كما جعل؟ فإن قالوا: إنما ذلك الدعاء، فقلنا: إن الدعاء قبل ذلك، فقد دعا العباد جميعاً، وهذا شيء قد خص به من يشاء من خلقه ولم يعمهم، لأنه إنما يهتدي من جعل الله في قلبه الهدى ولم يعمهم بالهدى، فإن قالوا: قد نعلم أن الله قد جعل الناس كلهم مهتدين، ولا نقول إن الله قد جعلهم كفاراً، فقل: إن الله يرد عليكم قولكم في كتابه، فإنه قد قال: **﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾**[4]، ألا ترى أن الله قد جعل منهم القردة والخنازير؟ فإن زعموا أن الله إنما سماهم بذلك ونسبهم إليه، وإن أقروا أن الله جعلهم عبدة الطاغوت فذلك نقض ونسبهم إليه فقل: فلذلك لم يجعلهم قردة وخنازير، وإنما سماهم لقولهم، وإن قالوا: إن الله لم يجعلهم عبدة الطاغوت، كان ذلك تكذيباً منهم، فقل: فإن الله قد قال، أيضاً: **﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها**

---

(١) العبارة في ب: ثم أتبع المسألة: **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه﴾** الاية فقال: خبرونا..

(٢) الكهف: ٥٧.

(٣) الممتحنة.

(٤) المائدة: ٦٠.

ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾[1]، ألا يرون أن الله يخبر أنه قد جعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها؟ فإن قالوا إنه لم يجعلهم فيها ليمكروا فيها، كان ذلك تكذيباً منهم، وإن أقروا كان ذلك نقضاً لقولهم.

وقد قال الله لقوم فرعون: **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾**[2]، فإن قالوا: نعم، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: لا، فقد كذبوا، والله يقول: **﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾**[3]، ألا ترى أن الناس هم غزلوا ونسجوا وعملوا الدروع واتخذوا المساكن والبيوت، ثم نسب ذلك منه وإليه، وأخبر أنه خلقه، فَمَنَّ به عليهم، وذلك أنه أراده، فكان ما أراد، ولم يأمر به. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل: **﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾**، فتوهم وظن فقال: إن الله جعل على قلوبهم أكنة حتى لا يفقهوه، وفي آذانهم وقرا، وأن ذلك من الله، فعل بهم ليشقيهم، وليس ذلك لعمره كذلك، ولو كان الله، عز وجل، الذي حجب قلوبهم وآذانهم عن ذلك لم يبعث الرسل إليهم ولم يحتجَّ ببرهانه عليهم وكانوا عنده في تركهم لذلك معذورين، وكانوا على ذلك مثابين، إذ هم لِمَا أرسل إليهم به غير مستطيعين، وقد قال الله سبحانه: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**[4]، وقال: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾**[5]، فكيف يكلفهم الإيمان وقد حجب قلوبهم عن الاعتبار؟! ، فتبارك الله العزيز الجبار.

(١) الانعام: ١٢٣.
(٢) القصص: ٤١.
(٣) النحل: ٨٠، ٨١.
(٤) البقرة: ٢٣٣، ٢٨٦.
(٥) الطلاق: ٧.

بل معنى قوله، جل جلاله، ذلك هو إنكار لقولهم الذي قالوا حين دعاهم الرسول إلى الحق وبين ما هم عليه من الباطل والفسق، فقالوا له، استهزاء وعبثاً، **﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون﴾**(١). فقال الله، سبحانه، لنبيه، صلى الله عليه وآله، يحكي قولهم، ويرد كذبهم عليهم، فقال: **﴿إنا جعلنا﴾**، يريد سبحانه: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة كما قالوا وفي آذانهم وقراً كما ذكروا، بل الزور في ذلك قالوا، وبالباطل تكلموا، فأراد بذلك معنى الإنكار عليهم والتكذيب لهم والتقريع بكذبهم، وتوقيف نبيه، صلى الله عليه وآله، على باطل قولهم، وجليل ما أتوا به من مُحالهم، فقال: «إنا»، وهو يريد إننا، فطرح الألف، استخفافاً لها، والقرآن «عربي»(٢)، إلى النور والحق يهدي، والعرب تطرح الألف من كلامها وهي تريدها، فيخرج لفظ الكلام لفظ إخبار ونفي وهو تقريع وإيجاب واستفهام، وتثبتها وهي لا تريدها، فيخرج لفظ الكلام لفظ شك ومعناه معنى خبر وإيجاب، في كل ما جاءت به من الأسباب، من ذلك قول الله، سبحانه: **﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾**(٣)، فقال: لا أقسم، وإنما أراد: ألاَ أقسم، فطرح الألف منها، فخرج لفظها لفظ نفي وهي قسم وإيجاب، وقال في عبده ونبيه يونس، صلى الله عليه: **﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾**(٤)، فقال: أو يزيدون، فأثبت الألف وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ شك، ومعناه معنى إيجاب وخبر، أراد، سبحانه: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون على مائة ألف، فأراد بقوله: **﴿إنا جعلنا﴾**، التقريع لهم، والتوقيف لنبيه على كذبهم، لا ما يقول الجاهلون أنه أخبر عن فعله بهم، ألا ترى كيف يدل آخر الآية على أولها، من قوله: **﴿وإن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾**، يقول: فإن كان الأمر على ما يقولون وكنا قد فعلنا بهم ما قد يذكرون، فَلِمَ أرسلناك تدعوهم إلى الهدى وتزحزحهم عن الردى، وهم لو يكونوا كذلك، وكنا فعلنا بهم شيئاً من ذلك، ثم دعوتهم إلى الهداية لم يطيقوا أن يهتدوا إذاً أبداً، ألا تسمع قوله: **﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾**، فقال: «إذا»(٥) يريد إن كان

(١) فصلت: ٥.
(٢) في الأصل: فعربي.
(٣) البلد: ١، ٢.
(٤) الصافات: ١٤٧.
(٥) سقطت من أ، وفي ب «يريد» مكررة.

ما يقولون علينا مما ذكروا أنه على أبصارهم وأسماعهم وقلوبهم فعلاً منا بهم، فلن يهتدوا إذاً أبداً إن كنا منعناهم بذلك عن الإهتداء، فكيف نرسلك إلى من لا يستطيع أن يهتدي، ولا يفلح، ولا يقتدي؟! فهذا ما لا نفعله بك ولا بهم، ولا نجيزه فيك ولا فيهم، ولا نراه حسناً من فاعل لو فعله من البشر.

وقد يُمْكِن أن يكون الجعل من الله، عز وجل، للأكنة والوقر الذي هو الخذلان لهم وتركهم من التوفيق والتسديد، فلما تركوا من عون الله وتسديده تكمهوا وغووا وهلكوا ومالت قلوبهم في أكنة الهوى فأعقبهم ذلك شقاء ووقراً، فالوقر ها هنا هو ترك الإستماع للحق وما يركبون من الفسق.

وأما ما قال وعنه سأل من قول الله، عز وجل: **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم﴾**، فتوهم أن الله جعل فيهم مودة قسرهم عليها وأدخلهم جبراً فيها، وليس ذلك، بحمد الله، كذلك، وتفسير هذه الآية «فهو»[1] يخرج على معنيين، وكلاهما شاف، ومن التطويل كاف:

فأولهما: ما جعل الله للمؤمنين من الإذن وأطلق لهم من البر والإقساط والإحسان إلى من كان على غير الإيمان من المشركين الذين لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم، فقال: **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾**، ثم قال: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين﴾**[2]، فكان ما أطلق لهم من البر والإقساط أول الرحمة منه لهم، وجعل المودة بينهم إذ قد أطلق لهم من الفعل ما يجلب المودة ويزرع المحبة، من اللطف والبر، في العلانية والسر، فلما أن تباروا وتنافعوا، جرت المحبة والمودة للمؤمنين في قلوب الكافرين لما ينفعونهم به ويحسنون إليهم فيه، فكان الإذن من الله، عز وجل للمؤمنين بما يجتلب المودة في الإقساط إلى الكافرين أفضل المنة منه على المحسنين، وقد تكون تلك المودة هي ما في الإيمان من البركة واليمن وما

---

(١) هكذا في ب، وفي أ: فقد.

(٢) الممتحنة: ٨.

جعل الله بين المؤمنين من المحبة وافترض عليهم من التواد على الدين وحكم به من الإخوة بين المؤمنين حيث يقول: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾(١)، فكان كل من دخل فيما أُمِرَ بالدخول فيه من الإيمان إذا دخل، وإلى الله سبحانه، أقبل، سدده الله، سبحانه، ووفقه وحببه إليه من بعد إقباله إليه، وبغض إليه الكفر، كما قال الرحمن: ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم وكرَّهَ إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون** ﴾(٢)، فكأن كل من دخل في الإسلام من جميع الأنام أخرجته بركة الإيمان من الحقد والدغل والحسد حتى يعود إلى المؤاخاة على الحق، والقول في ذلك على الله بالصدق، فهذا ما لا ينكره ذو عقل وتمييز. ألا تسمع كيف حكى الله، عز وجل، لك عنهم، وذكر لك قولهم، حين كانوا يدخلون في الدين، ويتابعون المسلمين على اليقين، حين يقول: ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا آغْفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾(٣)، فلما أن دخلوا في الإيمان صاروا عليه وفيه نعم الأخوان، متحابين متواصلين متواخين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فكانوا كما قال الله، جل جلاله: ﴿ **والذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾(٤).

وأما ما نسب الحسن بن محمد إلى الله، جل ثناؤه، من فاحش المقال، فزعم أن الله جعل عَبَدَةَ الطاغوت للطاغوت عابدين، وفيما أسخطه من ذلك، أدخلهم مجبورين، واحتج بما لم يعلم معناه من تفسير القرآن ومنزل الفرقان، الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، فقال: قال الله في ذلك: ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل**

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الحجرات: ٧.

(٣) الحشر: ١٠.

(٤) الحج: ٤١.

منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾، فقال الحسن بن محمد: ألا ترى أنه قد جعل منهم القردة والخنازير ومن يعبد الطاغوت؟، وقال: إن أنكروا أن الله جعل منهم القردة والخنازير «وعبدة»[1] الطاغوت، فقد كذبوا الله، وإن أقروا فقد رجعوا عن قولهم، ولِمَ، يا ويحه! وويله! إن لم يتب من الله وغوله؟!!، ألا تسمع كيف فرق الله عز وجل، بين فعله وفعل عبيده؟ ألا ترى أن مسخه لمن مسخ لم يكن لهم فيه فعل بل نزل بهم وهم له كارهون، وحل بهم وهم عليه مُكْرَهون، وأن عبادة الطاغوت كانت فيهم، وأنها، بلا شك، مقالتهم؟، فبين ما دخلوا فيه طائعين وله متخيرين، وبين ما فعل بهم مجبورين وبه معاقبين فرق عند ذي العلم من أهل المعرفة والحكم.

فنقول في ذلك: إن الله لم يأخذهم ولم يجعل منهم ما جعل من القردة والخنازير، ومسخ منهم من مسخ من المذنبين إلا بعد الإعذار والإنذار مراراً بعد مرار، فلما أبوا وعموا عن أمره، سبحانه، وخالفوا، أُخذوا بذنوبهم، فلم يجدوا من دون الله ولياً ولا نصيراً.

وأما قوله: «وعبد الطاغوت»، فإن ذلك مردود على أول الآية، وهو مقدم في المعنى، وكثير مثل ذلك على ما يكون على التقديم والتأخير، يعلمه من عباده العالم الخبير، فمعناه: أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت، وجعل منهم القردة والخنازير، أراد أن من عبد الطاغوت فهو شر من ذلك، فهذا موضع ما ظن من «عبد الطاغوت». ألا ترى كيف أهلك من كان كذلك؟ ومن اجترأ من الخلق كاجتراء أولئك، وكذلك قوله فيما يتوهم وذهب إليه، فأهلك وهلك، ولله الحمد فيه، فقال: إن الله جعل في المجرمين ذلك وابتلاهم به وحملهم عليه، ثم احتج في ذلك من قول الله، عز وجل، بما عليه لا له، فقال: قد قال الله فيما قلنا وبه تكلمنا: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾، فقال: ألا ترون أن الله قد جعل في كلِ قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، فقد جعلهم مكارين، وقضى به عليهم، وركّبه فيهم.

---

(١) في ب: عبد.

فقولنا في ذلك: أنَّ «جَعْل الله لهم هو خلقه لهم»[1] وتصويرهم في كل قرية كما صور غيرهم، وأما قوله: «ليمكروا»، فإنما أراد «الله»[2]، سبحانه، لأن لا يمكروا، فطرح «لا» وهو يريدها استخفافاً لها، والقرآن «عربي بلسان»[3] العرب نزل، وهذا تفعله العرب، تطرح «لا» وهي تريدها، وتأتي بها وهي لا تريدها، فيخرج اللفظ بخلاف المعنى، يخرج اللفظ لفظ نفي وهو إيجاب، ويخرج لفظ إيجاب وهو معنى نفي، قال الله، عز وجل: **﴿لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[4]، فقال «لئلا» فخرج لفظها لفظ نفي ومعناها معنى إيجاب، فأتى بـ «لا» وهو لا يريدها، وإنما معناها: ليعلم أهل الكتاب، وقال: **﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾**[5]، فخرج اللفظ لفظ إيجاب ومعناها نفي، يريد، سبحانه: لئلا يزدادوا إثماً.

وقال الشاعر:

ما زال ذو الخيرات لا يقول ويصدق القول ولا يَحُول

فقال: لا يقول، وإنما يريد: يقول، فأدخلها وهو لا يريدها، ووصل بها كلامه ليتم له بيته استخفافاً لها، وقال آخر:

بيوم حدود لا فصحتم أباكم وحاربتم والخيل يدمى شكيمها

فقال: لا فصحتم أباكم، وإنما يريد: فصحتم، فأدخلها وهو لا يريدها، وقال آخر:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القِرَى، أن تشتمونا

فقال: أن تشتمونا، فخرج لفظها لفظ إيجاب في قوله: أن تشتمونا، ومعناها معنى نفي، أراد: لأن لا تشتمونا.

وأما ما قال وذكر، واحتج به مما لا يعرفه وسَطَّر، فقال: قال الله، في قوم

---

(1) عبارة ب: أن الله جعله لهم هو خلقهم.

(2) غير موجودة في أ.

(3) في ب: فبلسان، وعبارة أ: فعربي بلسان.

(4) الحديد: ٢٩.

(5) آل عمران: ١٧٨.

فرعون: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لايُنْصَرون﴾ وادعى على الله، سبحانه، أنه جعل من كان كذلك منهم كافراً، ومن كان منهم كافراً فاجراً، وأنه طبعهم على ذلك، وفيه رَكَّبهم وخلقهم، وليس ذلك، والحمد لله، على ما ذكر، ولا على ما قال وخبر. وهذا يخرج من الله على معنيين عدلين محققين.

أحدهما: أن يكون جَعْله لهم هو ما أوجده منهم وخلقه من أجسامهم لا ما ذهب إليه من فعل أفعالهم.

والمعنى الآخر: أن يكون ذو الجلال والإكرام حكم عليهم بما يكون منهم من أعمالهم ودعائهم إلى خلاف طاعته من الكفر به والصد عن سبيله، وما كانوا يفعلون ويجترئون به على الله، فكانت حال من يطيعهم على كفرهم ويشركهم في فعلهم ويدعوهم إلى غيهم، عند الله، كحالهم، فلما أن دعوا إلى ما يقرب إلى النار مما كان يفعله الفجار، كانوا أئمة يدعون إلى الجحيم، فحكم عليهم بفعلهم العليم، ودعاهم وسماهم به الرحمن الرحيم، فكان دعاؤه إياهم بذلك من فعلهم وتسمية لهم بما دعوا إليه إخوانهم من النار، جَعْلاً في مجاز كلام العرب، كما يجوز أن يقال لمن قال لصاحبه: يا حمار: جعلته، ويحك! حماراً، وإنما يراد بذلك تسميته لا خلقه، وكذلك إذا دعاه بالضلال، قيل: جعلته ضالاً، إذ قد سميته به.

فأما ما قال وتوهم أنه إذا خرج في اللفظ شيء كان كذلك في المعنى، فقال: وقد قال الله، سبحانه: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها **أثاثاً ومتاعاً إلى حين، والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾**، فتوهم الحسن بن محمد على الله، تبارك وتعالى أنه الفاعل لكل ذلك، وليس ذلك، والحمد لله، كذلك، وسنفسره إن شاء الله ونبينه، وبالحق نميزه. فنقول: إن معنى قوله، جل جلاله، **﴿جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾** «هو»[1]، كما قال، سبحانه:

---

(١) في أ، ب: فهو، وعبارة أ: فهو كما سبحانه.

هو الذي خلق الخشب والحجر، والماء والمدر، هو دلهم على ذلك، وهم بنوا وعملوا المساكن وكل ما صنعوه من الأماكن، وهو جعل وخلق الأنعام وجلودها، وهم عملوها بيوتاً، ولو لم يخلق الجلود لم يقدروا على عمل ما ذكر من البيوت، وكذلك لو لم يخلق الحجر والخشب والمدر لم يبنوا بيوتاً يسكونونها ولا دوراً يأوونها، وكذلك السرابيل التي تقي الحر وقت الحر وتقي القر وقت القر، وكذلك السرابيل، اللباس التي تقي وتحرس من البأس، فالله، عز وجل، أوجد حديدها ودلهم على عملها وهم «يتولون»[1] فعلها وسَرْدَها[2] وتأليفها ونسجها.

وأما ما ذكر من قول الله جل ثناؤه: **﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾**، فكذلك فعل، عز وجل، فهو المتولي لذلك، لم يفعله غيره، وهو جاعله، فجعل من الأكنان وِقَاءً أوفى من البنيان، وجعل من الظلال لما خلق من الأشجار وغيرها من الجبال ما تبين فيه القدرة والمنة لذي الجلال، فما كان من فعل العباد خلاف أفعال ذي المنة والأياد، وما كان من فعل الرحمن فخلاف فعل الإنسان، لا كما يقول المتكمهون الجهال: الله، سبحانه، والعبيد سواء في الأفعال، كذب المبطلون.

تم جواب مسألته

---

(١) في أ: تولوا، وفي ب: يتولوا.

(٢) السرد بالنسبة للدرع: هو النسج، وللجلد: الخرز، والأشياء عموماً: الصنعة الداخلة عليها.

المسألة العشرون

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة، فقال: خبرونا عن الإغراء بالإرادة دون الأمر، فإن الله يقول: ﴿**ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم: فنسوا حظاً مما ذُكِّروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾[1]، فسلهم: هل كان هؤلاء يستطيعون أن يخرجوا مما صنع الله بهم وأن يتركوا العداوة بينهم؟ فإن قالوا: نعم: كذبوا كتاب الله، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من الإغراء بالإرادة دون الأمر، فزعم أن الله، جل ثناؤه، يأمر بما لا يريد، ويريد من الأشياء ما لا يشاء كينونته، فأخطأ في قوله وأمره، ونسب الجهالة في ذلك إلى ربه، ورضي فيه بما لا يرضاه في نفسه، ولا يراه حسناً من أَمَتِهِ وعبده. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ألا ترى أن الأمر بما لا يشاء من أجهل الجاهلين؟ وعن الحكمة من أبعد المبعدين؟ فكيف اجترأ الحسن بن محمد على رب العالمين، فنسب إليه أشد ما يعاب به «المربوبون»[2]؟! ثم احتج في قوله: وسطر أفحش القول في ربه، فقال: قال الله: ﴿**ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾، فقال: إن الله، تبارك وتعالى، أغرى بينهم ولم يرد الإغراء ولم يأمر بالإغراء وأدخلهم من ذلك فيما لم يشأ. وليس ذلك كما قال، وأول الاية يدل على عدل الله في ذلك حين أخبر بما كان منهم، وذكر من الترك والرفض ما أُمِروا بأخذه، والأخذ

(١) المائدة: ١٤.

(٢) في ب: المربوبين.

لما أمروا بتركه، فلما أن فعلوا من ذلك ما عنه نهوا، استأهلوا من الله سبحانه، الترك والخذلان بما كان منهم لله من العصيان، فتركهم من الرشد والتوفيق، فضلوا، وعن الخير والصلاح في كل أمرهم عموا، والبر والتواصل تركوا، فَغَرِيَت[1] بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ونشأ على ذلك خلف من بعد خلف، فكان ذلك لسبب خذلان الله لهم وسخطه عليهم لذلك، فلما كان ذلك كذلك جاز أن يقال: إن الله أغرى بينهم العداوة، وبكل ضلال قالوا، فنسب المسيح منهم قوم إلى أنه رب، ونسبه قوم آخرون إلى أنه ابن للرب، وقال آخرون بما قال في نفسه أنه عبد الله، حين أخبر عنه بقوله حين أشارت إليه أمه، قال الله، جل ثناؤه: **﴿فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾**[2]، فلما أن اختلفوا، وعلى الحق لم يأتلفوا، كفر بعضهم بعضاً، وبرىء فاسق من منافق، ومنافق من فاسق، وخذلهم الله فيه، ولعنهم، سبحانه، عليه، غريت بينهم العداوة إلى يوم القيامة، فلما كان عز وجل، الذي خذلهم فضلوا، وتركهم فهلكوا، قال: **﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾**، وهذا ولله الحمد، في اللسان معروف.

تم جواب مسألته

---

(١) أي أولعوا بها ولعاً ذاتياً، دون أن يحملهم عليها حامل.

(٢) مريم: ٢٩.

المسألة الحادية والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة، فقال: خبرونا عن قول الله: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾**[1]، وذلك يوم الحديبية، فسلهم: هل كان واحد من الفريقين يستطيع أن يبسط يده إلى أخيه، والله، عز وجل، يخبر أنه قد كف بعضهم عن بعض بإرادة لا بأمر؟ فإن قالوا: نعم، قد كانوا يستطيعون أن يقاتل بعضهم بعضاً كذبوا كتاب الله، عز وجل، وإن قالوا: لا، فهذا نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾**، فقال: هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه، وقد كف الله، سبحانه، أيدي حزبه، من رسوله والمؤمنين، عن حزب الشيطان الفاسقين، وأذن لرسوله وأطلق «له»[2] مهادنة قريش ومن معهم من المشركين نظراً منه، سبحانه، للمؤمنين، ففعل ذلك رسول الله، صلى الله عليه وآله، لما أن طلبته قريش منه، ولو لم يأذن الله له، عز وجل، في ذلك لم يفعله، ولم يك ليرجع يوم الحديبية حتى يقاتلهم، وعلى الحق وبالحق ينازلهم، ولقد أراد ذلك، صلى الله عليه وآله، وبايع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ورضي بها عنهم وأنزل السكينة عليهم وصرف القتال وكف أيدي الكل من الرجال بما أطلق لرسوله، صلى الله عليه وآله، من إجابته لهم إلى ما طلبوا من المهادنة في ذلك العام والرجوع عنهم والدخول في السنة المقبلة

(١) الفتح: ٢٤.

(٢) في أ: عليهم.

إلى البيت الحرام، فأطلق له الرجوع عنهم والترك لمقاتلتهم لما ذكر سبحانه، فمن كان بمكة ممن كان بمكة من المؤمنين والمؤمنات لأن لا يطأوهم فيقتلوهم بغير علم فيصيبهم منهم معرة عند الله بالحكم، والمعرة ها هنا «هي»[1] الدية لا ما قال غيرنا به فيها من الإثم، وكيف يأثم من بر وكرم وقاتل على الحق كما ذكر الله، عز وجل، من خالفه من الخلق فقتل مؤمناً بغير علم ولا تعمد «وهو إنما»[2] قتله وهو يحسبه كافراً، ويظنه في دين الله فاجراً، فهو والحمد لله في ذلك غير آثم ولا متعمد في فعله ولا ظالم، ولكنه مخطىء فعليه سَلَماً على مثله، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول: ﴿**ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله**﴾[3]، وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيماً لقتل المؤمن وتشديداً على المؤمنين في التثبت والتبيين عن قتال الكافرين، كما قال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾[4].

وأما معنى قوله، سبحانه: ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾، فهو الحكم لهم من الله عز وجل، بالنصر إذ نصروه، ومن ذلك ما قال ذو العز والجلال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾[5]، ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله، صلى الله عليه وآله، ومن معه من المؤمنين، فحكم الله، سبحانه، لهم على أعدائه بالنصر إذا التقوا وبالغلبة إن احتربوا، ألا تسمع كيف يقول: ﴿**ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾[6]، يقول: حكم الله للمؤمنين بالنصر على الفاسقين، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلاً، فهذا معنى الآية وتفسيرها لا كما قال من نسب إلى الله، جل ثناؤه، فاحش المقال من جبر العباد على الخير، وإدخالهم قسراً في كل شر وضير.

تم جواب مسألته

---

(١) في أ، ب: فهي.
(٢) في ب: وهي إنما.
(٣) النساء: ٩٢.
(٤) الحجرات: ٦.
(٥) محمد: ٧.
(٦) الفتح: ٢٣.

المسألة الثانية والعشرون

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عما وعد الله، جل ثناؤه، رسوله والمؤمنين من الغنائم الكثيرة التي قال: ﴿تأخذونها﴾، هل كانت تلك الغنائم التي وعدهم إياها تكون إلا من الكافرين؟ فإن قالوا: لا، فقل: «فهل»[1]، كان أولئك الكافرون يستطيعون أن يؤمنوا حتى لا تَحِلَّ غنائمهم ولا دماؤهم ولا أموالهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله عز وجل، وإن قالوا: لا، فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه، وفيه تكلم وقال في الغنائم التي وعدها الله المؤمنين وأخبرهم أنهم يأخذونها من الكافرين، فقال الحسن بن محمد في ذلك: هل كان الكافرون يستطيعون الإيمان وهم لو آمنوا لم تحل غنائمهم؟، وهم لو لم تؤخذ غنائمهم لم يتم وعد الله لنبيه، فلا بد أن يثبتوا على كفرهم جبراً حتى تؤخذ منهم الغنائم قسراً، فقولنا في ذلك، الحق لا قول المبطل الهالك: إن الله سبحانه، علم من أهل الغنائم قبل أن يَعِد نبيه غنائمهم أنهم لا يؤمنون وأنهم سيثبتون على الكفر ويقاتلون، وأنهم لا يسمعون لله ورسوله ولا يطيعون، فوعده غنائمهم والنصر عليهم إذ علم أنهم لا يختارون الإيمان ولا يطيعون الرحمن، وأنهم يختارون الإقامة على الضلال والكفران، والمحادة لله ورسوله والعصيان، فلذلك وعد المؤمنين غنائمهم، وأجاز لهم سَبْيَهم، وأحل مقاتلتهم واسترقاق ذراريهم، وذلك بما جنت أنفسهم عليهم. تم جواب مسألته.

---

(١) في أ: هل.

المسألة الثالثة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة، عن قول الله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذْ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾**[1]، وذلك أن ناساً من اليهود كانوا أرادوا قتل رسول الله، صلى الله عليه وآله، ونفر من أصحابه، فأخبر الله، عز وجل، رسوله، وكف أيديهم عنه وعن أصحابه، فسلهم: هل كانوا يستطيعون أن يبسطوا أيديهم عليهم، وقد كفها الله عنهم؟ أم لا؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله، جل ثناؤه، وإن قالوا: لا، فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه «مما تَحيَّر فيه»[2] من قول الله، عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾**، فتوهم الحسن بن محمد أن الله، عز وجل، كف أيديهم عن رسول الله، صلى الله عليه وآله، ومن كان معه وعن أصحابه المؤمنين غصباً، حتى لم يكن لهم في ذلك حيلة، ولم يبسط أيديهم «بالسواية»[3] إليه، وأنه قبضها عنهم قبضاً ومنعهم منعاً، وليس ذلك كما توهم ولا هو على ما به تكلم، وسنشرح ذلك إن شاء الله، ونقول فيه بالحق على الله، فنقول: إن رسول الله، صلى الله عليه وآله، كان خرج إلى يهود بني النضير في نفر من أصحابه، وكان بنو النضير ينزلون قريباً من المدينة، ليستعينهم في ديتين وقعتا خطأً على بعض المسلمين، فلما أن أتاهم رحبوا به وأَدَبُوه، وكل ما طلب منهم وعدوه، ثم تآمروا به وبأصحابه، وعزموا على الغدر به

(١) المائدة: ١١.
(٢) غير موجودة في أ.
(٣) السواية: المكروه.

ومن معه من أعوانه، فأهبط الله عز وجل، بذلك جبريل، صلى الله عليه وعلى رسوله فأخبره به وأوقفه عليه، فنهض، صلى الله عليه وآله، مسرعاً هو ومن معه حتى رجعوا، ثم هيئوا وخرجوا إليهم فقاتلوهم وأقاموا عشرين ليلة يحصرونهم في حصونهم ثم نزلوا من بعد ذلك على حكم سعد بن معاذ، وكان من كبار الأنصار وذوي القدر منهم والأخطار، وكانوا يتكلمون إليه، ويظنون، لما كان بينه وبينهم في الجاهلية من المداناة والإحسان، أنه سيحابيهم ويحكم بما ينجيهم كلهم، فحكم بأن يقتل رجالهم وتسبى ذراريهم وحُرَمُهم[1] وفي ذلك ما قال رسول الله، صلى الله عليه وآله: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»، ففعل ذلك بهم، و«أخرجهم»[2] أو أهلكهم، وأبادهم وقتلهم، فكان إعلام الله عز وجل لنبيه، صلى الله عليه وآله، بما اجتمعوا عليه وعزموا وصاروا فيه إليه، كفاً لأيديهم ونقضاً لعزيمتهم وإبطالاً لتدبيرهم، فهذا معنى ما تحير فيه الحسن بن محمد من تفسير الآية، لا ما قال به على الله، عز وجل، من البهتان، وما حمل من محكم القرآن على متشابه القرآن[3].

تم جواب مسألته

---

(١) جمع حرمة، وهي أهل الرجل وزوجه.

(٢) ب: آخرهم، وفي أ: أحراهم بدون أعجام.

(٣) ما في كتب السيرة عن هذه الواقعة التاريخية يؤيد الإمام يحيي، ويرفض تفسير ابن الحنفية، فلقد كان كف أيدي بني النضير عن رسول الله بواسطة قيامه عن مكانه إلى جوار جدار من جدرهم، وذهابه إلى المدينة بسبب إخبار الوحي له بأنهم قد عزموا على أن يلقوا عليه حجراً من أعلى الجدار، ولقد كان قيامه مسرعاً وحده، وليس مع أصحابه، كما ذكر الإمام يحيى، وكان معه في هذا المجلس أبو بكر وعمر وعلي ونفر آخرون، فلما غاب عنهم الرسول، سألوا عنه، فقال رجل قادم من المدينة: «لقيته وقد دخل أزقة المدينة» فلحق به الصحابة فسألوه: «أقمت ولم نشعر؟ قال: همت يهود بالغدر، فأخبرني الله بذلك فقمت». راجع (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر. ص ١٧٤. و(الطبقات الكبرى) لابن سعد. جـ ٢ القسم الأول. ص ٤٠ وما بعدها. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩.

المسألة الرابعة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، عز وجل، لعيسى بن مريم، وهو يذكر نعمة الله عليه، فقال: ﴿**وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحر مبين**﴾[1]، فهل كان لبني اسرائيل أن يبسطوا أيديهم على عيسى عليه السلام؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا قول الله، وإن قالوا: لا فذلك نقض لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله لعيسى بن مريم المسيح العبد الكريم: ﴿**وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتم بالبينات، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين**﴾، فقال: هل كانت بنو اسرائيل تقدر على أن تبسط أيديها إليه، وقد كفها الله عنه، وأنعم بذلك عليه؟ فقولنا في ذلك: إن الله لم يكف أيديهم عنه جبراً، ولكنه ألقى في قلوبهم الهيبة له ولمن معه من الحواريين، وأعلم نبيه، صلى الله عليه، بما يريدون منه وما يريدون فيه فَحَذَرَهُم واستعد بمن معه لهم فخافوهم وحذروهم فلاشى عزيمتهم وأبطل في ذلك إرادتهم، ومَنَّ على نبيه، صلى الله عليه، بما ألقى له وللحق في قلوبهم من الهيبة والمخافة، فرجعوا خائبين ومما أرادوا موءسين، وأعز الله، سبحانه، المؤمنين، وكبت الفاسقين، فهذا، إن شاء الله، معنى ما ذكر الله من كف أيديهم عن عيسى بن مريم، صلى الله عليه، بينهم، والمظهر للحق فيهم، والمطلق لهم بعض الذي حرم عليهم، المبرىء لأكمههم وأبرصهم، الشافي لسقيمهم، والمحيي لميتهم، والمنبي لهم عما يأكلون

---

(١) المائدة: ١١٠.

ويدخرون في بيوتهم، «وتلك أعظم»[1] آيات ربهم وبراهين خالقهم، فلما عتوا عن أمر خالقهم، قال، حين ذلك نبيهم، صلى الله عليه وسلم. ﴿ **مَن أنصاري الى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله**﴾، وأعوانك وأنصارك وخدامك، فأمن معه من بني إسرائيل الحواريون وكفر سائر الإسرائيليين، فأيد الله المؤمنين، فأصبحوا، كما قال الله: «ظاهرين»، حين يقول، عز وجل: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله، قال الحواريون: نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين**﴾[2]، فهذا قولنا في رب العالمين، لا كقول الجاهلين الذين نسبوا الى الله، عز وجل، أفعال العباد، وقلدوه ما يكون في ذلك من الفساد، فتعالى الله الواحد الرحمن عن زخرف أقاويل الشيطان، المضاهين لمذاهب عبدة الأوثان، وما حكى فيهم الرحمن من قولهم: ﴿ **لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء**﴾ الآية[3].

تم جواب مسألته.

---

(١) في أ، ب: وذلك فاعظم.

(٢) الصف: ١٤.

(٣) النحل: ٣٥، وتمام الاية: ﴿ . . . **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين**﴾.

المسألة الخامسة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾**[1]، وقال في سورة الحشر: **﴿وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾**[2]، وقال: **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾**[3]، فأخبرونا عن الرعب الذي قذف الله في قلوب الكافرين، هل كانوا يستطيعون أن يمتنعوا منه، وأن يصرفوه عن قلوبهم؟، فإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإن قالوا: نعم، فقد كذبوا كتاب الله، وزعموا أن العباد يمتنعون من الله، وإن قالوا: إنما صنع الله ذلك بهم بكفرهم، فقل: ألستم تعلمون أن الرعب شيء لطيف لا يراه الناس ولا يردونه ولا يمتنعون منه حين يدخل في قلوبهم، فيوهن الله بذلك كيدهم، وينقض قولهم؟ فإن قالوا: نعم، فقل: وكذلك أيضاً التوفيق، شيء لطيف لا يراه العباد، يلقيه الله في قلوب المؤمنين، وأمور الله كلها كذلك، من أراد به خيراً وفقه وسدده وأرشده، وكان ذلك عوناً من الله لهم، ومن أراد به سوءاً ثبطه وعوقه وخذله وتركه وهواه ووكله إلى نفسه، فوكله إلى الضعف والهوان، والله غالب على أمره. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾**، فإنا نقول: إن الرعب إنما ألقاه

---

(١) آل عمران: ١٥١.	(٢) الحشر: ٢.	(٣) الأحزاب: ٢٦.

الله ، جل ثناؤه ، في قلوبهم نكالاً وانتقاماً منهم على كفرهم وإشراكهم ، ألا تسمع كيف فسر آخر الاية أولها ، فقال: ﴿**بما أشركوا بالله**﴾، فكذلك الله سبحانه انتقم منهم بما أشركوا وكفروا وخذلهم وتركهم من التسديد والتوفيق فهلكوا وتلاشوا، وعبدوا فضلوا، وهانوا فتفرقوا، إذ وكلهم إلى الضعف من أنفسهم ، وإلى حولهم وقوتهم فهانوا ورُعِبوا من القتال ولقاء المؤمنين في تلك الحال، فكان تركهم لهم بما قدموا من شركهم رعباً داخلاً في قلوبهم مخامراً لصدورهم.

وأما ما ذكر من قول الله ، سبحانه ، في بني النضير من اليهود: ﴿**وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾، فكذلك فعل الله بهم ، وذلك أنهم كانوا قد هادنوا الرسول ، عليه السلام، وخضعوا لأهل دعوة الإيمان والإسلام، حتى كان يوم الأحزاب فجاءت قريش ومن تحزب معها من العرب من اليمن ومضر، وأمدهم في ذلك يهود خيبر، يقاتلون الرسول والمؤمنين مع أعداء الله الفاسقين ، فلما أتى يهود خيبر أرسلوا إلى يهود بني النضير فوعدوهم أن يقاتلوا الرسول من ورائه إذا حميت الحرب بينه وبينهم ، فنزلت بنو عامر أُحُدَ من فوق المؤمنين ، ونزلت قريش بطن الوادي من أسفل منهم ، وكانت اليهود ، يهود خيبر قِبَل المسلمين مما يلي الحرة، وبنو النضير من وراء الرسول، صلى الله عليه وآله ، وفي ذلك ما يقول الله ، عز وجل: ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا**﴾[1]، فكان فيمن نزل أحد من العرب رجل أشجعي، يحب الإيمان ويبغض أهل العدوان[2] فأفسد بين المشركين طراً، وذلك أنه أتى قريشاً فقال لها: إن العرب قد ظاهرت محمداً عليكم ، ووعدته

(١) الاحزاب: ١٠.

(٢) في هامش ب بغير خط الناسخ عبارة: «هو نعيم بن مسعود».. وكان قد جاء الرسول عليه السلام فقال: «يا رسول الله ، أني قد أسلمت ولم يعلم قومي باسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت فخذلت عنا كان أحب الينا من بقائك ، فاخرج فان الحرب خدعة...» راجع قصته في (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر. ص ١٨٦ ، ١٨٧.

المحاربة معه لكم، وآية ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة، فخذوا حذركم ولا تبدأوه حتى يقاتلوه قبلكم، ثم أتى أصحابه وبني عمه وجماعة العرب، فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وعلامة ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة قبلكم، فاعملوا لأنفسكم ودبروا أموركم، ولا تقاتلوا حتى ترسلوا إليهم فيقاتلوا قبلكم، فإن فعلوا، وإلا فاحذروا مكرهم والحقوا وشيكاً ببلدكم، ثم أتى يهود خيبر فقال: إن قريشاً قد عاقدت محمداً عليكم، وآية ذلك أنها لا «تبدأه»[1] بالمحاربة قبلكم، وأتى قريشاً فقال لها: إن اليهود قد ظاهرت محمداً عليكم، وآية ذلك أنهم لا يبدأونه بالمنابذة قبلكم، فطرح في قلوب كل لكل بلاء وحقداً ومخافة وشحناء، فأقام كل ينتظر أن يبدأ بالمحاربة غيره، فلما طال ذلك عليهم وتراسلوا بينهم، يسأل كل كلاً أن يَنْصِب لرسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حرباً، وكلهم يأمر صاحبه أن يبدأ، فصح لذلك عندهم قول الأشجعي، فتفرقوا، وفسدت قلوب بعضهم على بعض، فرحلت العرب طراً راجعة إلى بلدها، وأرسل الله، سبحانه، الريح على قريش واليهود، وأمد المؤمنين «بالنصر منه»[2]، والجنود، فلم يقم لقريش خباء ولا ظل ولا يستوقد لهم نار إلا أطفأتها الريح و«فرقتها»[3] وحرقتهم بها، فأقاموا ثلاثاً لا يختبزون ولا يصطلون، فاشتد عليهم القر والجوع، ورماهم الله بالذل، فأزمعوا على الرجوع، ورحلوا راجعين، وخاسرين خائبين نادمين، وفي ذلك «ما»[4] يقول رب العالمين: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾**[5]، فرجع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقاتل بني النضير، إذ نقضوا عهده، وخالفوا أمره فحاصرهم حتى جهدوا، فقالوا: يا محمد، خلنا نخرج من البلد بما حملت إبلنا التي في الحضرة معنا من متاعنا ونخلي لك الباقي وما لنا من الضياع، وبشرط ألا نخرج بسلاح ونترك الديار والنخل والقرى، فرضي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، بذلك، فخرجوا بإبلهم عليها جيِّد متاعهم وتحف أثوابهم، فلما قلعوا التحف تهدمت وجوه البيوت، وذلك تدبير منهم، ليخربوها عليهم،

---

(١) في أ، ب: تبدأوه.
(٢) عبارة أ: منه بالنصر.
(٣) في ب: سرقتها.
(٤) غير موجودة في أ.
(٥) الاحزاب: ٩.

فكان أحدهم إذا هدم لحاف[1] بيته بطل البيت، ثم خرجوا على الإبل بالتحف، فذلك قول الله، سبحانه: **﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم** بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، فخرجوا جالين، ولنعمهم تاركين، وذلك قول أصدق الصادقين: **﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار﴾**[2]، والتعذيب «هو»[3] القتل، فكان الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو ما كان من خذلانه لهم حتى عمي عليهم رشدهم وفاسدوا إخوانهم[4]، ودخل الفزع، "عند ذلك، من النبي والمؤمنين في قلوبهم، وأيقنوا أنه إذا علم بما كان من مظاهرتهم عليه وصاروا من الغدر به إليه، أنه لا يتركهم، وأنه يقاتلهم على فعلهم حتى يظهر الله، عز وجل، الحق ويزهق الباطل من الخلق، وهذا معنى إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين لما أرادوا من هلاك المؤمنين، وكذلك كان فعله بأهل خيبر حتى أخذوا وأسروا وقتلوا وسبوا، فهذا قولنا في إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين، لا ما ذهب إليه من خالف المحقين، وعند من قول الصدق في رب العالمين.

تم جواب مسألته

(١) في ب: بحاف. والمراد قطع الخشب التي هي بمثابة قوائم للأبواب والنوافذ، وهي التي تشد الجدر بعضها إلى بعض.

(٢) الحشر: ٣.

(٣) في أ، ب: فهو.

(٤) في طبقات ابن سعد تايد لتفسير الإمام يحيى لمصدر الرعب الذي ألقي في قلوب بني النصير، حيث «اعتزلتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤه من عطفان». راجع (الطبقات الكبرى) جـ ٢. القسم الاوب. ص ٤١.

المسألة السادسة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن الذَّرْو بالإرادة فقال: خبرونا عن الذرو بالإرادة، فإن الله يقول: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾**(1)، فسلهم: هل يستطيع هؤلاء أن ينقلبوا عما ذرأهم الله له؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا وزعموا أنهم يستطيعون أن يبدلوا خلقهم وإرادة الله فيهم، وإن قالوا: لا، كان نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**، فقال: هل يستطيع أحد أن يخرج أو ينتقل مما ذُرِىء له، وتوهم، بل قال: إن الله ذو الجلال والإكرام خلق لجهنم قوماً كافرين ذرأهم وأوجدهم إبتداء فاسقين وخلقهم ضالين مضلين، لا ينفع فيهم دعاء، ولا يقدرون طول الزمان على الإهتداء، لما قد خلقوا له من الشقاء، فهم أبداً بفعل الفواحش مولعون، ولعمل الهدى غير مطيقين، وأنهم على ذلك مجبولون. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فنقول في ذلك على الله بالحق، والله الموفق لكل خير وصدق، فنقول: إن معنى الآية خلاف ما ذهب إليه الحسن بن محمد، وإن القول خلاف ما قال به فيه، بل معناه على الصدق والمَعاد، لِعِلْم الله بما يكون من العباد، فقال: «ذرأنا»، فأخبر عما سيكون في آخر

---

(1) الاعراف: ١٧٩.

الأمر ويوم القيامة والحشر من الـذرو الثانـي لا الـذرو الأول الماضـي، فكذلك «الله»[1] رب العالمين يذرأ لجهنم في يوم الـدين جميع من مات علـى كفـره من الكافرين فيعذبهم على فعلهم ويعاقبهم على ما تقدم من كفرهم، كما قال الرحمن الرحيم الرؤوف الكريم: **﴿كل نفس بما كسبت رهينـة إلا أصحـاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين، ما سلككم في سقر، قالوا: لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾**[2].

فهذا معنى ما ذكر الله من الذرو في الكتاب، لا ما ذهب إليه الحسن بـن محمد ذو الشك والارتياب، من أن الله، سبحانه، خلق للنار خلقاً تعمل بالمعاصي أبداً، لا يقدرون على هدى ولا طاعة في سنة ولا شهر ولا يوم ولا ساعة، وأن الله، سبحانه، خلق للجنة أصحاباً مجبولين لله على الطاعة في كل الأسباب.

فيا عجباً من قولهم المحال! وكذبهم على الله في المقال!، فأين، ويحهم! المعاصي والطغيان ممن عمل بما ألزمه الله في كل شأن؟ بل كُلٌّ مطيع، وفي مراد الله سريع؟ فإن كان ذلك من الله كذلك، فَلِمَ بعث الأنبياء إليهم يدعونهم؟ وأوجب عليهم طاعتهم؟!، وطاعة الأنبياء «هي»[3] العمل بطاعة الله، ومعصيتهم «هي»[4] المعصية لله، «قال»[5] الله، سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعـوا الله وأطيعـوا الرسول﴾**[6]، وقال: **﴿ومن يطع الله ورسولـه ندخلـه جنـات تجـري من تحتهـا الأنهار﴾**[7]، وقال: **﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم﴾**[8]، وقال: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾**[9]، وقال: **﴿ففِرّوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾**[10]، فأين الطاعة ممن جبل على المعصية؟ وأين الفرار ممن منعه منه الجبار؟ وكيف لا يعصي الرسول والرحمن «الرحيم»[11] من قد حيل بينه وبين الإحسان!؟

---

(1) غير موجودة في أ.
(2) المدثر: ٤٢.
(3) في أ، ب: فهي.
(4) في أ، ب: فهي.
(5) في أ، ب: فقال.
(6) النساء: ٥٩، محمد: ٣٣.
(7) النساء: ١٣، الفتح: ١٧.
(8) الجن: ٢٣.
(9) النساء: ١، لقمان: ٣٣.
(10) الزاريات: ٥٠.
(11) سقطت من أ.

ومن ذلك قول إبراهيم، صلى الله عليه، لأبيه: ﴿**يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً**﴾[1]، فماذا يقول الكافرون وينسب إلى الله وإلى نبيه الضالون في هذا العلم الذي جاء ابراهيم؟ أتراه أتاه من العلم، إن كان الله قد خلق أباه للنار، أن أباه يقدر أن يخرج إلى غير ما خلقه الله له من النار حتى يصير إلى الجنان؟ أم يقولون إن العلم الذي جاء هو أن أباه إن كان الله، جلى ثناؤه، خلقه للشقاء، وحال بينه وبين الهدى، يقدر على مغالبة الرحيم، والخروج مما أعد له من الجحيم، والمصير إلى دار النعيم؟ والله، سبحانه، المخلف لذلك، بل جبله على غيره ومنعه من رشده؟ أم تقولون في إبراهيم الأواه الحليم الصديق الكريم أنه دعا أباه إلى إتباعه وضمن له ما ضمن من إرشاده ونهاه عن عبادة الشيطان الرجيم وأمره بطاعة الرحمن الرحيم، وهو يعلم أن الله، جل جلاله، قد منعه من الخير، وأدخله إدخالاً في الشر والضير؟! فلقد، إذا، أمره بمغالبة ربه، وهجره واعتزله على غير دينه.

ثم يقال لهم: خبرونا، وعما نسألكم عنه أجيبونا: هل بعث الله، جل ثناؤه، نبيه إلى الخلق طراً؟ فإنه يقول: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾[2]، يدعوهم إلى طاعته وينهاهم عن معصيته، أم بعثه إلى بعض ولم يبعثه إلى بعض؟ فإن قالوا: بعثه إلى الخلق طراً، فقل: فما دعاهم إليه؟ فإن قالوا: إلى الثبات على ما هم عليه من الكفر، كفروا، وإن قالوا: دعاهم إلى الإيمان، قيل لهم: فهل يقدرون على ذلك من الشأن؟ وقد جبلوا، على قولكم، على الكفران؟!، فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم، وإن قالوا: لا، جهلوا ربهم ونبيهم، إذ زعموا أن الله، سبحانه، بعث نبيه يدعو إلى الخير والهدى من لا يقدر على الإهتداء، ومن قد حال الله بينه وبين التقى، وهذا فاحش أفعال الظلمة الجهال، وما لا يجوز في الله ذي الجلال أن يحول بين عبده وبين طاعته ثم يرسل إليه ويأمره بمرضاته وقد أخرجه منها وأدخله في ضدها، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

تم جواب مسألته

(١) مريم: ٤٢، ٤٣. وفي ب الاية مذكورة خطأ هكذا: (أهدك صراطاً مستقيماً).
(٢) سبأ: ٢٨.

المسألة السابعة والعشرون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، عز وجل: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾**[1]، فقال لهم: خبرونا عن هؤلاء الذين قال الله: **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾**، هل يستطيعون أن يكونوا على غير ما وصفهم الله به؟ وأن يتركوا ما خلقهم له؟ فان قالوا: لا يستطيعون، فقد أجابوا وصدقوا، وإن قالوا: نعم، هم يستطيعون أن يكونوا على غير ما خلقهم، فقد كذبوا وخالفوا، وإن زعموا أن الله، جل ثناؤه، انما خلق أهل الإيمان للرحمة، فنحن نقبل منكم ونصدقكم إن زعمتم أن الله، جل ثناؤه، خلق خلقاً من خلقه خصهم بالرحمة، فلا يستطيعون أن يكونوا على غير ما خلقهم، لأنه قد استثنى لهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾**، فإنا نقول: إن معنى قوله: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» هو إخبار عن قدرته وانفاذ ما شاء من إرادته، فأخبر، سبحانه: لو شاء أن يجعلهم أمة واحدة لجعلهم قسراً ولأدخلهم في طاعته جبراً، ولكنه لم يرد قسرهم على ذلك، ولم يرد أن يدخلهم في الطاعة كذلك، للحكمة النيرة والحجة الباهرة، ليُثِيبَ، على عملهم، المثابين، ويعاقب، على اجترامهم، المعاقبين، لا ما يقول به المبطلون، ويذهب إليه الجاهلون، من أنه لم يرد من العاصين الطاعة ولم يكره من الفجرة المعصية، وأنه لو أراد ذلك منهم لفعلوه، ولو شاء أن يعبدوه لعبدوه، وقالوا على الله، عز وجل،

---

(١) هود: ١١٨

الأقاويل الردية، و «ضاهوا»[1] في ذلك قول الجاهلية حين قالوا: ﴿**لو شاء الرحمن ما عبدناهم**﴾[2]، وقال، سبحانه، يكذبهم فيما وهموا من أنه يريد عبادة أحد دونه، أو أنه لا يشاء أن يعبدوه: ﴿**ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يَخْرُصُون، أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون**﴾[3]، ثم أخبر بما به عبدوا من يعبدون، ومن به، في ذلك، يقتدون، فقال: ﴿**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**﴾[4]، ثم أخبر نبيه، صلى الله عليه وآله، بقول من كان قبلهم ممن أهلك بمثل قولهم، فقال: **وكذلك ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[5]، فكيف يقول الجهال وأهل الغي والضلال أن الله سبحانه، يشاء من عباده، أو لهم، الكفر؟ وقد يسمعون في ذلك قوله، ويرون ما نزل بإخوانهم، على قولهم، من نكير قولهم، أولم يسمعوا الله، سبحانه، يقول: ﴿**إن تكفروا فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر**﴾[6]، فقال: ﴿**إن تكفروا**﴾، فأخبر بذلك أن الكفر فعل منهم ولهم، إذ نسبه، سبحانه، إليهم، وذكره عنهم، ثم قال: ﴿**لا يرضى لعباده الكفر**﴾، فأخبر أنه لا يرضى ما كان من كفرهم، فكيف يقول الجاهلون، في ربهم. إنه قضى بما لم يرض لهم عليهم؟! فأكذبوا في ذلك رب الأرباب وعاندوه في كل الأسباب، فقالوا: إنه رضي بما قال، سبحانه، أنه لم يرضه، وقالوا: انه سخط ما قال أنه رضيه، فعاندوه في ذلك عناداً، وجاهروه بالمكابرة جهاراً، ففي هذا، والحمد لله، من البيان ما يكفي عن ذكر غيره من الحجج والبرهان.

وأما قوله، جل جلاله[7]: ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾، فإنا نقول في ذلك بالحق «المبين»[8] على رب السماوات والأرضين، فنقول: ان معنى قوله: «ولا يزالون مختلفين»، أي لا يزال أهل الحق لأهل الباطل

---

(١) في ب: ظاهوا

(٢) الزخرف: ٢٠. والاية في ب مذكورة خطأ هكذا: (ولو شاء الله).

(٣) الزخرف: ٢١.

(٤) الزخرف: ٢٢.

(٥) الزخرف: ٢٣.

(٦) الزمر: ٧.

(٧) في ا: بزيادة: «عن يحويه قول أو يناله»، وصحنها عن أن يحويه.

(٨) سقطت من ب.

مخالفين، وعليهم في باطلهم وفسقهم منكرين، «ولذلك خلقهم» رب العالمين، وبه أمرهم، سبحانه أكرم الأكرمين، فخلق جميع خلقه ليعبدوه لا ليعصوه، وأمرهم أن يطيعوه ولا يخالفوه، وأن يجاهدوا الكافرين كافة أجمعين حتى يفيئوا إلى طاعة رب العالمين، فخلقهم، سبحانه، لما شاء من ذلك، وشاء ما أمرهم به، وأمرهم بما خلقهم له من طاعته ومجاهدة أعدائه والنصر لأوليائه، فقال، سبحانه، في ذلك: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾[1]، وقال: ﴿**قاتلوا الذين يَلُونكُم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[2] وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة**﴾[3]، وقال: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم،أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه،أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾[4]، ففي كل ذلك يأمر المحقين بمخالفة المبطلين، وبالبراءة والعداوة للفاسقين الناكثين، وبالتحاب والتواصل والتبارّ والتواخي على الدين. ومن ذلك ما يقول، جل جلاله أكرم الأكرمين: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾[5]. وقد قيل في قوله: ﴿**ولذلك خلقهم**﴾ إنه مردود على ما ذكر من الرحمة، وكل ذلك، والحمد لله «جائز»[6] أن يقال به على ذي الجلال والقدرة، لا ما يقول الضالون: إن الله عز وجل، خلقهم للضلال والإختلاف، وركب فيهم العداوة وقلة الإئتلاف، وكيف يكون ذلك والله يأمر بقتال من بغى وظلم وتجاهل وأساء حتى يفيء إلى البر والتقوى، وذلك قوله، تبارك وتعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾[7]، ففي هذا، والحمد لله، من الدلالة على ما قلنا ما أجزى وكفى.

تم جواب مسألته

---

(١) التوبة: ٣٦.
(٢) التوبة: ١٢٣.
(٣) الممتحنة: ١.
(٤) المجادلة: ٢٢.
(٥) الحجرات: ١٠.
(٦) في ا، ب: فجائز
(٧) الحجرات: ٩.

المسألة الثامنة والعشرون

ثم أتبع ذلك الحسن بن محمد المسألة عن قول الله، سبحانه: «ان الانسان **خلق هلوعاً**»، فقال: خبرونا عن قول الله: **﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً﴾**، ثم استثنى أيضاً، فقال: **﴿إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾**[1]، فيقال لهم: ألا ترون أن الله، عز وجل، قد صنفهم صنفين، فمنهم من خلقه هلوعاً جزوعاً، ومنهم من لم يخلقه كذلك، فأخبرونا: هل يستطيع هذا الذي خلقه خلوقاً جزوعاً منوعاً أن يكون على غير ما خلقه الله عليه؟ فإن قالوا: نعم، فقد زعموا أن الناس يقدرون على أن يبدلوا خلق الله الذي خلقهم عليه، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

أوما ما سأل عنه، وتوهم أنه قد تعلق في شيء منه بحجة له من قول الله؛ **﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون﴾**، فقال: إن الله عز وجل، قد صنفهم صنفين، وخلقهم خَلْقَيْن، فجعل منهم هلعين «جزعين»[2]، وآخرين صابرين، ثم قال: هل يقدر من خلقه الله هلوعاً جزوعاً «منوعاً»[3] أن يكون محسناً قوياً صبوراً؟ فقولنا في ذلك، إن شاء الله، بما هو الحق، لا قول غيرنا، فنقول: إن الله، جل ثناؤه، لم يخبر عن فعله، ولا أنه خلق هلعهم، ولا جعل في ذي الصبر والإحسان صبرهم، وإنما أخبر، سبحانه، عن ضعف بنية الإنسان وأنه لا يحتمل ما اشتد وصعب من الشأن، فدل بذلك من ضعف بنية الآدميين ومن قوة غيرهم من المخلوقين، واختلاف طبائع المربوبين من الجان والملائكة المقربين على قدرة رب العالمين

---

(١) المعارج: ١٩.　(٢) غير موجودة في ب.　(٣) غير موجودة في أ.

وخالق السماوات والأرضين، وأخبر، سبحانه، أنه خلق خلقه أطواراً مختلفة، وجعل البِنْيَة فيهم غير مؤتلفة، فكلف كل صنف منهم دون ما يطيقه أضعفهم، فكلف الملائكة المقربين ما لم يكلف الجان أجمعين وكلف الإنسان دون ما يطيق من الشأن، فكانت بنية الملائكة وطاقتهم خلاف بنية الجان وحالتهم، وكانت بنية الجان واقتدارهم خلاف بنية الإنس واستطاعتهم، وكذلك افتراق كل ما خلق رب العالمين، فكل ما خلقه فهو على تركيب رب العالمين ليس فيه تفاوت، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كَرَّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**﴾[١]، وكذلك كل شيء خلقه، سبحانه، من الأشياء، وذلك كله «دليل»[٢] على قدرة الرب الأعلى، وخالق الأرضين والسماوات العُلَى، فأخبر الله، سبحانه، عن بنية الإنسان بالضعف والسحاقة[٣] ولم يكلفه في ذلك الا دون الطاقة، فلذلك ما قال، سبحانه: «ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعا»، يقول: جعل على بنية لا تطيق الأمر الشديد، فهو يهلع، ومن كل فادح يجزع، ثم قال: ﴿**إلا المصلين**﴾، وأخبر أن من كان لله مطيعاً من المؤمنين أصبر عند المحنة من الفاسقين، وأن المحنة لا يطيق لها ولا يقوم لها من الناس إلا ذوو الإصطبار من عباده الصالحين، وأمر، سبحانه، نبيه والمؤمنين بالصبر، فقال: ﴿**واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾[٤]، وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[٥]، فأمرهم بالصبر وحضهم عليه في كل أمر، ونهى من يطيق ويحتمل عن الوهن والعجز فقال: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا**﴾[٦] وتدعون الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم[٧].

ولو كان خلق الوهن وما كان من أفعالهم لما كان جزع ولا هلع ولا صبر ولا

---

(١) الملك: ٣، ٤.

(٢) في ١، ب: فدليل.

(٣) من معانيها اللين الشديد، وهو المراد هنا.

(٤) لقمان: ١٧.

(٥) آل عمران: ٢٠٠.

(٦) آل عمران: ١٣٩.

(٧) عبارة الأصل في النسختين مضطربة، ففي ب: «وقال فلا تهنوا وأنتم وتدعون. وفي أ: . . . تحزنوا عو إلى السلم. . .».

عَدَّدَ من أعمالهم، بل كان عمله، سبحانه، لا عملهم، وفعله كل ذلك لا فعلهم، ولو كان ذلك فعل الرحمن لما أثاب على صبره الإنسان.

ألا تسمع كيف يقول ذو الجلال والقدرة والطول: ﴿**بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين**﴾[1]، وقال، سبحانه: ﴿**والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾[2]، فضمن للصابرين على الجهاد النصر، وللعاملين المؤدين للفريضة المغفرة والأجر، وقال، سبحانه، يحكي عن رسوله، صلى الله عليه وآله، ما قال لأبي بكر، إذ هما في الغار من المشركين مختفيان، إذ هلع أبو بكر وحزن وجزع، فقال، صلى الله عليه وآله: ﴿**لا تحزن ان الله معنا**﴾[3]، فنهاه عن الحزن.

ولو كان الهلع والحزن والجزع تركيباً في الإنسان من الله الواحد ذي السلطان لما أمره الرسول صلى الله عليه وآله، بتركه، ولما قدر على رفض ما كان فيه من ربه، ولكان من هلع وجزع عند الله كمن أطاع وصبر وسمع، إذ هما من الله فِعْل في العالمين، وهم، إن كان ذلك، طرا مطيعون، إذ هم في كل ما صرفوا متصرفون، ولو كان ذلك فعلاً من الله فيهم، وكان على ذلك خلقهم لم يلمهم ولم يعاقبهم على الجزع والجبن والإنهزام وتولية الأدبار عند لقاء الفسقة الأشرار، وذلك قوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو مُتحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾[4]، فكيف يوجب الغضب عليهم ويجعل النار مأواهم على فعل ما عليه خلقهم وسَوَّاهم!؟ تعالى الله عن ذلك وتقدس أن يكون كذلك، بل ذلك فعل منهم، ولذلك رجع وباله عليهم، فمن كان لله مريداً صبر عند المحنة ومن كان عنه

---

(١) آل عمران: ١٢٥.
(٢) الأحزاب: ٣٥.
(٣) التوبة: ٤٠.
(٤) الأنفال: ١٦.

بعيداً هلع، وعند النوازل جزع، وإنما يكون ذلك على قدر اليقين والتسليم لله من المؤمنين.

ومن ذلك يوم حنين، حين انهزم المسلمون وجزعوا، وثبت مع رسول الله، صلى الله عليه وآله، الذين ثبتوا، ثم ناداهم الرسول فرجعوا، أفيقول الحسن بن محمد: إن الله، سبحانه، خلقهم جُزَّعاً، فانهزموا لما خلقهم عليه من الجزع، ثم ناداهم الرسول فاستحيوا منه فكروا، وعن خلق الله الذي خلقهم عليه غيروا، فتركوا ما ركب الله من الجزع والجبن!؟ أم يقول: إن الله عز وجل، خلقهم في أول الأمر جزعاً هلعاً، ثم نقل خلقهم آخر، فجعلهم صبراً!؟ لقد ضل إذاً ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً، بل ذلك منهم كله أوله وآخره، ولذلك أثيبوا على الرجوع، ولو لم يرجعوا لعوقبوا على الذهاب والشسوع، فليفرق من عقل بين ما أخبر الله، سبحانه، عنه وبين ما فعله وجعله، فبينهما، ولله الحمد، فرق عند ذوي «العقول»[1] عظيم، وأمر «واضح»[2] في اللسان بين جسيم.

تم جواب مسألته

(١) في أ: الأذهان.

(٢) غير موجودة في أ.

المسألة التاسعة والعشرو ن

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه، حين يقول للمؤمنين: «**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾[1]، هل كان هؤلاء الذين ذكر يستطيعون أن يقبلوا الهدى وأن يسمعوا المنفعة في دينهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله: ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾، فتوهم أنهم كانوا لا يسمعون لصمم جعله الله، سبحانه، في آذانهم، أو لسبب جعله حاجزاً بين الهدى وبينهم، وليس ذلك، والحمد لله، كذلك، ولو كان الله فعل ذلك بهم لما عاب صممهم، ولكان أعذر لهم من أنفسهم، ولما بعث إليهم المرسلين، ولا أمرهم باتباع المهتدين، وإنما أراد الله، سبحانه، بذلك حض المؤمنين على الطاعة لرب العالمين، والإستماع لسيد المرسلين، فقال للمؤمنين: ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾، يقول: لا تكونوا كالذين قالوا أطعنا بألسنتهم وهم كاذبون في قلوبهم، بل قلوبهم منكرة لذلك جاحدة له، يدارون بالقول خوفاً من المؤمنين والرسول ويكفرون من «ورائه»[2] بكل الدين والتنزيل، وهم الذين قال فيهم الرحمن الجليل: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾[3]، وقال: ﴿**يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم**﴾[4]وهم الذين قال الله فيهم من

---

(١) الأنفال: ٢١.
(٢) في ب: راه.
(٣) البقرة: ١٤.
(٤) الفتح: ١١.

منافقي قريس والأعراب وغيرهم: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾[1]. فنهى المؤمنين عن مشابهة المنافقين، ولم يكن قوله ما قال إخباراً منه بتركيب ما ذمه منهم فيهم، ولو كان الله، سبحانه، فعله فيهم لما نهى المؤمنين عن ذلك، إذ هو فعله لا فعلهم، فكيف ينهاهم عن أن يفعلوا فعله، ولو جاز أن ينهاهم عن فعل ما فعله فيهم لكانوا مقتدرين على أن يفعلوا كفعله، إذاً لخلقوا كخلقه، ولو خلقوا كخلقه لامتنعوا بلا شك مما يكرهون من أفعاله، من موتهم وابتلائه إياهم بما يبتليهم به وليُزيدوا فيما آتاهم مما يحبونه، فتعالى من هو على خلاف ذلك والمتقدس عن أن يكون كذلك.

وأما ما سأل عنه من قول الله سبحانه: ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ فقال: هل كان هؤلاء يقدرون على أن يقبلوا الهدى؟ أو أن يسمعوا ما يُدلَون عليه منه؟ فصدق الله سبحانه: ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾[2] يقول: الذين لا يهتدون إن هُدوا، ولا يقبلون الحق إن دُعوا، ولا ينتهون إذا نُهوا، فضرب الله لهم ذلك مثلاً إذ كانوا في الضلال على هذه الحال، وهم في ذلك لقبول الحق مطيعون، وعلى اتباع الصدق مقتدرون، فلما أن تركوا ذلك شبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون إذ تركوا فعل ما كانوا يطيقون.

تم جواب مسألته

---

(١) المنافقون: ١.

(٢) الأنفال: ٢٢.

المسألة الثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عما ضرب الله «عز وجل»[1] للمنافقين من المثل في قوله: ﴿**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون**﴾[2] فنقول: ألا يرون أن الله هو الذي ذهب بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون؟ فأخبرونا هل كان هؤلاء «يستطيعون»[3] سماع الهدى، وقد وصفهم الله سبحانه بالصمم وهل كان لهم أن يقبلوا الهدى وقد وصفهم الله سبحانه بالعمى؟ وهل كانوا ينتفعون بنور الهدى وقد ذهب الله به؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله وجحدوا بآياته، وإن قالوا: لا، كان ذلك نقضاً لقولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، في المنافقين، وما ضرب لهم من المثل في قوله: ﴿**مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون**﴾ فقال: ضرب مثلهم ثم جهل فقال: خلقهم وكفرهم، فرجع عن الحق الذي نطق به في أول كلامه حين يقول: ضرب مثلاً، ثم قال: هل يستطيعون سماع الهدى، وقد وصفهم الله، جل ثناؤه، بالصمم والعمى؟ فقولنا في ذلك: أن الله، جل وعلا، لم يخلقهم كذلك، ولم يجعلهم عمياً، ولا عن سماع الخير والتقى صماً، وأن الله تبارك، وتعالى، ضرب لهم هذا مثلاً، فقال، سبحانه: إن هؤلاء الذين أتاهم

---

(١) غير موجودة في أ.

(٢) البقرة: ١٨.

(٣) في أ، ب: لايستطيعون.

الهدى وكشف لهم عن الحق الغطاء فأنار لديهم، وثبت في صدورهم، وأيقنوا أنه من عند خالقهم، فكفروا بربهم، وخالفوا أمر نبيهم، وآثروا ظلمتهم على ما أضاء من الحق لهم، فتركهم الله وخذلهم، ومثّلهم إذ تركوا حظهم، وما أنار من الحق عندهم، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم فكان الذي شبهه بضوء النار هو الهدى الذي أخرجه الله لهم وامتَنَّ به عليهم، فتركوه ولم يتبعوه، ولم يستضيئوا بنوره، وناصبوه وعاندوه، لا ما يقول الحسن بن محمد أن الله، سبحانه، فعل ذلك بهم، وجعلهم عن إستماع الحق صماً وعمياً، وعن قبول الصدق حاجزاً، فجهل الفرق بين المَثَل والفعل، وكيف يجعلهم الله كذلك، ويخلقهم على ذلك، ثم يرسل إليهم نبيه يدعوهم إلى الهدى ويخرجهم من الحيرة والعمى، وهم عن الخروج ممنوعون وعن الدخول في الحق مصروفون؟ فالله سبحانه، إذا أرسله يدعوهم إلى الخروج عما فيه أدخلهم، وعليه، جل وعز، عن ذلك، جبلهم، فنسبوا في ذلك الى الله الإستهزاء واللعب والإعماء والجهالة والخطأ والظلم لعباده، والفساد في بلاده. كذب القائلون على الله بذلك، وضلوا ضلالاً بعيداً.

تم جواب مسألته

المسألة الحادية والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الإملاء: **﴿ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾**[1] فقال: خبرونا عن قول الله: **﴿ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾**، فقال: أخبرونا عن هؤلاء، الله أراد بهم في إملائه لهم ليزدادوا إثماً، كما قال؟ فإن قالوا: نعم، نقض ذلك قولهم، وإن قالوا لا، كذبوا. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: **﴿ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾**، فقال: إن الله أملي لهم ليزدادوا في الكفر والإجتراء عليه، وليس ذلك كما قال، بل قوله أحول المحال، وسنشرح ذلك، والقوة بالله، ونفسره، ونذكر ما أراد الله، إن شاء الله، به، فنقول: إن معنى إملائه لهم هو لأن لا يزدادوا إثماً وليتوبوا ويرجعوا، ومن وَسَنِ ضلالتهم ينتهوا، لا ما يقول أهل الجهالة ممن تحير وتكمه في الضلالة: أن الله أملى لهم كي يزدادوا إثماً وضلالة واجتراء، وكيف يملي لهم كذلك وقد نهاهم عن يسير ذلك فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾**[2]، فنهاهم عن يسير الإثم وقليله، فكيف يملي لهم ليزدادوا من عظيمه وكثيره؟

فأما قوله: **﴿ليزدادوا إثماً﴾** فإنما أراد، سبحانه لأن لا يزدادوا إثماً، فطرح

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الحجرات: ١٢.

«لا ، وهو يريدها ، فخرج لفظ الكلام إخباراً ومعناه معنى نفي ، والعرب تطرحها وهي تريدها وتثبتها وهي لا تريدها ، قال الله ، سبحانه : ﴿**لئَلاَ يعلم أهل الكتاب ألاَ يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾[1]، فقال : «لئلا» فأثبت «لا» وهو لا يريدها ، فخرج لفظ الكلام لفظ إيجاب ومعناه معنى نفي ، أراد ، سبحانه ، ليعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ، وهذا «موجود»[2] في أشعارهم مثبت في أخبارهم .

قال الشاعر :

نزلتم منزل الأضياف منا فجعلنا القِرَى أن تشتمونا

فقال : فجعلنا القرى أن تشتمونا ، وإنما معناه : فجعلنا القرى لأن لا تشتمونا ، فطرح «لا» وهو يريدها ، فخرج لفظ الكلام بخلاف معناه . وقال آخر :

ما زال ذو الخيرات لا يقول ويصدق القول ولا يحول

فقال : لا يقول ، فأتى بـ «لا» وهو لا يريدها ، ولأن معناها : ما زال ذو الخيرات يقول ، فخرج اللفظ خلاف المعنى .

تم جواب مسألته

(١) الحديد : ٢٩ .

(٢) في أ ، ب : فموجود .

المسألة الثانية والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله عز وجل، في الإغفال: ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً**﴾[1]، فقال: أخبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فان قالوا: نعم، فقد كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾، فقال: خبرونا عن هذا الذي أغفل الله قلبه عن ذكره، هل أراد الله أن يطيعه؟ فتوهم، ويله وغوله إن لم يتب من الله ويحه!!، أن الله تبارك وتعالى، أدخله في الغفلة، وحال بينه بذلك وبين الطاعة، فليس كما توهم، ألا يسمع الى قول الله، عز وجل: ﴿ **واتبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾، فأخبر، سبحانه، أنه متبع في ذلك لهواه، ضال عن رشده، تارك لهداه، ولو كان ذلك من الله لم يكن العبد مُتْبِعا لنفسه هواه، بل كان داخلاً لله فيما شاء وارتضى، وسنفسر معنى الاية، إن شاء الله، والقوة بالله وله: إن الله تبارك وتعالى، نهى نبيه عن طاعة من أغفل قلبه ممن آثر هواه على هداه، وأما معنى ما ذكر الله، سبحانه، من الإغفال فقد يخرج على معنيين، والحمد لله، شافيين كافيين:

أحدهما: الخذلان من الله والترك لمن اتبع هواه وآثره على طاعة مولاه، فلما أن عصى وضل وغوى، وترك ما دل عليه من الهدى، استوجب من الله الخذلان، لما كان فيه من الضلال والكفران، فغفل وضل وجهل إذ لم يكن معه من الله توفيق ولا إرشاد، فتسربل سربال الغي والفساد.

---

(١) الكهف: ٢٨.

وأما المعنى الاخر: فبَيِّن في لسان العرب موجود، معروف عند كلها محدود، وهو أن يكون معنى قوله: ﴿**أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾ أي تركناه من ذكرنا، والذكر «هو»[1] التذكرة من الله والتنبيه والتسديد والتعريف والهداية الى الخير والتوفيق، فيقول، سبحانه: تركنا قلبه من تذكيرنا وعوننا وهدايتنا، بما أصر عليه من الإشراك بنا والإجتراء علينا، تقول العرب: يا فلان أغفلت فلاناً، ويقول القائل: لا تغفلني، أي تتركني، وتقول العرب: قم مني، أي قم عني، فتخلف بعض حروف الصفات ببعض وتقيم بعضها مقام بعض.

قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت لدى لُجَجٍ خضر لهن نئيج

فقال: لدى لجج، وإنما يريد: على لجج، فذكر السحاب وشربها من البحار واستقلالها بما فيها من الأمطار. وقال آخر:

أغفلت تغلب من معروفك الكاسي فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي

فقال: أغفلت تغلب من معروفك، أي تركتها من عطائك ونوالك ومنتك وأوصالك، ثم قال: فخلت قلبك منهم مغضباً قاسي، فقال: منهم، وإنما يريد: عليهم مغضباً، فأقام حرف الصفة وهو «من» مقام أختها وهي «على»، فأقام «منهم» مقام «عليهم»، فهذا معنى الاية، إن شاء الله، ومخرجها، لا ما توهم الجهال على ذي المعالي والجلال من الجبر لعباده والإضلال والظلم والتجبر بالإغفال.

تم جواب مسألته

---

(١) في أ، ب: فهو.

المسألة الثالثة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله في الأز، فقال: خبرونا عن قول الله، سبحانه: ﴿**ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزاً**﴾[1]، فيقال لهم: هل أراد الله سبحانه أن يؤمن هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين؟ فإن قالوا: نعم، فقد كفروا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: ﴿**ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزاً**﴾، فقال: هل أراد الله من هؤلاء الذين أرسل عليهم الشياطين تأزُّهم أن يكونوا به من المؤمنين؟ وبما أنزل، عز وجل، من المصدقين؟ وقد أرسل عليهم مردة الشياطين؟! فتوهم، بجهله، أن الله أرسل الشياطين على الادميين إرسالاً، وجبرهم على تحييرهم وتضليلهم جبراً، وأدخل الشياطين في إغوائهم قسراً، ليضلوهم عن الهدى ويوقعوهم في الردى، وأن ذلك كان من الله للشياطين أمراً وقضاء قضى به عليهم قسراً، وليس ذلك كما قال، ولا على ما ذهب إليه من فاحش المقال، وكيف يرسل الشياطين على عباده إرسالاً، ويدخلها في الإغواء لهم إدخالاً، ثم يعذبها عليه، ويعاقبها فيه؟! ألا تسمع كيف يقول، سبحانه: ﴿**لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾[2]؟، فلم، إن كان أرسله عليهم، إذاً يعاقبه على ما صنع فيهم؟ بل هو على غير ما يقول في الرحمن أهل الضلالة والطغيان.

ثم نقول من بعد ذلك إن معنى قوله، سبحانه: ﴿**ألم ترأنا أرسلنا الشياطين**

---

(١) مريم: ٨٣.

(٢) ص: ٨٥.

على الكافرين «تأزهم»﴾[1] هو: خلينا ولم نحل بين أحد، من بعد أن أمرنا ونهينا[2].

وليس إرساله للشياطين إلا كإرساله للآدميين، فكل قد أمره بطاعته ونهاه عن معصيته وجعل فيه ما يعبده به من استطاعته، ثم بصرهم وهداهم ولم يحل بين أحد وبين العمل، فمن عمل بالطاعة أثابه ومن عمل بالمعصية عاقبه، ولم يخرج أحداً من معصيته جبراً، ولم يدخله في طاعته قسراً، فكان من أعطى من الجن والإنس من الإستطاعات وترك قسرهم على الطاعات إرسالاً وتخلية منه لهم في الحالات، لا ما يقول به أهل الجهالات. **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾**[3]، فلما أخذل الكافرين بكفرهم، ولعنهم بجرائمهم، وتبرأ منهم بعصيانهم، غويت بهم الشياطين وسولت لهم فأمْلَت فاتبعوها ولم يعصوها ويبعدوها، ولم يتذكروا عندما يطيف بهم طائف الشيطان، بل تكمهوا وغووا وعموا، ولم يكونوا في ذلك عنده كالذين اتقوا عند إلمام الشيطان بهم كما فعلوا، قال الله، سبحانه: **﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾**[4]، يقول، سبحانه: ذكروا ما نهاهم الله عنه «من طاعته»[5]، وأمرهم به من مخالفته، واتخاذه عدواً حين يقول: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**[6]، فلما أن طاف بالمؤمنين ودعاهم الى ما أجابه إليه من الكفر بالله الفاسقون، ذكروا الله وتذكروا أمره ونهيه، وما أمرهم به من طاعته وحذرهم من معصيته، فأبصروا الحق واجتنبوا اللعين وعصوه، وفيما دعاهم إليه من العصيان خالفوه. ألا تسمع كيف أثنى عليهم بذلك ربهم، وذكر عنهم سيدهم وخالقهم حين يقول: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**[7]، يقول، سبحانه: إن عبادي المؤمنين وأوليائي المتقين لا يجعلون لك عليهم سلطاناً

---

(١) غير موجودة في أ.

(٢) العبارة في ب هكذا: «خلينا ولم نحل وبين أنا من بعد أن أمرنا ونهينا».

(٣) الانفال: ٤٢.

(٤) الاعراف: ٢٠١.

(٥) غير موجودة في أ.

(٦) فاطر: ٦.

(٧) الحجر: ٤٢.

ولا يطيعونك فيما تأمرهم به من العصيان، بل يحترسون منك بطاعة الرحمن، وتلاوة القرآن، ويُخَلِّفونك صاغراً في كل شأن فلا يجري ولا يجوز لك عليهم سلطان، وليس تخليته للشياطين إلا كإذنه للساحرين حين يقول: **﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾**[1]، فإذنه في ذلك تخليته وترك الصرف، لهم جبراً، عن معصيته، والإدخال لهم، جبراً، في طاعته.

تم جواب مسألته

(١) البقرة: ١٠٢.

المسألة الرابعة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة «عن قول الله سبحانه»[1] في موسى، وما وعد أمه أن يرده إليها ويجعله من المرسلين، «فقال»[2] خبرونا عن قول الله، سبحانه: **﴿وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾**[3]، هل كان فرعون يستطيع أن يقتل موسى حتى لا يرده الله إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا وجحدوا، وإن قالوا: لا، فقد نقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله ،عز وجل، في موسى: **﴿وأوحينا الى أم موسى** أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين»، فقال: هل كان يستطيع فرعون أن يقتل موسى حتى لا يرده إلى أمه ولا يجعله من المرسلين؟ فقال: إن الله أخرج فرعون من أكبر المعاصي بعد الشرك به من قتله نبيه إخراجاً، ومنعه من معصيته منعاً، وقسره على الخروج قسراً، ولو جاز أن يخرج عدوه من معاصيه قسراً لكان قد أدخله في ضدها من الطاعة جبراً، ولو كان يخرج العاصين من معاصي رب العالمين لكان عباده المؤمنون أولى بذلك، ولو أخرج عباده ومنعهم من معاصيه قسراً لأدخلهم في طاعته جبراً، ولو فعل ذلك بهم لسقط معنى الأمر والنهي، ولكان العامل دونهم، الفاعل لأفعالهم، تعالى الله

---

(١) غير موجودة في ب.

(٢) غير موجودة في ب.

(٣) القصص: ٧.

عن ذلك، ولم يُطَع، سبحانه، مكرهاً، ولم يعص، جل جلاله، مغلوباً، بل نقول في ذلك بالحق، إن شاء الله فنقول: إن الله لما أن علم أنه إذ ألقى على موسى، صلى الله عليه، من المحبة التي ذكر أنه ألقاها عليه في قوله: **﴿وألقيت عليك محبة مني﴾**[1]، فلما ألقى عليه المحبة أحبته لذلك امرأة فرعون، فسألت فرعون تركه عندما هم به من قتله حين تبين له ما كان من فعله في صغره، فتركه لها، وصفح عنه بحب محبتها واتباع شأوها[2]، فكان ذلك نجاة لموسى مما هَمَّ به فيه فرعون الكافر الملعون، فلما أن علم الله سبحانه، أن ذلك سيكون من اختيار فرعون، وأنه سيختار إجابة امرأته الى ما طلبت من ترك قتل نبي الله، حكم عليه بما علم من صُيُور أمره، فكان ما ألقى عليه من المحبة منه، سبحانه، سبباً لنجاته، فنجاه الله من فرعون، ورده الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن فأخبر الله في ذلك، ووعدها ما وعدها لعلمه بما سيكون من امرأة فرعون وطلبها في موسى وإجابة فرعون لها كما أخبر عما يكون يوم الدين، فهذا معنى ما ذكر الله من ذلك، إن شاء الله، لا ما قاله الفاسقون، وذهب إليه الضالون.

تم جواب مسألته

(١) طه: ٣٩.

(٢) أحد معانيه: الغاية.

المسألة الخامسة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه: **﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾**[1]، وقوله: **﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين﴾** وقوله: **﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾**[2] «فقال»[3] أخبرونا عن بني آدم كلهم. هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً، فلا يعصوه؟، ويعبده كلهم حتى لا يعبدوا غيره؟ فيوجب لهم الجنة ويحرم عليهم النار فلا يدخلها أحد منهم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا بكتاب الله، وزعموا أنهم يقدرون على أن يبطلوا قول الله، تبارك وتعالى عن ذلك، «وإن»[4] قالوا: لا، لم يكونوا يستطيعون أن يطيعوا ولا يعبدوا، كان ذلك نقضاً لقولهم، وإبطالاً لحجتهم، تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار»** فقال: خبرونا عن قول الله: «**وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب انار﴾**، قال: هل يستطيع هؤلاء أن يطيعوا، وقد حق عليهم من الله القول والأمر ووقع الحكم والجبر؟ فتوهم الحسن بن محمد لقلة علمه وكثرة جهله أن الله تبارك وتعالى حكم عليهم بما أدخلهم فيه وجبلهم عليه، فظلم ربه وكفَّر نفسه، وليس ذلك على ما قال، ولا على ما ذهب إليه من

(١) غافر: ٦.

(٢) السجدة: ١٣. والنص في ب هكذا: إنهم أصحاب النار. وقوله ولكن حق القول مني... مع زيادة كلمة «التلاوة» قبل الاية.

(٣) في ب: فيقال.

(٤) في ب: فإن.

المحال، وسنفسر ذلك من قول الله، تبارك وتعالى، فنقول: إن الكلمة التي حقت هي حكمه على من كفر من الخلق بالنيران، من الجِنَّة والإنسان، فإن الله، تبارك وتعالى، علم بما سيكون منهم من العصيان والإحسان، فأوجب للمحسنين الثواب وعلى المذنبين العقاب.

«فأما»[١] ما سأل عنه من قوله: هل كانوا يستطيعون أن يطيعوا الله جميعاً فلا يعصوه؟ فكذلك نقول: إنهم كانوا يستطيعون طاعته، كما يطيقون معصيته، ولكنهم افترقت بهم الأهواء، فمنهم من اختار الإيمان والتقوى، ومنهم من اختار الضلالة والعمى، والله، تبارك وتعالى، «إنما»[٢] حكم بالنيران على من اختار من الثقلين العصيان أو كره ما أنزل الرحمن، فعِلْم الله وقع على اختيارهم وما يكون من أفعالهم، ولم يدخلهم في صغيرة، ولم يخرجهم من كبيرة، ولو علم أنه إذا دعاهم وبصرهم وهداهم أجابوه بأسرهم وأطاعوه في كل أمرهم، إذاً لأخبر بذلك عنهم كما أخبر به عن بعضهم، وكذلك لو علم أنهم يختارون بأجمعهم المعصية، لحكم عليهم بالنار كما حكم على الذين كفروا منهم. وأما قوله، سبحانه: **﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾** فكذلك الله، سبحانه، لو شاء أن يجبر العباد على طاعته جبرا، ويخرجهم من معصيته قسراً، لفعل ذلك بهم، ولو فعل ذلك بهم، وحكم به عليهم، لم يكن ليوجد ناراً، ولا ليخلق ثواباً، ولكان الناس كلهم مصروفين لا متصرفين، ومفعولاً بهم لا فاعلين، ولكنه، سبحانه، أراد أن لا يثيب «ولا يعاقب»[٣] إلا عاقلاً متخيراً «مميزاً»[٤] فأمر[٥] العباد ونهاهم وبصرهم وهداهم، وجعل منهم استطاعات ينالون بها المعاصي والطاعات، ليطيع المطيع فيستأهل بعمله وتخيره الثواب، ويعصى العاصي فيستوجب باكتسابه العقاب.

---

(١) في أ: وأما.

(٢) في أ، ب: فإنما.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) غير موجودة في ب.

(٥) العبارة في ب قد تقرأ: ممن أمر من العباد.

فأما قوله: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهو: وجب وحق الحكم مني بما حكمت به ومضى ووقع عليه ما جعلته من عقاب المذنبين وثواب المحسنين من الجنة والناس أجمعين، فهذا معنى قوله، سبحانه، لا ما قال المبطلون، ونسب إليه، سبحانه، الجاهلون، من ظلم العباد والإدخال لهم في الفساد.

تم جواب مسألته.

المسألة السادسة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، سبحانه: ﴿**أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾(1)، فيقال لهم: ألستم تقرون أنه قد فضل بعض خلقه على بعض في الدنيا والآخرة وخصهم؟ وخص بذلك بعض خلقه دون بعض؟ فإن قالوا: نعم، انتقض قولهم، وأن الطاعة والإيمان مما فضل الله به عباده وخصهم به من رحمته، وإن قالوا: لا، فقد جحدوا بآيات الله وكذبوا كتابه. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله «جل جلاله»(2): ﴿**أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾، فقال: إن الله سبحانه، فضل قوماً، بأن أدخلهم في الإيمان، على قوم، أدخلهم في الكفر والعصيان، فَضَلَّ بذلك وغوى، وهلك عند الله وشقى، ونسب إلى الله، سبحانه، من ذلك الجور والردى، فتعالى وتقدس عن ذلك ربنا، وليس كما قال الجهال، من أهل السفاهة والضلال، بل هو كما قال ذو الجلال، حين يقول: ﴿**يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور**﴾(3)، وكما قال، سبحانه، لنبيه، عليه السلام: ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، زهرة الحياة الدنيا**﴾(4)، ففضل بعضهم على بعض بما وهب من الذكور، وبما يجعل ويوسع به من الأرزاق، ويمن به ويتفضل على من يشاء من الأرفاق. وما يرزق من يشاء من الحسن والجمال والمنطق

---

(1) الإسراء: ٢١.

(2) في أ: سبحانه.

(3) الشورى: ٤٩.

(4) طه: ١٣١.

والكمال، وكم قد رأينا وفهمنا وعاينا من مولود يولد أعمى وآخر يكون ذا زيادة ونقصان، وآخر سَوِي غير زائد ولا ناقص، قد تمت عليه من الله النعماء، وصرفت عنه وعن والديه فيه البلوى، فهذا، وما كان مثله، مما فضل الله به بعضاً على بعض مما ليس لهم فيه على الله حجة، يفعل من ذلك ما يشاء، سبحانه ذو الجلال والحكمة، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وأما قوله: ﴿**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾، يقول: إن إعطاءنا وامتناننا ومجازاتنا لأهل طاعتنا في معادهم وآخرتهم على أعمالهم أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، على اجتهادهم في مرضاتنا، فمن كثر عمله بالخير كان عند الله في الآخرة أكبر درجات ممن نقص عمله، وذلك قوله، سبحانه: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون**﴾[1].

تم جواب مسألته

---

(١) الانعام: ١٦٠.

المسألة السابعة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة عن قول الله، تبارك وتعالى، لإبليس: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**[1]، وقال: **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾**[2]، وقال إبليس: **﴿لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلَصين﴾**[3]، فقال: أخبرونا عن هذا السلطان، ما هو؟ فإن قالوا: هو التخييل، فقل: فما أكثر ما لقي منه المؤمنون وأطفالهم، وإن قالوا: هو الدعاء فقل: فهذا ما لا يَدّعوا به المؤمن والكافر والخلق كلهم حتى عرض للأنبياء فدعاهم، والتمس فتنتهم فدعاهم كلهم إلى المعصية، وإن قالوا: هو التضليل، ولن يصل بذلك إلى عباد الله المؤمنين، لأن الله عصمهم، وهو الوكيل عليهم، فقد أجابوا، ونقض ذلك قولهم. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، عز وجل، لإبليس: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**، ومن قوله: **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾**، وعن قول إبليس حين قال: **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾**، فقال: ما هذا السلطان الذي ليس للشيطان على المؤمنين؟

---

(١) الحجرات: ٤٢.

(٢) النحل: ٩٩.

(٣) الحجر: ٣٩، ص: ٨٢، ٨٣.

فتوهم، لجهله وسوء نظره وعلمه، أن الله، تبارك وتعالى، حال بين إبليس وبين بعض العباد حولاً، ومنعه من الوسوسة لهم منعاً، وقسرهم عنه قسراً، وليس ذلك كما قال. ألا تسمع ما ذكر الله عن آدم وزوجته، وكيف كانت وسوسته لهما حتى أوقعهما فيه، وكذلك اعترض لعيسى ابن مريم حتى دحره ولم يطمعه في شيء مما ذكره، ولغيرهما من الأنبياء والمؤمنين، فلو منعه الله من أحد من المؤمنين منعاً وقسره على الوسوسة له قسراً، لكان ذلك لأبيهم آدم، صلى الله عليه، ولكنه، سبحانه، منعه من ذلك بالنهي له والزجر عما هو عليه من إغوائه، وعاقبه عليه، وأعد له النار والعذاب فيه، فقال: **﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**(1).

فأما السلطان الذي ذكر الله، عز وجل، أنه ليس له على المؤمنين، في قوله: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**، فهو ما علم من المؤمنين من طرده ودحره وترك طاعته في وسوسته وأمره، وأنهم لا يجعلون له عليهم سلطاناً بشيء من الطاعة له من العصيان لربهم، وأنهم لا يزالون مؤثرين لطاعة الرحمن محترسين من الشيطان بتلاوة القرآن والاعتصام بذي الجلال المنان، فهم أبداً لله مراقبون، وفي طاعته ساعون، وللشيطان اللعين معادون، كما أمرهم ربهم حين يقول: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾**(2)، وفي كل ما أمرهم به مخالفون، فأولئك هم المهتدون الذين على ربهم يتوكلون، فليس له على هؤلاء سلطان، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، وكذلك سلطانه على أوليائه، وهو دعاؤه لهم وإغواؤه إياهم، وقبولهم منه، ومثابرتهم عليه، فلما أن قبلوا منه ولم يعصوه كانت طاعتهم له السلطان عليهم إذ أطاعوه وفي دعائه أتبعوه.

تم جواب مسألته

---

(1) هود: ١١٩، السجدة: ١٣، ص: ٨٥.

(2) فاطر: ٦.

المسألة الثامنة والثلاثون

ثم أتبع ذلك المسألة فقال: أخبرونا، هل يخص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ وإنما هو أمر عام، فمن شاء ترك ومن شاء أخذ؟ فإن قالوا ذلك فقد كذبوا، والله، سبحانه، يخبر بخلاف قولهم إذ يقول لنبيه، عليه السلام: ﴿**ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك**﴾[1]، وقال، أيضاً، لمن أراد أن يخصه بالهدى من خلقه: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾[2]، وقال، أيضاً: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين**﴾[3]، فقال: أخبرونا عن الشرح، ما هو؟ أهو الهدى؟ أم الدعاء؟، فإن قالوا: إنه الدعاء، زعموا أن كل كافر مشروح الصدر بالإسلام، وإن الخلق كلهم جميعاً قد شرحت صدورهم، لأنهم قد دعوا كلهم، وإن قالوا: «هو الهدى الذي يَمُنُّ به على من يشاء من عباده»[4] فقد أجابوا. تمت مسألته.

جوابها:

وأما ما سأل عنه فقال: «أخبرونا»[5] هل يختص الله برحمته من يشاء من خلقه؟ أم ليست له خاصة؟ فإنا نقول كما قال الله سبحانه: ﴿**وأن الفضل بيد الله**

---

(١) الانشراح: ١، ٢.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

(٣) الزمر: ٢٢.

(٤) عبارة أ: هو المهدي من به على من يشاء.

(٥) غير موجودة في أ.

يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1]، ثم نقول: إن اختصاص الله برحمته من يشاء من عباده يخرج على معنيين.

فأما أحدهما: فهو مشيئته أن يزيد المهتدين هُدى ويزيد المؤمنين تقوى، وذلك قوله، سبحانه: **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾**[2]، وقوله سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾**[3]، فشاء، سبحانه، أن يزيد ويختص برحمته من ثابر على طاعته وسارع إلى مرضاته، كما شاء أن يخذل من آثر هواه وأسخط بفعله مولاه.

وأما المعنى الآخر: فهو ما يختص به من يشاء من السلامة والإغناء وصرف المكاره والبلوى، فتبارك الله الواحد الأعلى، فهذا ومثله معنى اختصاص الله بالرحمة لمن يشاء، لا ما يقول الفاسقون ويذهب إليه الضالون من أن الله تبارك وتعالى يخرج من المعصية عباده قسراً، ويدخلهم في طاعته جبراً.

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه، لنبيه صلى الله عليه وآله: **﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾**، فإنا نقول: إن الشرح من الله لصدره هو توفيقه وتسديده وترغيبه بالهدى وتأييده، وتعليمه ما كان يجهله، وتفهيمه، فشرح الله بالإيمان صدره، ورفع بالوحي المنزل قدره، وأما الوزر الذي وضعه الله عن ظهره، فهو ما يغفر له من ذنوبه، ومن الوزر ما كان منه من الضلال عن الوحي والهدى، فوضعه الله، سبحانه، عنه، بهداه له. ومما خصه الله به من النصرة والزيادة في تقواه، فجعله من بعد أن كان جاهلاً عالماً، ومن بعد أن كان متَّبِعاً متَّبَعاً، ومن ذلك ما وضع عنه من وزر الفقر وضرائه، وما امتن به عليه من بعد العيلة وأغناه، كما قال، تباركت أسماؤه: **﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾**[4]، وأما قوله، سبحانه: **﴿الذي أنقض ظهرك﴾**، فهو أوقره وفدحه وغمه وكربه من الضلال عن العمل برضى رب الجلال، فوضع الله عنه ثقل ذلك بما بصره وأوحى إليه

(١) الحديد: ٢٩.
(٢) التغابن: ١١.
(٣) الحديد: ٢٨.
(٤) الضحى: ٨.

وفضله وأمتن به عليه، وليس ذلك الوزر حملاً من الأحمال على ظهر، ولا وقراً وقر بحمله، وإنما ذلك على المثل، قال الشاعر:

حملت أمراً (عظيماً)[1] فاضطلعت به جزاك عنا إله الخلق رضوانا

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾**[2]، فجوابنا في ذلك أن الشرح من الله هو التوفيق والتسديد والتبصير والتنبيه، وأن معنى قوله، جل جلاله: **﴿يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّد في السماء﴾**، هو بما يَدَّارك عليه من الأمر والدعاء، وما أمر به عبده ورسوله ونزل عليه، فكلما زاد الله في إقامة الحجة عليهم والدعاء لهم، وإظهار الحق لديهم، ازدادوا طغياناً وإثماً وتمادياً وعمى، فخذلهم الله لذلك وأرداهم وأذلهم وأشقاهم، فعادت صدورهم لما فيها من الشك والبلاء وما يخافون من ظهور الحق عليهم والهدى، ضيقة حرجة، كأنما تصعد في السماء، وإنما مثل الله صفتها بالتصعيد في السماء، لأن التصعيد أشد الشدة وأعظم البلاء، ولذلك ما قال الله، جل ثناؤه، في الوليد بن المغيرة المخزومي[3].

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً، وبَنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد، كلا، إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعوداً﴾[4]، فلما أنعم الله عليه بما ذكر، فأبى وأعرض واستكبر وخالف وكفر، وعده الله إرهاق الصعود، وهو الأمر الصعب الشديد من العذاب في دار الآخرة بالنار والأغلال الحديد، فلما كان الصعد[5] الذي لا تَعَرُّض[6] فيه ولا سهولة في حيله، وأنه مصعد فيه أبداً، وكان أشد ما يلقى من سلك سبيلاً، ماشياً أو راكباً، مثل الله لهم ما أعد من العذاب والبلاء.

تم جواب مسألته

---

(١) في ب: شديداً.
(٢) الأنعام: ١٢٥.
(٣) كان من أكابر معاندي الرسول عليه السلام، والمكابرين عن الاهتداء، رغم اقتناعهم بصدق الرسول، ولقد أسلم من أولاده العشرة: خالد، وعمارة، وهشام.
(٤) المدثر: ١١ - ١٧.
(٥) المشقة والعذاب.
(٦) التعرض: الإقامة.

المسائل ٣٩ - ٤٣

ثم أتبع ذلك «الحسن بن محمد»[١] المسألة عن قول الله «سبحانه»[٢] في التأييد، وذلك قوله لعيسى ابن مريم: **﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾**[٣]، وقوله، للمؤمنين: **﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾**[٤]، في آي كثيرة، فخص الله من يشاء من خلقه من الأنبياء والمؤمنين، ألا ترى أن الله، عز وجل، لم يكِلْهم إلى ما زعمتم أنه جعل فيهم من الاستطاعة؟ وهي الحجة، زعمتم، على جميع خلقه، حتى جاءهم سوى ذلك من أمره، فأيدهم به، ورعب عدوهم، فغلبوا برعبه، ونصرهم فقهروا بنصره، ثم قال، فيما من به على المؤمنين، ويعلمهم ما صنع بهم مما لم يصنعه بغيرهم، فقال: **﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾**[٥]، وقال، أيضاً: **﴿فأنزل الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾**[٦]، فلم يرض لهم ما زعمتم بما جعل من الاستطاعة حتى جاءهم من أمره وعونه سوى ذلك. وقوله، لرسوله: **﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾**[٧]، وقوله لأصحاب الكهف: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾**[٨]، فلم يرض لهؤلاء ما جعل فيهم من الاستطاعة التي زعمتم أنها حجة على خلقه وأنه يحتج عليهم بما أخذوا أمره وركِبوا معصيته حتى

---

(١) غير موجودة في أ.
(٢) غير موجودة في ب.
(٣) البقرة: ٨٧
(٤) الصف: ١٤.
(٥) الفتح: ٤.
(٦) الفتح: ٢٦.
(٧) الاسراء: ٧٤، ٧٥.
(٨) الكهف: ١٤.

أتاهم من أمره ما بلغوا به ما يشاء من رحمته وهداه، وكذلك هو يفعل ما يشاء، سبحانه وبحمده، يضل من يشاء ولا يُسْأل عما يفعل «والخلق»[1] يسألون.

وإن قالوا[2]: أخبرونا عن الأعمال، أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فأنتم تزعمون أن الله خلقها؟ فإن قالوا: كيف نسبها الله إلى خلقه، وجعلهم الذين عملوا، وتكلموا؟ فقولوا[3]: ألا ترون أن الله، عز وجل، قد قال: **﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾**، وقال: **﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾**[4]، وأنتم تعلمون أن الناس هم الذين غزلوا ونسجوا السرابيل، وعملوا الدروع، وبنوا البيوت، واتخذوا المَظالَّ، وقد مَنَّ علينا به، وأخبرنا أنه جعله، وذلك أنه ألهمنا بمنته، أن غزلنا، وهو عملنا ذلك، ونسجنا، وعملنا ما عملنا، وأخبرنا أنه قد جعله، فكذلك خلق ما عملنا من طاعة أو معصية ونحن عملناها جميعاً، وكذلك قال، أيضاً: **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**[5]، ألا ترون أن الله، سبحانه، خلق الثمرة في الشجرة وأخرجها منها، ونسب الخروج منها إليها؟ وقال: **﴿تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها﴾** وكذلك أعمال العباد، خلقها، ثم نسبها إليهم، وأخبر أنهم عملوها.

فإن قالوا: أخبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال، من الإيمان والكفر والمعصية؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور، فأما الذين جبروا على الطاعة فمنهم أهل مكة، افتتحها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قسراً، فأسلموا كرهاً، ولو لم يسلموا قتلهم واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر وأما الوجه الآخر فإن الله، تبارك وتعالى، قد

---

(١) في أ: وهم.

(٢) أي أهل العدل.

(٣) الأمر هنا من محمد بن الحسن بن الحنفية لأصحابه.

(٤) النحل: ٨٠.

(٥) إبراهيم: ٢٤.

قذف في قلوبهم الهدى، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: **﴿أولئك هم الراشدون﴾**[1]، وقد قال في كتابه: **﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾**[2].

فإن قالوا: أخبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، أجبروا على الشرك؟ فيقال لهم: إن المشركين لم يريدوا الإسلام فيجبروا على الشرك، ذلك أنهم لو أرادوا الإيمان فأكرهوا على الشرك، كما أراد المشركون الشرك ورضوا به، وأراد الله أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون فإن قالوا: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيع ترك الشرك وقبول الهدى؟ فقل: لا، إلا أن يشاء الله، فإن قال: فكيف لا يكونون مجبورين، ولا يستطيعون أن يتركوا شركهم؟ فقل: كذلك الله يفعل ما يشاء، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا مضل لمن هدى ولا هادي لمن يضل. تمت (مسائل الحسن بن محمد كلها)[3].

أجوبتها:

وأما ما سأل عنه من قول الله، (عز وجل)[4]: **﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾**، وقوله للمؤمنين: **﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾**، وقوله: **﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾** وقوله: **﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾**، فكذلك الله، أحكم الحاكمين، أتى نبيه، صلى الله عليه وآله وسلم، بينات كل أمر، وأيده بروح القدس والنصر، وكذلك أيد عباده المؤمنين على أعدائه الفاسقين، وذلك من الله (واجب)[5] للمطيعين.

ألا تسمع كيف يقول: **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾**[6]، وقوله: **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾**[7]، وقوله: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم**

---

(١) الحجرات: ٧

(٢) آل عمران: ٨٣.

(٣) في أ: مسألة الحسن بن محمد.

(٤) غير موجودة في أ.

(٥) في أ، ب: فواجب.

(٦) الحج: ٤٠.

(٧) محمد: ٧.

تقواهم﴾[1]، فكل من آمن بالله واتقى فقد استوجب من الله الزيادة[2] بالنصر والهدى، وذلك من الله للمؤمنين (عطاء)[3] وجزاء، فكل من آمن بالله وأطاعه في أمره وجاهد أعداءه، فقد ذكر الله، سبحانه، أنه يجازيه على ذلك بما ذكر فيما سأل عنه في هذه الآيات من التفضيل بالمعونات.

***

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لاتجد لك علينا نصيراً﴾**، فإن الجواب في ذلك: أن رسول الله، صلى الله عليه وآله، لم يركن إليهم بترخيص لهم في دينهم ولا إسعاف لهم في شيء من أمرهم، ولا بتولي أحد منهم، ولكنه، صلى الله عليه وآله، كان رحيماً رفيقاً حليماً وَصولاً للأرحام كريماً، كان صلى الله عليه وآله، ربما رق لهم من العذاب الذي أعد لهم ربهم، رحمة بهم، فأنزل الله، سبحانه، عليه تحريم الرحمة لهم، فأمره والمؤمنين بترك الرحمة لأهل المعاصي الفاسقين، فقال: **﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾**[4]، وقال: **﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**[5]، فثبته الله بما أنزل عليه من ذلك.

فلما أن علم أن رحمتهم لله تُسْخِط، غلظ عليهم، واشتد قلبه عن الرحمة بهم لما أمره الله، سبحانه فيهم، فكان ذلك تثبيتاً منه له عن أن يركن إلى ما يدعوه إليه الكرم والصلة للرحم من الرحمة، لا ما يقول الضالون على الله وعلى رسوله من أنه كاد أن يركن إليهم ويميل بالمحاباة في (صفهم)[6]، ثم قال، سبحانه: **﴿إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾**، يقول: لو رحمتهم ورفقت من بعد نهينا

---

(١) محمد: ١٧.

(٢) عبارة أ: استوجب من الله النصر.

(٣) في أ: فضل

(٤) التوبة: ٧٣.

(٥) النور: ٢.

(٦) في ب: صفوهم، وفي أ: طغوهم.

لك عن ذلك بهم، لكنت لنا من العاصين وكنت عندنا على ذلك من المعذبين[1].

* * *

وأما ما سأل عنه من قول الله، سبحانه: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾**، فآخر هذه الاية دليل على تفسير ما سأل عنه في أولها، ألا تسمع منه كيف ذكر عنهم ما ذكر من الإيمان والإخلاص لله الواحد الرحمن، فلما أن آمنوا زادهم إيماناً، وكذلك يفعل الله بعباده المؤمنين، ألا ترى كيف قال: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم﴾**، فكذلك يفعل الله بمن آمن واتقى، كما يخذل من عند عن أمره وعصى، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة أولاً ما نالوا زيادة الله لهم في الهدى آخراً، ولكن بما جعل فيهم من الاستطاعة ما يقدرون على الطاعة والعصيان، فآثروا الطاعة ورفضوا المعصية، فصاروا بذلك مؤمنين، فاستأهلوا من الله الزيادة في كل خير والدفع منه عنهم لكل ضير. ألا ترى كيف يقول: **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾**، يقول: لما أن عملوا الطاعة بما فيهم من القدرة والاستطاعة زدناهم من الخير والكرامة.

ثم قال الحسن بن محمد: وكذلك الله يفعل ما يشاء، يضل من يشاء، ولا يسأل عما يفعل والخلق يسألون، فتوهم، ويحه! إن الله، سبحانه، يضل عن سبيل الرشاد قوماً منعهم بالإضلال عن الرشاد وكيف يكون ذلك وقد أمرهم بالاهتداء، وبعث إليهم الأنبياء يدعونهم إلى البر والتقوى، وهم لذلك غير مستطيعين ولا عليه مقتدرين، لقد، إذاً، ظلمهم فيما إليه دعاهم، إذ عنه قد

---

(١) يقول النسفي إن هذه الايات نزلت لما قالت قريش للرسول: «إجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك». والبيضاوي يقول إنها نزلت في ثقيف «قالوا: لن ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفخر بها على العرب.. وقيل في قريش قالوا: لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا وتمسه بيدك» وتفسير الإمام يحيى للآية فيه إكبار لمقام النبوة والنبي وملاءمة للوقاع التاريخية أكثر من هذه التفاسير. تفسير البيضاوي ص ٤٠٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ وتفسير النسفي جـ٢. ص ٢٤٩، ٢٥٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.

حجرهم وأغواهم، فتبارك الله عن مقالة الجهال من أهل الجبر والضلال.

***

وأما ما تكلم ومَوَّه به فقال: إن سألونا عن أفعال العباد: مخلوقة هي؟ أم غير مخلوقة؟ ثم قال: هي مخلوقة، إذ نسبها الله إليه كما نسب غيرها من أفعالنا إليه، من ذلك قوله: ﴿**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً**﴾ وقال: ﴿**وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم**﴾، والسرابيل والبيوت (العباد)[1] يعملونها، وقد نسبها الله، جل جلاله، إليه، فكذلك أعمالنا، هي منا وهي فعله فينا.

فجوابنا في ذلك: إنه بخلاف ما قال، وأنه قد أخطأ في القياس إذ قاس أفعال العباد التي هم فاعلوها ومن بعد العدم أوجدوها إلى ما فعلوا فيه من خَرْز الجلود وعمل الحديد ونسج الثياب التي الله، تبارك وتعالى، خلق أصلها وأوجد أولها وصورها، فلما أن كان الله، سبحانه، الذي أوجد ذلك كله كان هو الجاعل له في أصله والممتن به على جميع خلقه، وأفعال العباد في ذلك (لم)[2] يخلقها الله، سبحانه، ولكن الله أوجد ما ذكر من أصولها، والعباد صنعوا ما صنعوا فيها وعملوا ما عملوا منها، فنسب إليه صنع ما أوجد من هذه الأصول التي (قد)[3] فُرِّغت وجعلت ونقلت، فبين هذا وبين أفعال العباد فرق عند من كان له عقل.

هل رأى أو سمع: خلق، في شيء من الكتاب المنزل، أن الله، سبحانه، ذكر أنه فعل شيئاً مما فعلوه من الفجور والردى، وشرب الخمور وارتكاب الهوى؟ بل نسب ذلك كله إلى فاعله، ونفاه، سبحانه، عن نفسه.

فإن قالوا: إن الله، سبحانه، خلق الأدوات التي تكون بها الأفعال في كل الحالات من الفروج والأيدي والألسن واللهوات، كما خلق الجلود والقطن والحديد والصوف، فنحن نقول: إذ قد أوجد أصل أفعال العباد أن منه أفعالهم، كما نقول إن السرابيل منه إذ أوجد أصولها.

قلنا لهم في ذلك: ليس هذا كذلك، لأن الله، سبحانه، أوجد الأصل الذي

---

(١) في أ، ب: فالعباد (٢) في أ، ب: فلم (٣) غير موجودة في أ.

نقل وصنع وعمل من هذه التي نسبها إليه من الجلود واب رسف[1] والصوف والحديد، والعباد فعلوا الحَدَث الذي صرفوها به وأحدثوه فيها، من عملها ونسجها وصناعتها وغزلها بالأكف والأدوات التي جعلت لهم والاستطاعة التي ركبت فيهم، فالتأم في ذلك جلود وأيد وحركات، فكان الله، عز وجل، الخالق للأيدي والجلود، وكان العباد الفاعلين للحركات الصانعين لتلك المصنوعات. كذلك الله، سبحانه، خلق الحجارة والطين، والعباد بنوا الدور وشيدوا ما بنوا من القصور، فاجتمعت في ذلك الحجارة والأكف العمالة والحركات التي دبرت لها الحجارات، فكان الله، جل ثناؤه، خالق الأيدي والصخور، والعباد أحدثوا الحركات وبنوا الدور، وأفعال الله، سبحانه، (كائنة)[2] عندما يريدها بلا تَخَيُّل ولا حركات ولا تأليف شيء إلى شيء بالأكف العمالات، ففي هذا أبين الفرق بين أفعال المخلوقين وبين أفعال رب العالمين، فما كان من فعل الله فليس من أفعال العباد، وما كان من أفعال العباد فليس من أفعال ذي العزة والأياد.

كذلك لو أن رجلاً سرق صوفاً فنسجه سربالاً وثوباً، لم يعذبه الله سبحانه على حزم الصوف ولا على قبضه به من اليد والكف وإنما يعذبه على أخذه وحوزه عن ربه، واستئثاره عليه به، وما كان من انتفاعه به ولبسه، فعذبه، سبحانه، على ما كان من حركاته وفعله، ولم يعذبه على ما خلق وصور من نفس المسروق وصورته.

وكذلك يعذب الزاني على زناه، والزنا هو الإيلاج والحركة والإخراج ولم يكن الزنا إلا بالفرجين والحركة، فالفرجان فعل الله، والحركة والزنا فعل العبد ذي الفَسالة والردى، فالله، عز وجل، يعذبه على زناه وإدخاله وإخراجه وحركاته لا على ما خلقه له من الفرج، فخلق الله الآلات وما أنعم به على العبد من الأدوات لينالوا به المنافع واللذات من طريق ما أحل لهم لا من وجه ما حرم عليهم، ثم أمرهم في ذلك باجتناب المعصية وحضهم على فعل الطاعة.

* * *

---

(١) القطن.

(٢) في أ، ب: فكائنة.

وأما ما سأل عنه، وفيه قال بالمحال، وقاس على مقاييس الضلال، فقال: قال الله، تبارك وتعالى: **﴿ألم تـر كيـف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**، فقال: ألا ترون أن الله خلق الثمرة في الشجرة فأخرجها منها؟ ثم نسب الثمرة إليها فقال: **﴿تؤتي أكلهـا كل حين بإذن ربهـا﴾**؟ فكذلك نقول: إن أعمال العباد، الله، سبحانه، خلقها، والعباد عملوها، ثم نسبها إليهم وأخبر أنهم عملوها.

فقولنا في ذلك: أنه غالطفي القياس، أو أراد معنى فأخطأ في مقاله، لأنه مثَّل ما ليس بمأمور ولا منهي فقاس فعل العباد فيما أوجدوه بفعل الله الذي لم يفعلوه، وإنما قياس الشجرة وما أوجد الله، سبحانه، فيها من الثمرة قياس الناقة والإمرأة، الله، سبحانه، خلق الأولاد فيهما، وهما ولدتا، قال الله، سبحانه، في امرأة عمران وفيما نذرت مما في بطنها للرحمن حين يقول: **﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر والأنثى﴾**[1]، فقال: (وضعتها)، فنسب الولد وما كان من تخليصها وتسليمها في وضعها لها إليها، والله، سبحانه، الذي جعلها في بطنها وأخرجها بقدرته منها، ولولا إخراجه لها وتخليصه إياها إذاً لم تخلصها أبداً أمها، قال الله، عز وجل: في ذلك: **﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾**[2]، فلا يشك أنه المخرج والمخلص للولد من الظلمات الثلاث، من المشيمة، والرحم، والبطن، قال الله، سبحانه: **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾**[3] وقال، جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾**[4]، فنسب إليهما ولادتهما إياه، إذ كان الخارج منهما والمصور فيهما، والله، سبحانه، المصور له والمقدر تصويره وخلقه، فكذلك نسب إلى الشجرة ايتاء أكلها، وهو الخالق لها ولثمرها.

---

(١) آل عمران: ٣٦.
(٢) الروم: ١٩.
(٣) الزمر: ٦.
(٤) العنكبوت: ٨.

فأما قياس أفعال العباد التي نهوا عنها وأمروا بها وعوقبوا عليها وأثيبوا بها فليس هذا قياسها، وسنأتي به ونذكر، إن شاء الله، ما هو مثلها، فنقول لمن قال: إن الله، سبحانه، خلق أفعال العباد وركبها فيهم وأنطقهم وقضى بها عليهم، ثم نسبها إليهم: ما تقول إذا قلت ذلك، وكان الأمر عندك كذلك، في مشرك أشرك بالله وجحده؟ وفي قتل من قتل الأنبياء بغير حق؟ الذين قال الله فيهم: ﴿**ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**﴾[1]، الله فعل ذلك بهم كما فعل غيره من (أفعالهم)[2]؟ فإن قالوا: نعم، الله فعله وخلقه وقضاه وركبه، فقد زعموا أن الله، عز وجل، كفر بنفسه، وأمر بالشرك به، وقتل أنبيائه وهذا (أكفر)[3] الكفر وأجهل الجهل بالرحمن، عز وجل، عند كل من عرف الحق وكان ذا إيمان. وإن قال: لا، رجع عن قوله، وتاب إلى ربه، وإن قال: فعل الطاعة وخلق بعض المعصية ولم يفعل عظائم العصيان ولا فوادح ما نأتي به من الكفران، قيل له: فلا نراك إلا قد أثبت للعبد فعلاً لا محالة دون الرحمن، فإن جاز أن يكون من العبد فعل لم يخلقه الله ولم يفعله جاز أن تكون له أفعال كثيرة وأمور جمة غير يسيرة والأمر في ذلك (على)[4] قولنا لا على قولك، وشرحنا، بحمد الله، لا شرحك، لأنك قد أجمعت معنا على قولنا إذ قد أقررت لنا ببعض فعلنا ونفيته عن خالقنا وربنا، ونحن لا نطيعك في قليل من ذلك ولا كثير ولا ننسب إلى الله من أفعال عباده عظيماً ولا حقيراً. فهذا قياس ما إليه ذهب، لا ما ارتكب فيه من المحال والعطب.

* * *

(ثم قال)[5] إن قال قائل: خبرونا عن العباد، أمجبورون على الأعمال، من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية والغدر؟ أم لا؟ فقل: منهم من هو مجبور على ذلك، ومنهم من هو غير مجبور، فأما الذين أجبروا على الطاعة فهم أهل مكة، افتتحها رسول الله، صلى الله عليه وآله، قسراً، فأسلموا لذلك كرهاً، ولو لم

---

(١) آل عمران: ٢١.
(٢) في ب: إجرامهم.
(٣) في أ، ب: فأكفر.
(٤) في أ، ب: فعلى.
(٥) عبارة ب: قال: ثم

يسلموا قتلهم واستحل دماءهم وأموالهم، فهذا وجه القسر والجبر، وأما الوجه الآخر، فإن الله قذف في قلوبهم الهدى وحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم قال: ﴿**أولئك هم الراشدون**﴾، ثم قال: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكراهاً وإليه يرجعون**﴾.

فردنا عليه فيما يقول أنا نقول: الحمد لله على ما رزقنا من العقول، والفهم بما نقول، فيا ويح الحسن بن محمد! (الجاهل المجبر في أمره الغافل[1] بينا يقول: إن الله يجبر العباد على الطاعة له والانقياد، إذ رجع فصرف ذلك إلى الرسول، فيا ويح ذي الجهل! من نازعه في ذلك؟ أو من ذا الذي لم يكن من أضداده قوله لذلك، ألا يسمع قول الله، سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه، فيمن أكرهته قريش على الكفر والعصيان ودعته إلى الخروج من الحق والإيمان، وصالت عليه بصولتها، وأذاقته ما قدرت عليه من أليم عقوبتها، حتى أعطاهم ما أرادوا بلسانه وقوله، وقلبه مخالف لما لفظ به من مقاله، مطمئن بالإيمان، مخالف لدين أهل العصيان، فقال في ذلك الرحمن: ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم**﴾[2]، وكان الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان عمار بن ياسر «رحمة الله عليه»[3]، ذو المعرفة بالله والإيمان، فلا يشك مميز عاقل، ولا ينكر ما قلنا به جاهل، من أن الخلق يكره بعضهم بعضاً على القول والفعل لما لا يحب ويرضى وإن[4] كان ضمير القلوب مخالفاً للكلام، وهذا «موجود»[5] في لغة جميع الأنام، فأما علم الضمير فلا يطلع عليه إلا الواحد القدير.

***

ثم قال: إن معنى قوله، سبحانه وجل عن كل شأن شأنه: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون**﴾، هو جبر منه لهم على إسلامهم،

---

(١) عبارة ب، وتجاهل في أمره الغافل الجاهل الوسن.
(٢) النحل: ١٠٦.
(٣) غير موجودة في أ.
(٤) في ب: فان.
(٥) في أ، ب: فموجود.

وإخراج لهم من ضلالهم وكفرانهم، بالجبر والتحويل والقسر، واحتج في ذلك بقول الله، سبحانه: ﴿**وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾، فلا تأويل، معنى الإسلام من الخلق، أصاب، ولا في معنى ما ذكر الله، عز وجل، من التحبيب والتكريه أجاب. وإنما معنى قول الله، سبحانه: ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾، هو المعرفة به والإقرار بربوبيته، وأنه الخالق غير مخلوق، والرازق غير مرزوق، كما قال، سبحانه: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فأنى يؤفكون**﴾[1]، فهذا معنى ما أراد «الله»[2]، والله أعلم، بقوله ﴿**وله أسلم من في السموات والأرض**﴾ ﴿**طوعاً وكرهاً**﴾[3]، لأن الإسلام يخرج في اللغة على معنيين:

«**أحدهما**»[4]: الإقرار بفعل الفاعل والتسليم له وترك المكابرة له في فعله والمعاندة له بالإنكار لما يحدث من صنعه.

والمعنى الثاني: «هو»[5] الاستسلام لأمر الأمر والانفاذ لما حكم به والانقياد لجميع ما قِيد إليه وصرف من الأفعال فيه.

فعلى المعنى الأول يخرج تفسير الاية لا على المعنى الثاني الذي توهم الحسن بن محمد أن عليه يخرج معناها، ولو كان ذلك كلذلك أو قارب شيئاً من ذلك لكان جميع الخلق لله مطيعين وفي أمره، سبحانه، متصرفين، طائعين كانوا أو كارهين، ولو كان كما يقول هو ومن معه من الجاهلين إذا لما وجد أنبياء الله لله في الأرض عاصين، ولكان الله، تبارك وتعالى، بإكراهه لهم على طاعته وإدخالهم قسراً في مرضاته مجتزئاً مُكْفياً عن نهيهم عن معصيته، ولما احتاج الخلق إلى المرسلين، ولما حذرهم الله ما حذر من مردة الجن والعالمين.

وأما قوله: ﴿**طوعاً وكرهاً**﴾، فالمطيع منهم في ذلك هو من أطاع الحجة المركبة فيه والشاهدة بالحق له وعليه، من اللب الذي ينال به التمييز بين كل

---

(١) العنكبوت: ٦١.

(٢) غير موجودة في ب.

(٣) غير موجودة في ب.

(٤) في أ، ب: فاحدهما.

(٥) في أ، ب: فهو

شيئين، ويثبت له به الرضى والسخط في الحالين، فمن أنصف لبه، وقبل ما أدى إليه معقوله، من معرفة ربه، كان منصفاً طائعاً، متحرياً للحق خاضعاً، والمكره «هو»[1] من كفر وتعدى. وكابر لبه وأبى، وعَنَد عن الحق وأساء، حتى أدركه البلاء، واشتد عليه الشقاء، ونزلت به النوازل، واغتال لبه في ذلك الغوائل، ورجع صاغراً إلى إنصاف لبه، ولجأ فيما ناله إلى ربه، واستسلم وأسلم له كما ذكر ذو الجلال ممن تعدى في الغي والمقال حين يقول، ويخبر عنهم ويقص ما كان من أخبارهم، حين يقول ويخبر عن فرعون، «حين يقول»[2]، فقال ﴿**حتى إذا أدركه الغرق، قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**﴾[3]، ومثل قوله: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾[4]، ومثل قوله: ﴿**و إذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون**﴾[5].

أما معنى تحبيب الله، عز وجل، إلى العباد الإيمان وتكريهه للكفر والفسوق والعصيان، فهو بما جعل وحكم لمن آمن واتقى من الجنان والنعيم والجزاء والإحسان، وبما كان يريهم ويشرعه لديهم من نصر المؤمنين والإظهار لحجتهم والاعزاز لدينهم. والتكريه منه لما ذكر، فهو بما أوجب على فاعل ذلك من العقوبات في الآخرة بالنيران، وفي الدنيا بالقتل والسبي والذل والخذلان، فلما جعل ما جعل من الثواب للمؤمنين، وما أعد وحكم بما حكم به من العقاب على الكافرين، رَغِب الراغبون في الثواب وأوجبوا له الإيمان وآمنوا، وهاب واتقى وخاف العقاب الخائفون، فاتقوا وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان لخوف العقاب فاهتدوا، وزهدوا أهل الكفر في كفرهم، لما يرون من ذلهم وصغارهم، وظهور الحق والمحقين واعتلائهم، فتركوا الفسوق ودخلوا في الحق، فهذا إن شاء الله، معنى ما ذكر من ذلك العلي الأعلى، لا ما قال وذهب إليه أهل الإفك[6] على الله وقالوا فيه من الجبر للمخلوقين على ما يكون من أفعالهم والإدخال لهم بالقسر في

---

(١) في أ، ب: فهو.
(٢) غير موجودة في أ.
(٣) يونس: ٩٠.
(٤) العنكبوت: ٦٥.
(٥) الروم: ٣٣.
(٦) في ب بدون: أهل.

فاحش أعمالهم من «الغي»[1] والفجور والمنكرات والشرور، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وسلام على المرسلين.

* * *

ثم قال: إن قال قائل: خبرونا عن المشركين الذين لم يسلموا، هل جبروا على الشرك؟ قيل له: إن المشركين لم يريدوا الإسلام فيجبروا على الشرك، وذلك لو أنهم أرادوا الإيمان وأكرهوا على الشرك، كما أراد المشركون الشرك ورضوا به، وأراد الله، جل ثناؤه، أن يهديهم فجبرهم على الهدى وهم كارهون. ثم قال: فإن قال «قائل»[2]: فإن لم يكونوا مجبورين ولا مكرهين، فهل يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فقُلْ: لا، إلا إن شاء الله. فزعم في آخر قوله أنهم لا يستطيعون ترك الشرك وقبول الهدى، فأبطل حجته وقوله أولاً حين يقول: إنهم إنما يكونون مجبورين على الشرك لو أرادوا الهدى فمنعوا منه وأدخلوا في الردى، فاثبت هذا القول لهم الفعل، وأقر أنهم يقدرون على فعل ما لا يريد الرحمن حتى يجبرهم على غيره من الشأن، لأن الإرادة والنية فعل لصاحبهما، ولذلك ما روي عن النبي، صلى الله عليه وآله، يعطي ويثاب فيها وعليها.

* * *

وإذا صح أن العباد يفعلون ويريدون ما لا يشاء ربهم حتى يجبرهم على غير ذلك من فعلهم، فقد بطل ما «يخْرِصُه»[3] الحسن بن محمد من زخرف قوله، وثبت وصح ما يقول به أهل المعرفة بالله من العدل بإقراره، ثم زعم أن من لم يقدر على ترك الشرك والكفر بربه غير مكره ولا مجبور على ما هو فيه من فعله، وهذا «عين»[4] المحال، وأفحش ما يقال به من المقال، وإبطال المعقول، والمكابرة لصحيح العقول، لأن من حيل بينه وبين القيام لسبب من الأسباب، فقد جبر على العقود بلا شك ولا ارتياب، وكذلك من أوقدت له نار ثم ألقي فيها، ومنع من التحرف عنها، وحيل بينه وبين الخروج منها، فقد جبر وجبل على الاحتراق فيها، وكذلك الطير

---

(١) في ب: البغي.
(٢) غير موجودة في أ.
(٣) في ب: يحوطه.
(٤) في أ، ب: فعين.

إذا قص جناحاه الخافقان، فقد حيل بينه وبين ما يريد من الطيران، وكذلك من لم يجعل فيه، من الخلق، استطاعة فعل، فقد حيل بينه وبينه، لا يشك في ذلك عاقلان، ولا يختلف فيه جاهلان.

وأما ما سأل عنه من قوله، وكذبه على ملائكة ربه، فقال: خبرونا عن الاستطاعة التي تزعمون أن الله، جل ثناؤه، جعلها في عباده حجة عليهم، وأنها مركبة فيهم ليعملوا أو يتركوا، هل جعلها في الملائكة المقربين؟ أم لا؟ ثم قال: فإن قالوا: نعم: «قد»[1] جعلها فيهم وامْتَنَّ بها عليهم، فقولوا لهم: فأنتم إذاً لا تدرون عن الملائكة هل بلغت؟! أم لا؟ أم هل أدت ما أمرت بأدائه؟ أم هل قصرت في شيء مما أمرت به؟ إذ تزعمون أنها قادرة على ما تهوى تاركة لما تشاء.

فقولنا في ذلك: إن الله، سبحانه، ركب الاستطاعة في عباده وجعلها في جميع خلقه المأمورين المميزين، ومنهم الملائكة المقربون، صلوات الله عليهم، ثم أمرهم ونهاهم من بعد أن أوجد فيهم ما أوجده، سبحانه، في غيرهم من الاستطاعة الكاملة والنعمة الشاملة، وأمرهم ونهاهم، ولولا ما ركب فيهم من الاستطاعة لما جرى أمره عليهم، من ذلك قوله: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾[2]، فأمرهم بالسجود من أجله، ولما رأوا ما ابتدع من جليل صنعه، ولعظيم ما فيه من قدرته، إذ خلقه من طين من صلصال من حَمَأ مسنون، والمسنون «هو»[3] ما داخله الأَجُون[4] فأَسِنَ لذلك وأجن وتغير فصار لما فيه من الأجون حمأ، كما ذكر الله، مسنوناً، ثم صوره رجلاً، ثم نفخ فيه الروح فصار جسماً متكلماً لحماً وعروقاً وعظاماً ودماً يقبل ويدبر ويورد ويصدر بعد أن كان طيناً لازباً، فسجد الملائكة، عليهم السلام، لله المهيمن ذي الإنعام من أجل ما أحدث في آدم، صلى الله عليه، من الخلق، وجعله أباً لكل الخلق، فكانوا بائتمارهم في ذلك لله مطيعين، وعليه مثابين، ولأمر الله مؤدين، ولو لم يكن فيهم استطاعة ولا ما

---

(١) في أ، ب: فقد.
(٢) البقرة: ٣٤، الاسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦.
(٣) في أ، ب: فهو.
(٤) هو الماء المتغير لوناً وطعماً.

يقدرون به على السجود من الإله لم يأمرهم، سبحانه، بما لا يستطيعون، ولم يكلفهم العدل الجواد ما لا يطيقون، لانه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وأعدل العادلين، وليس ما ذكر المبطلون، وقال به الضالون، من صفات الرحيم، ولا من أفعال العزيز العليم، لأن من أمر مأموراً بأن يفعل مفعولاً لا يقدر على فعله، كان بلا شك ظالماً له في أمره، وكان قد كلفه في ذلك محالاً، وكان له بذلك غاشماً ظالماً، وليس الله بظلام للعبيد، كما قال في ذلك ذو الجلال الحميد: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[1]، وقال، سبحانه: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾[2]، فيا سبحان الله!!، ما أجهل من نسب ورضي لربه ما لا يرضاه وما لا ينسبه إلى نفسه من تكليف العباد ما لا يطاق، ثم رضي ذلك ونسبه إلى الواحد الخلاق، كما قال الله، جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿**وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم**﴾[3]، فأخبر، سبحانه، أنهم كانوا ينسبون إلى الله اتخاذ البنات ولا يرضون بهن لأنفسهم ولا يحبون الإناث، بل إذا رُزِق أحدهم بما رضيه لربه، بانت الكراهية منه في وجهه، فشابهوهم في فعلهم، واحتذوا في ذلك بقولهم، فقالوا: إن الله يكلف عباده ما لا يطيقون فعله، ويعاقبهم على ترك ما لم يقدرهم على صنعه، وهم ينفونه عن أنفسهم، ويبرءون منه أخس عبيدهم، فسبحان من أمهلهم وتفضل بالانتظار لهم.

ثم قال: ما يدريكم أن الملائكة مستطيعون، ولما يشاءون من الأعمال متخيرون، وعلى العمل والترك قادرون؟ لعلهم قد تركوا بعض ما به أمروا، وقصروا في أداء بعض الوحي، وفرطوا في نصر النبي والمؤمنين، وفي غير ذلك مما أمرهم به رب العالمين.

فقولنا في ذلك له[4]: إنا علمنا براءتهم، صلوات الله عليهم، وإنفاذهم لكل ما أمرهم به ربهم، على ما أمرهم به، غير مفرطين في شيء منه، لقوله فيهم، سبحانه، وثنائه بما أثنى عليهم من ترك التفريط في أمره والاستقصاء في كل إرادته،

---

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) الكهف: ٤٩.

(٣) الزخرف: ١٧.

(٤) عبارة ب: فقولنا له في ذلك.

والتقديس له والتسبيح الليل والنهـار، وذلك «قول»[1] الواحد الجبار: ﴿**له من في السموات والأرض، ومن عنـده لا يستكبـرون عن عبادتـه ولا يستخسـرون، يسبحون الليل والنهـار لا يفتـرون**﴾[2]، وفـي ترك التفـريط فيمـا أمرهـم به رب العالمين، ما يقول، سبحانه، في القرآن المبين: ﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا، وهم لا يفرطون**﴾[3]، ويقول، تبارك وتعالى، فيهم، ويثني بما يعلم من أفعالهم عليهم، حين يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجـارة، عليهـا ملائـكة غلاظ شداد لا يعصـون الله ما أمرهـم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[4]، وفي ذلك ما يقول، سبحانه، ويحكي عن المبطلين بما قالوا في الله رب العالمين، حين يقول: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾[5]، فوجدناه، تبارك وتعالى، يذكر الاجتهاد منهم له عنهم، فقلنا فيهم بما قاله ربنا وربهـم، فتعالـى أصـدق الصادقين عن مقالة الفسقة الجاهلين.

ومـن الـدليل علـى معرفـة «حقائقهـم»[6] والوقـوف علـى محض فعلهـم واجتهادهم تولي الله لهم ومعاداته لمن عاداهم، ألا تسمع كيف يقول، الواحد ذو الجلال والطول: ﴿**من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**﴾[7]، فذكر، سبحانه وجل عن كل شأن شانه، أنه عدو لمن عاداهم، وإذا صحت العداوة والمقاضاة منه لمن ناضاهم[8] فقد ثبتت منه الولاية بلا شك لمن والاهم، ألا تسمع كيف جعل من عاداهم فاجراً؟ وسماه في واضح التنزيل كافراً؟ حين يقول في آخر الآية، جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿**فإن الله عدو للكافرين**﴾، ولن يوالي أبداً من كان في أمره مقصراً، ولن يشهد بالوفاء لمن كان عنده، سبحانه، غادراً، فبهذا ومثله من تنزيله، مما قد ذكره وبينه في وحيه وقبله، شَهِدْنا للملائكة المقربين بالاجتهاد في الطاعة لرب العالمين.

---

(١) في أ، ب: فقول.
(٢) الأنبياء: ٢٠.
(٣) الأنعام: ٦١.
(٤) التحريم: ٦.
(٥) الأنبياء: ٢٦.
(٦) في أ: أحقاقهم
(٧) البقرة: ٩٨.
(٨) المراد: شاقهم.

ثم قال تغليظاً لمن كان معه على رأيه من أهل الجهالة وذوي الحيرة والتكمه والضلالة، نسأل من أثبت في الحق الاستطاعة، فيقال لهم: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا من الطاعة، مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟ «ثم قال»[1]: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته؟ فبيَّن بهذه الكلمات الأخرات في المعصية حتى ما تكلم به في كلمات الطاعة من فظيع ما جاء به من الكفر في قوله، والتظليم لله ربه، وبين جهله لتُبَّاعِهِ دون غيرهم ممن هو على خلاف رأيه ورأيهم، حين يقول: هل يثيب الله خلقه على ما عملوا به من الطاعة مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟، ثم قال: وهلي يعاقبهم على ما عملوا به من المعصية؟ فبَيَّن مسألته الثانية في المعصية ولم يتمها، كما أتم المسألة في الطاعة، خوفاً من أن يشهد وينطق على نفسه بالكفر والفضيحة، وذلك أنه كان يجب عليه أن يتم الثانية كما أتم الأولى فيقول: وهل يعاقبهم على ما عملوا به من معصيته مما لم يجعل لهم السبيل إلى تركه؟، ولو كان ذلك في الله، سبحانه، لكان الله، سبحانه، المُدْخِل للعاصين في المعصية، المكره لهم عليها، ولو كان ذلك كذلك، تعالى الله عن ذلك، لم يكن في الخلق لله عاص، بل كان كلهم في أمر الله نافذاً ماضياً، ولم يكن إبليس عند الله بمذموم، ولا محمد، صلى الله عليه وآله، بمحمود، ولم تكن الملائكة المقربون بأحمد عند الله من مردة الشياطين، إذ كل لا سبيل له إلى غير ما يفعل، ولا حيلة له من العمل في غير ما يعمل، لحَتْم الله وقضائه بذلك عليهم، وإدخالهم، بقضائه فيه، وحملهم وجبرهم وقسرهم عليه، فتعالى الله عما يشركون، وتقدس عما يقول المبطلون.

***

«تمت مسائل الحسن بن محمد بن الحنفية في تثبيت الجبر والتشبيه والإلحاد، ورد الهادي إلى الحق أمير المؤمنين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، عليه، ونفى ذلك عن الله، سبحانه، وإثبات العدل له والتوحيد،

---

(١) غير موجودة في أ.

وتصديق الوعد والوعيد»[١] «والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم»[٢].

«فرغ من تحريره في شهر جمادى الأولى
من سنة إحدى وأربعين وألف»[٣].

---

(١) غير موجودة في أ.

(٢) عبارة أ: «والحمد لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه أجمعين: محمد وآله الطاهرين الأخيار الصالحين الابرار المنتخبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. تم وكمل بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه ومنه. قال في الاصل: فرغ من كتابته أول شهر محرم سنة ست وسبعين وأربعمائة».

(٣) غير موجودة في أ، بالطبع، وهي تاريخ لزمن نسخ النسخة ب.

الجملة

أي جملة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وهو الذي لا يمكن الأوهام أن تناله، ولا العقول أن تختاله، ولا الألسن أن تمتحنه، ولا الأسماع أن تشتمله، ولا الأبصار أن تتمثله.

إن الله تبارك وتعالى، اصطفى الإسلام ديناً، فلم يؤامر فيه مَلَكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، ولم يجعله بأماني الناس، ولم يتبع الحق أهواءهم، ولكنه اصطفى من الملائكة رسلاً إلى من انتخبه من خلقه فبعثهم أنبياء يدعون الناس إلى خلع الأنداد وترك عبادة الأصنام، وأن يُخلَع كل معبود من دون الله، تبارك وتعالى، ثم كلف جميع خلقه، الذين حَمَّلهم الدين فكلفهم إياه وأقام عليهم حجته، أن يعلموا أنه أحد صمد ﴿**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**﴾[1]، وأنه لم يزل ولا يزول، ولا يتغير من حال إلى حال، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تقدره العقول، ولا تحيطبه الأقطار، ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأنه العالم الذي لا يجهل، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والدائم الذي لا يبيد، والحي الذي لا يموت، والحليم الذي لا يعجل.

وأنه الأول الذي لا شيء قبله، والاخر الذي لا شيء بعده.

وأنه القديم وما سواه مُحْدَث، وأنه الغني وما سواه فقير، وأنه العزيز وما سواه ذليل، وأنه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وأنه العدل في قضائه، الجواد في عطائه، الناظر لخلقه، الرحيم بعباده، الذي ﴿**لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة**

---

(١) الاخلاص: ٣، ٤.

يضاعفها ويُؤْت من لدنه أجراً عظيماً﴾[1] وأنه خلق خلقه لعبادته من غير حاجة منه إليهم ولا منفعة تصل إليه من عبادتهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولكنه تفضل عليهم بخلقه إياهم، وأنه طَوَّقهم[2] وقواهم، ثم أمرهم ونهاهم، فلم يكلف أحداً فوق طاقته، ولم يعذبه على غير معصيته، ولم يمنع أحداً ما ينال به طاعته وينتهي به عن معصيته وينجو به من عذابه ويصير به إلى ثوابه، ولم يقض شيئاً عابه، ولم يلم أحداً على شيء من تدبيره «وتقديره»[3] ولم يعذب أحداً على أمر خلقه وأراده ولم يرد ما «يسخطه»[4]، ولم يغضب مما كونه، ولم يكره شيئاً أراده، ولم يرض الكفر لعباده، ولم يحب الفساد لعباده ولا الجهر بالسوء من القول، ولم يأمر بما لا يريده، ولم ينه عما يريده.

وأنه أمر بالطاعة ونهى عن المعصية، وأن كل ما أمر به منسوب إليه وكل ما نهى عنه فغير مضاف إليه ولا منسوب، وأنه لم يأخذ أحداً على الغرة، ولم يعذب إلا بعد قيام الحجة، فأثاب على طاعته، وعذب على معصيته، فلن تزر وازرة وزر أخرى في حكمه، **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾**[5].

وأن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأشرفهم عند الله أكثرهم طاعة لله، وأنه لا ذل ولا صغر في الجنة، ولا عز ولا شرف في النار، وأنه صادق الوعد والوعيد في أخباره كلها.

وأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا خلف لوعد الله، وأنه لا يبدل القول لديه، وأنه **﴿لا يخلف الميعاد﴾**[6]، وأن قوله أصوب الأقاويل، وأن حديثه أصدق الأحاديث.

وأنه أنزل على محمد كتاباً مهيمناً، بلسان عربي مبين، وأنه **﴿لا يأتيه الباطل**

---

(١) النساء: ٤٠.
(٢) اي جعل لهم طاقة.
(٣) غير موجودة في ب.
(٤) في ب: أسخطه.
(٥) النجم: ٣٩.
(٦) آل عمران: ٩.

من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[١]، وأحل فيه الحلال، وحرم الحرام، وشرع فيه الشرائع، ثم قال: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾[٢].

فدعى محمد الداعي إلى معرفة الله والإقرار بربوبيته، وإلى خلع كل معبود من دون الله، وإلى معرفة نبوته والإقرار بذلك ظاهراً وباطناً، حتى يشهدوا بألسنتهم وقلوبهم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإلى الإقرار بما جاء من عند الله، والأداء لجميع ما افترض الله عليهم،. والإيمان بملائكته ورسله وكتبه، والايمان بالبعث والموت والحساب والجنة والنار، وأن يقيموا الصلوات الخمس في مواقيتها بحسن طهورها وإسباغ وضوئها وتكبيرها وخشوعها وقراءتها وركوعها وسجودها، والغسل من الجنابة بماء طاهر، ووضوء وغسل إذا أمكن الماء، وإلا فالتيمم بالصعيد الطيب «وصيام»[٣] شهر رمضان باجتناب الرفث[٤] والفسوق[٥] والعصيان، وغض البصر، والحج إلى بيت الله الحرام، من استطاع إليه سبيلاً، والسبيل: الزاد والراحلة للأصحاء البالغين.

والجهاد في سبيل الله بنية صادقة، ونصحاً لله ولدينه وللمؤمنين عامة، والبغض في الله، وموالاة أولياء الله، من دان بدين الله واعتصم بحبل الله، والمعاداة لأعداء الله، من كفر بالله وفجر في دين الله، وتحريم دماء المسلمين[٦] وأموالهم، وأذاهم، ومؤازرتهم على الايمان، واستحلال دماء الكفار على ما كان يستحله منهم رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ما خلى من أعطى الجزية من أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئين.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار الحق بقدرة، فمن لم يستطع

---

(١) فصلت: ٤٢. (٢) الأنفال: ٤٢. (٣) في أ: وصام.

(٤) الرفث، هو قول الفحش والمراد: الجماع.

(٥) الفسوق، هو الفجور والخروج عن جادة الحق.

(٦) في ب نجد فوق كلمة المسلمين كلمة: المؤمنين، وليس هناك شطب لأحداهما وفي أ نجد «المؤمنين» فقط. ونحن نلاحظ أن المؤلف يؤثر كلمة «المؤمنين» على كلمة «المسلمين» إذا كان الوصف لغير الفاسقين الذي يعصون الله ويرتكبون الكبائر مع انخراطهم في موكب أهل القبلة.

فلا جناح عليه، وأداء الزكاة على شرط رسول الله، ﷺ، وتنفيذ الصدقات ووضعها على ما أمر الله في كتابه من قوله: ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب**﴾ الاية[1]، ووضع الفيء والغنيمة على ما أمر الله في كتابه من قوله إذ يقول: ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى**﴾[2]، وإلى تحريم ما حرم الله في كتابه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، إلى قوله: ﴿ **بالأزلام**﴾[3]، وإلى اجتناب الخمور، وشهادات الزور، وقذف المحصنات والفرار من الزحف، والبخس في المكيال والميزان، «ومنع»[4] ما حرم الله من نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وما ذكر معهن، إلى قوله: إلا ما قد سلف[5]. وأشباه ذلك مما قد ذكر الله من تحريم الزنا وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وأكل أموال اليتامى ظلماً وإتيان الذُكْران من العالمين، وأخذ الرشا في الحكم، وتعطيل الحدود، والسرقة، والخيانة.

---

(١) التوبة: ٦٠، وتمام الاية: ﴿ **.. والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾.

(٢) الحشر: ٧، وتمام الاية: ﴿ **... واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾.

(٣) وهي الاية ٣ من سورة المائدة، حيث يقول الله، سبحانه: ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما زكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام**﴾ والأزلام جمع زلم وهي الأقداح الثلاثة كانوا يجرون القرعة عليها ليقرروا المضي فيما يعزمون عليه أو العدول، وكان يكتب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الاخر: نهاني ربي، وكان الثالث غفل من الكتابة، وفي حالة خروج الأخير يجيلون القرعة ثانية راجع (تفسير البيضاوي) ص ١٦٧.

(٤) في الأصل: مع.

٥) وهي الايات ٢٢، ٢٣، من سورة النساء حيث يقول الله، سبحانه: ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف أن الله كان غفوراً رحيماً**﴾.

من لم تبلغه الدعوة

فإن كان في الدنيا أحد لم تأته الأخبار، فعلم أنه وما أشبهه مخلوق، وأن الله خالقه وخالق الخلق، وأنه قديم وما سواه محدث، وأنه لا شبه له ولا نظير، وأنه عدل لا يجور، وحكم لا يظلم، فقد أصاب جملة التوحيد والعدل.

فإن شبهه بعد ذلك بشيء، أو شَكَّ في أنه يشبه شيئاً، أو ظن أنه يظلم ويجور، فقد نقض جملته وخرج مما دخل فيه.

من بلغته الدعوة

وأما من أتته الأنباء والأخبار، وقامت عليه الحجة بالرسل والكتب و«الاثبات»[1]، فإذا هو عرف الجملة وأقر بها، وعرف الرسول وشهد الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأقر بجميع ما يأتي به النبي، صلى الله عليه وآله، من عند الله، وأنه الحق، وضمن أداء جميع ما فرض عليه، فهو بعد مؤمن مسلم. فإن جحد شيئاً من تلك الأصول المنصوص عليها، أو شك فيها، بعد قيام الحجة عليه فقد نقض جملته، وصار بذلك من الكافرين.

ومن العلم بدين الله عندنا معرفة النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومعرفة من هو، ومِمَّن هو، وأنه لا نبي بعده، وأنه لم يكن يعلم الغيب، ولا ينتحله أحد دون الله بعده، وأن القرآن كتاب الله، وأنه أخبر فيه أن حجته بالغة، وأنها عند جميع الناس في لغاتهم معروفة، وأن أنبياء الله لم يزل يُحْتَج بها، ويقر أنها من خالقها، وأنهم جميعاً جاءوا بالبينات والآيات، وهن الحجج، وأن تلك الحجج ميراث الأنبياء يورثونها أتباعهم. وأن الله أبان رسله بالأعلام[2] والدلالة التي لا يقدر الخلق عليها، ولا تكون إلا من فعل الخالق، كإحياء الموتى، وإلقاء العصا فصارت حية تسعى، وكمجيء الشجرة، وكلام الذئب، وأن هذا ما لا يعطاه أحد

(١) رسمها في أ ، ب هكذا: والانبا.
(٢) أي المعجزات.

إلا الأنبياء والرسل، وأن أتباع الرسل إنما يخبرون عن حجج الرسل ويدعون إليها الناس ويحتجون عليهم بها.

وأن مما احتج الله به أن جعل كتابه عربياً مبيناً، بلغة العرب وكلامهم، وجعله مع ذلك لا يشبه الشعر ولا الرسائل ولا الخطب ولا السجع، ولكنه أبانه من ذلك كله، فلا يطيق أحد أن يأتي بمثله.

وأن الله قد أقام سنة نبيه فيما لم يبينه في الكتاب مفسراً مشروحاً، من عدد الصلوات وأوقاتها وحدودها، وتفسير الحج والعمرة، وأن ذلك لا يكون إلا في الكعبة.

وأنه جعل الزكاة في الأموال، تؤخذ من الأغنياء وتوضع في الفقراء، وأنه لا يحل أخذ مال أحد من أهل الصلاة إلا بطيب من نفسه أو بالميراث أو بفرض يلزمه أو بحق يجب عليه، وإن فجروا وضلوا بالحدود، ما لم يخرجوا من الملة وحكمها، وحرم منهم الدماء وجميع الجراحات إلا ما أحل الله من إقامة الحدود على من أصابها ممن أقر على نفسه في صحة من عقله، أو قامت عليه بذلك بينة، عل ما بينه الله في كتابه وسنة رسوله، عليه وعلى آله السلام.

وأن القصاص سواء بين أهل الملة جميعاً فيما بين شريفهم ووضيعهم وأبرارهم وفجارهم ما لم يخرجوا من الملة. وأن الله أوجب عليهم الامتناع من الظلم إذا قدروا، ومعونة المظلومين إذا استطاعوا، ولا يتعدوا في ذلك ولا في غيره حد الله.

وأن الصيام في شهر معلوم، شهر رمضان، سوى ما يجب لله من كفارة اليمين والظهار وقتل الخطأ وفي التمتع بالعمرة إلى الحج إذا لم يجد الهَدْي[1]، وفيمن أوجب على نفسه نذراً، وفيما أوجب على المسافر والحائض من قضاء ما فاتهم من شهر رمضان، وكذلك المريض.

وفيما «ينفقون»[2] ويأتون من الطعام والشراب والنكاح ومن الغسل من الجنابة.

---

(١) الذبيحة.

(٢) في ب رسمها هكذا: ينفون، وفي أ رسمها عير واضح.

وأن من الكتاب ناسخاً ومنسوخاً، نحو أمر القبلتين، وإمساك النساء الفواجر في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً.

وأن من تعمد أن يخبر بما يعلم أنه لم يكن فيقول: إنه قد كان، أو بما يعلم أنه لا يكون فيقول إنه يكون أو يقول قد كان فهو كاذب، أو بما لا يعلم أو بما لا يفعل فهو جاهل، وأن الله من ذلك بريء.

وأن شرائع الأنبياء كانت مختلفة، وأنها على اختلافها يجمعها اسم الدين والطاعة والإيمان والهدى والتقوى والبر والإحسان، وأن بعضهم لم يقصص علينا باسمه، ولم يبين لنا في كتابه ولا سمى نبياً بعينه، وإن علمنا ما جهلنا من ذلك كان ديناً وإيماناً فرضه الله على تلك الأمم ووضعه عنا.

وأنه لا يجوز لمدع دعواه إلا ببينة، فمن ادعى مما في يد غيره مما لا يدرك علمه إلا بالشهود لم يعط ما ادعاه إلا بشاهدي عدل، أو بإقرار المدَّعَى عليه للمدعي.

ثم بين سنته في الشهود[1]، فأبطل شهادة كل فاسق منهم أو خصهم، وأن بعض الشهود ربما شهدوا بالزور الذي لا يعلمه إلا الله، وأن على الحكام أن يمضوا الشهادة مع جهلهم بما يغيب به الشهود، إلا أن الله يعلم أنهم قد شهدوا على باطل.

أفضل العلم

وأن أفضل الدين كله العلم بالله، تبارك وتعالى، وبدينه، وأنه لا ينفع قول إلا بعمل ولا عمل إلا بعلم في إثبات اسم ولا ثواب. وذلك أن من أقر بالحق ولم يعمل به لم يستحق الأسماء الزكية ولا ثواب أهلها، ومن ضيع العلم بالله وبدينه لم ينتفع بشيء من علمه، وأن كلهم متعلم وكلهم محتاج إلى العلم مفضل له ولأهله، وذام للجهل عائبٌ له وأهله، وأنهم لم يزالوا يتقربون إلى الله بالقول السديد

(١) وذلك في الايات: ٢٨٢ من سورة البقرة، ٤، ٦، ١٣، من سورة النور، ٦ من سورة الحجرات.. الخ.. الخ..

والعمل الصالح ويعبدونه بذلك. وأن اسم دينهم الذي تعبدهم الله به، ودانوا به، الذي بُلِّغ، «الإيمان»[1] والإسلام والتقوى والبر ونحو ذلك، وأن قد حرم الله على المسلمين أن يزكوا أنفسهم، وأن قد أوجب عليهم أن ينسبوا جميع المسلمين إلى الإيمان والإسلام، وأنهم قد كانوا يثبتون لهم اسم الإيمان ثم لا يعلمون بسرائرهم، وأنهم قد كانوا يتولى بعضهم بعضاً على أنهم سمعوا منهم بعض ذلك وإن لم يروا منهم عملاً، وكذلك يفعلون فيمن يرونه يعمل وإن لم يسمعوا منهم قولاً، فإن الاسم الذي قد ثبت عندهم على الظاهر وإن لم يعلموا الباطن، وأنه لا يحصي أحد منهم جميع ما فرض الله، وأن الله لم يكلفهم «إحصاءه»[2] ولا إحصاء أهله.

وأن دينهم: أنهم يرجون ثواب الله ويخافون عقابه، وأنه لا خوف على أولياء الله في الآخرة ولا هم يحزنون، وأن أولياء الله المؤمنون، وأن الله قد استحق ولاية وليه وعداوة عدوه على جميع العالمين «الذين قامت عليهم بذلك حجة الدين»[3] وأن من لم تنفع ولايته وتضر عداوته «من جميع الخلق»[4] معيب عندهم منقوص. وأن الله أحق أن تنفع ولايته وتضر عداوته من جميع الخلق.

وأن الأنبياء لم تزل مستحقة لثواب الله منذ بعثها الله، وأنها لم تكفر قطولم تفسق ولم تُقِم على شيء من الذنوب بعلم ولا تعمد، وربما أذنبت على طريق الظن وطريق النسيان، وأن ذنوبها صغائر مغفورة وأنها لا تأتي الكبائر، وأن من قذف الأنبياء بالكفر والكبائر فهو أولى بالكفر.

وأن المؤمنين مُقِرُّون جميعاً على أنفسهم بالذنوب، وأنهم ينتفون من الكفر والفسق، ويكرهون أن ينسبوا إليه.

وأن الله قد ميز بين صغائر الأمور وكبائرها، فلم يجعل السبة والكذبة وأشباهه كالكفر بالنبي، صلى الله عليه وعلى آله، والكتاب وأشباه ذلك، والنظرة

---

(١) في أ، ب: بالايمان.

(٢) في ب: إحصاؤه.

(٣) غير موجودة في أ.

(٤) غير موجودة في أ.

كالقتل والزنا والربا والسرقة وأشباههن[1]، وأنه قد خالف بين أحكامهن وأسمائهن وأسماء أهلهن، وأنهم لا يشهدون على ذنب بعينه أنه صغير مغفور إلا أن يكون الله قد سمى من ذلك شيئاً في الكتاب بعينه، أو سماه الرسول، صلى الله عليه وآله، ما خلا ذنوب الأنبياء، عليهم السلام.

وأنهم لا يزالون يُفَسِّقون أهل الكبائر من أصحاب الحدود ويبغضونهم ويشتمونهم، ويحبون أهل الخير وإن أذنبوا على الظن والنسيان، ما لم يخرجوا إلى الكبائر، وأنهم لا يزالون يعظمون القتل والزنا ونحوهن، والسرقة ممن فعلها، وأن معنى الكبير والقليل والعظيم واحد.

وأن الجنة دار للمتقين، وأن النار دار للفاسقين، وأنهم لا يزالون يبغضون من اطلعوا على فسقه وإن كان يستغفر الله حتى يظهر التوبة النصوح.

وأنهم يستحبون أن يكتم كل امرىء على نفسه وإن أصاب حداً. وأن التوبة عندهم مقبولة ممن حُدَّ وممن لم يُحَدَّ، وأن من سمى أهل الحدود «كافرين»[2] ثم حكم عليهم بحكم الكفار عابوه ومن سماهم مؤمنين وحكم لهم بحكم المؤمنين عابوه. وأن اسم الملة اسم يجمع جميع المنطوين إلى الإسلام وإن كان فيهم فجور.

وأن الله قد بين حكمه في جميع «الكافرين»[3] من مشركي العرب من أهل اللات والعزى، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمنتقلين من جميع أصناف أهل الكفر من دين إلى دين، والمرتدين عن الإسلام بعد إظهار الدين. وبين حكمه في المؤمنين والفاسقين والمنافقين والمستترين بالكفر. وأنه لم يكن يقاتل[4] أحداً من المشركين حتى يدعوه، وأنه قد أبان ذلك كله وفصله. وأنه لا يوجد في زمان النبي، عليه السلام، كافر ليس بمشرك، وأنهم

---

(١) عبارة أ هكذا: «فلم يجعل السبة والكذبة والنظرة كالقتل والزنا والربا والسرقة وأشباههن، ولم يجعل القتل وأشباهه كالكفر بالنبي صلى الله عليه وآله والكتاب وأشباه ذلك، وأنه قد خالف». . الخ. . . والخلاف بين النسختين أساساً في التقديم والتأخير.

(٢) في ب: كفرين.

(٣) في ب: الكفرين.

(٤) أي الرسول.

لا يعتمدون أحداً ممن أقر بالنبي عليه وعلى آله السلام، يكفر إلى يوم القيامة، أو يلحق بالمرتدين.

وأن النفاق استسرار بالطعن في دين الله ودين الرسول، وأن الله قد أقام حجته فيما فرض من دينه بتحريم الشك فيه والإنكار له جميعاً.

وأن التَّقيَّة[1] جائزة فيما حُمِل الناس عليه وهم له كارهون يخافون القتل والمثلة، وذلك فيما لا يرجع ضرره على أحد من العالمين.

وأن رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، قد كان يعذر[2] نفسه وغيره فيما لم يأت به جبريل من الدين، مما لم يعرف إلا بالسمع، مما لم يأت به جبريل عليه السلام، حتى يأتيه به. وأنه لم يكن يترك أهل دعوته يظهرون قبيحاً وأنه لم يكن يكتم شيئاً من الدين الذي أمره الله بإظهاره، ولا يعطي فيه تقية، وأنه لم يزل له مظهراً، يأمر أتباعه بإظهاره والدعاء إليه.

وأن الشيطان يحب دفن الدين ويدعو إلى إماتته، وأنه لا يجوز تغيير شيء مما أثبت النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، وأن الدنيا فانية وأن الاخرة باقية «إلى»[3] الأبد.

وأن الملائكة والجن والإنس أجناس شتى، وأن الملائكة أفضل برية الله، وأنهم مقربون في كل خبر، مقربون في كل منزلة، مفضلون في كل ذكر.

وأنه جعل من دينه مَوْقِتاً محدوداً: صلاة وصياماً ونحوهما، وجعل منه متمهلاً[4] فيه لا يدرك حده. بر الوالدين، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) هي أن يظهر الإنسان الطاعة حيث تجب عليه الثورة ضد نظام لا ترضاه عقيدته أو موقف يتنافى مع مبدئه، ولقد كان الخوارج، عموماً، ينكرون جوازها، والمؤلف يتخذ هنا موقفاً وسطاً، فيجوزها للمضطرين شريطة أن لا يكون في ذلك ما يتنافى مع الصالح العام ونفع المجموع، أي أن جوازها مشروط بأن يكون الضرر فردياً فقط.

(٢) من المعذرة، وهي رفع اللوم والذنب.

(٣) غير موجودة في ب.

(٤) غير واضحة الدلالة في ب، وما أثبتناه في أ، والمتمهل في الدين ضد المتشدد المنبت الذي لا يوغل فيه برفق.

عن المنكر، ونحو ذلك من الأمور التي تعرف عند المشاهـدة. وأن الله لا يلبس حكمه، ولا يخلف قوله، وأن الحق الواجب على المسلمين في دينهم التثبت فيما غاب عنهم حتى يجيئهم اليقين من تواتر الأخبار وتظاهرها.

وأن الله لا يظلم عباده شيئاً، ولا يعذب إلا بعد إنذار، ولا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يحملها إلا طاقتها، ولا يفرض طاعته إلا على أهل الصحة والسلامة والعقل والقوة، وأنه دعا جميع عباده المكلفين إلى دينه، وأنه يحب طاعته ويبغض معصيته، وأنه جعل بعض الأعمال أفضل من بعض وبعض الأقاويل أفضـل من بعض، وبعض العلم أفضل من بعض. وأن من العلم غامضاً خفياً ومنه واضحاً جلياً، وأن جهل بعض ذلك واسع وجهل بعضه ضيق، وأنه لا ينزل أحداً من الناس كلهم من منزلة النبي في تصديق له ولا في تكذيب ولا شك في قوله. وأنهم يعملون بالأخبار المجتمع عليها، ويَشُكُّون في القول الشـاذ وإن روي عن النبـي، عليه السلام.

وأن الله افترض اتخاذ الإمام العادل إمام ليؤتم به، وسمي خليفة ليخلف النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، في أعماله. وأنه من خالف حكمه حكم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وفارقه، فليس بإمام ولا خليفة، مُتَبِّرٌ[1] ظالم.

وأن الأخذ بجميع ما أجمعوا عليه صواب وبر وهدى، وأن الترك لما أجمعوا عليه ضلال وخطأ.

(١) مهلك ظالم.

خاتمة

فهذه صفة جملة الدين، وكثير من تفسيرها في التوحيد وغيره، ونرجو أن تكون هذه الجملة تدل على الصواب كله وتنفي الخطأ كله، وأن نكون قد ذكرنا فيها أموراً قد أقام الله بها حجته على جميع العالمين في جميع ما هم ذاكرون من خطأ أو صواب، وأن يكون قد دخل في هذه الجملة جميع «أصناف»[1] الاختلاف وقول أهل البدع.

فمن زعم أن هذه الجملة على غير ما ذكرنا، فليعرض جميع ما قال الناس عليها، فما وافقها قَبِله وما خالفها تركه، فإنا نرجو أن لا يخرج من ذلك شيء أبداً إلا أُدرك صوابه وخطأه من هذه الجملة، إن شاء الله تعالى.

ومن ظن أن شيئاً من هذه الجملة ليس بحق فليعرضه على كتاب الله وسنة رسوله، عليه السلام، وفطرة العقول، فمن عمل بما أمره الله به وانتهى عما نهاه الله عنه، ودان بذلك فله ما لنا وعليه ما علينا بتولي كل مهتد «مضى»[2] قبلنا، وسيرتنا في ولينا كسيرة نبينا، عليه السلام، في ولينا، وسيرتنا في عدونا كسيرة نبينا في عدونا:

الله ربنا، والقرآن إمامنا، والاسلام ديننا، والكعبة قبلتنا، والموت غايتنا، والحشر يجمعنا، والموقف موعدنا، وحكم الله يفصل بيننا، والجنة والنار أمامنا. نسأل الله الجنة برحمته، ونعوذ بالله من النار بعفوه.

إلى هذا ندعو مَن أجابنا ونجيب من دعانا. هذا ديننا ونحلتنا، والطيبون من

---

(١) غير موجودة في أ.

(٢) غير مقروءة في ب.

آل محمد قادتنا. فمن وافقنا على هذا فهو ولينا، ومن خالفنا فهو عدونا، والله ولي المؤمنين وعدو الفاسقين.

«تم الأصل»[1]، والحمد لله وحده وصلواته على رسوله
«سيدنا»[2] محمد «النبي وعلى آله وسلم»[3].

(١) في أ: تم ذلك.
(٢) غير موجودة في
(٣) عبارة أ: وعلى أهل بيته الطيبين وسلم.

الرد
على أهل الزيغ من المشبهين

ماذا نعبد؟

إن سأل «مسترشد سائل»[1] أو قال متعنت «قال»[2] «أو ملحد»[3]: ماذا يعبد الخلق؟

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم.

فان قال: وأين معبودهم؟ أفي الأرض؟ أم في السماء؟ أم فيما بينهما من الأشياء؟..

قيل له: بل هو فيهما وفيما بينهما، وفوق السابعة العليا، ووراء الأرض السابعة السفلى، لا تحيط به أقطار السماوات والأرضين، وهو المحيط بهن وبما فيهن من المخلوقين، فكينونته فيهن ككينونته في غيرهن، مما فوقهن وتحتهن، ككينونته قبل إيجاد ما أوجد من سماواته وأرضه، فهو الأول الموجود من قبل كل موجود، والمكوِّن غير مكوَّن، والخالق غير مخلوق، والقديم الأزلي الذي لا غاية له ولا نهاية، الذي لم يحدث بعد عدم، ولم يكن لأزليته غاية في العدم، البريء من أفعال العباد، المتعالي عن اتخاذ الصواحب والأولاد، المتقدس عن القضاء بالفساد، والصادق الوعد والوعيد، المحتج بالبراهين النيرة على العبيد، الداني في علوه، والعالي في دنوه، خالق السموات والأرضين، وهو الموجد لأولهن والمبيد آخراً لما أوجد منهن والمبدل بهن في يوم الدين غيرهن.

فإن قال: فما معنى كينونته فيهن وفي غيرهن مما بينهن؟ العِظَم جسم أحاط بهن وكان كذلك فيهن؟ أم لسرعة تَحَوُّل وانتقال منهن إلى غيرهن، ومن غيرهن إليهن؟

قيل له: ليس إلهنا، سبحانه، كذلك، ولا يقال فيه بذلك، وهو سبحانه

(١) في ب تقديم وتأخير يجعل العبارة: سائل مسترشد.

(٢) في أ، ب: قائل.

(٣) غير موجودة في أ.

متعال عن الانتقال، متقدس عن الزوال، وعن التصور في صور الأجسام، تعالى عن ذلك ذو الجلال والإكرام.

ولكن معنى قولنا: إنه فيهن، هو أنه مدبر لهن قاهر لكل ما فيهن، ما لك لأمرهن ما بينهن وما تحتهن وما فوقهن، لأنه مسخر لهن، ولا داخل كدخول الأشياء فيهن[1].

فإن قال السائل المتعنت: فما هو، في ذاته، عندكم إذا كان كذلك في قولكم، وما تعتقدون في دينكم، أجسم[2] هو أم عرض[3]؟

قيل له: تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً، لا نعتقد شيئاً من ذلك، وليس ربنا سبحانه كذلك، لأن الجسم محدود مبعض، والله ليس كذلك، والعرض لا قوام له إلا بغيره، والله «هو»[4] المقيم لكل شيء، والذي لا يحتاج إلى معونة شيء، فلذلك قلنا: إن ربنا على خلاف قولك.

---

(١) وذلك على العكس من نظرية وحدة الوجود التي تتجلى في فكر محيى الدين بن عربي، الذي يجعل «الحق» (الله) هو عين «الخلق» (الموجودات) كما يجعل «الخلق» مجلى «الحق»، وينتهي إلى أنهما شيء واحد، رغم اعترافه بأن «للحق» وجوداً حقيقياً في ذاته غير وجوده الاضافي في أعيان الممكنات، ولقد قدم ابن عربي صياغات كثيرة لنظريته هذه في عديد من كتبه، ومن أشعاره المعبرة عن ذلك:

فيحمدني وأحمده ... ويعبدني وأعبده
لذاك الحق أوجدني ... فأعلمه فأوجده

وقوله:
فنحن له كما ثبتت ... أدلته ونحن لنا
وليس له سوى كوني ... فنحن له كنحن بنا
فلي وجهان، هو وأنا ... وليس له أنا بأنا
ولكن في مظهره ... فنحن له كمثل إناء

أي (إناء). راجع (فصوص الحكم) لابن عربي. ص٢٧، ٨٣، ٨٤.

(٢) هو الشيء المادي المدرك بالحواس، والموضوع في مكان، أو هو ما له يمين وشمال وظهر وبطن، وأعلى وأسفل، يقسمونه إلى جسم رياضي، وطبيعي وحي. راجع «المعجم الفلسفي» للأستاذ: يوسف كرم، د. مراد وهبة، يوسف شلاله.

(٣) هو ما قام بغيره، ويقابل «الجوهر» و«الذات»، وهو إما قار الذات، وأما لازم، وإما مفارق، وهو عند ابن رشد ينقسم إلى المقولات التسع التي هي: الكمية، والكيفية، والاضافة، وأين، ومتى، والوضع، وله، وأن يفعل، وأن ينفعل. راجع «المعجم الفلسفي».

(٤) في الاصل: فهو.

فإن قال: أفنوراً تعبدون؟ أم ظلمة هو تقولون؟ أم غير ذلك مما يعقل تذكرون؟ وإلا فما أراكم تعبدون شيئاً عليه تقفون. ولا تدعونني إلى عبادة شيء «لا»[1] أعرفه، ولا إلى الإقرار بإله «لا»[2] يقف عقلي ووهمي على صفته، فكيف أعبد ما لا أعرف؟، أو أتعبد لما لست عليه أقف؟ وإنما لا يجب علي أن أقر به فضلاً عن أن أعبده. وإنما يجب علي أن أعبد إلهاً عرفته فلم أنكره، ووقعت عليه حواسي فلم أدفعه، فأما ما لم أقف عليه بعقلي، ولم أعرفه بشيء من حواسي، فكيف يكون عندي ثابتاً، فضلاً عن أن يكون واحداً قادراً فاعلاً؟

والوحدانية «إنما»[3] تكون عندي وتثبت في قلبي لما عرفته بصفاته ووجدته بذاته، فحينئذ أقف على وحدانيته، فأما ما لم أقف له على تحديد، ولم أعرفه بكون ذاته، فكيف أوحده، بل كيف أعبده؟ أوجدوا لي بقولكم حجة وتبياناً، وأظهروا لي بذلك حقاً وسلطاناً.

قيل له: لعجز حواسك وعقلك عن درك معبودك، جل جلاله، بالتحديد، صح له سبحانه، ما أنكرت من التوحيد، لأن حواسك وعقلك أدوات مجعولات مركبات على درك المخلوقات مثلهن المصورات بالخلق كتصويرهن، فأما ما لم يكن لهن مشابهاً، ولا لمعانيهن مشاكلاً، وكان عن ذلك متعالياً، ولم يكن له حد ينال، ولا شبه تضرب له به الأمثال، فلا يدرك، جل جلاله، بهن، ولا تدرك معرفته بشيء منهن، ولا يستدل عليه إلا بما دل به على نفسه، من أنه هو، وأنه القائم بذاته.

فلما صح عند ذوي العقول والتبيان، وثبت عند كل ذي فهم وبيان، أن الحواس المخلوقة والألباب المجعولة لا تقع إلا على مثلها، ولا تلحق إلا بشكلها، ولا تَحُدُّ إلا نظيرها، صحت له، سبحانه، لَمَّا عجزت عن درك تحديده، الوحدانية، وثبتت للممتنع عليها من ذلك الربوبية، لأنه مخالف لها في كل معانيها، وبائن عنها في كل أسبابها. ولو شاكلها في سبب من الأسباب لوقع عليه ما يقع عليها من درك الألباب.

---

(١) غير موجودة في الاصل.
(٢) غير موجودة في الاصل.
(٣) في الاصل: فإنما.

فلما تباينت ذاته وذاتها، فكانت هي فعله وكان هو فاعلها بانت بأحق الحقائق صفاته وصفاتها، فكان دَرْكُ الأفهام والعقول لها بالتبعيض والتحديد والانحدار منها والتصعيد، وكانَ دركُ معرفته، سبحانه، بأفعاله وما أظهر من آياته ودل به على نفسه من دلالاته، من خَلقِ أرضه وسماواته، وما ابتدع بينهما من خلقه، فكان الدرك بالصنع والأفعال للصانع الفاعل، كالدرك بالعيان سواء بسواء عند كل ذي فهم عاقل، وكان درك الحواس لما شاكلها وما كان منها ومثلها في التحديد والعيان، وكان دركها لما باينها فلم يشاكلها وكان على خلاف ما هي عليه من تقديرها وتصويرها متقدساً عن مشاكلتها بما ندركه من أفعاله، ونقف عليه من آياته في أنفسها دون غيرها، ثم في غيرها من بعدها.

فلما أن وجدت العقول والحواس أجساماً مثلها، مصورات في الخلق كتصويرها، وأعراضاً لا تقوم إلا بغيرها، استدلت على الفاعل بفعله، ووقفت على معرفة الخالق بخلقه، كما نعرف كل ذي عمل بعمله، ونستدل على كل صانع بفعله، لأنك متى وقفت على جدار مبني علمت أن له فاعلاً بانياً، وكذلك إذا وقفت على ثوب معمول، علمت أن له عاملاً غير مجهول، وكذلك لو سمعت حاسة السمع صوتاً لعلم السامع أن له مصَوِّتاً منه كان، ومن بعد خروجه من حلقه بان لسامعه ووضح علمه لعامله.

وكذلك لما رأت حاسة البصر الآيات المجعولات، وما فطر الله من الأرضين والسماوات علم ذو الحاسة بعقله وتمييزه أن لذلك مدبراً جاعلاً وخالقاً محدثاً فاعلاً، ليس لشيء من خلقه مشابهاً ولا مُشاكِلاً، لأن كل ما يدرك بالتحديد والتبعيض والعيان من الأشياء، فالأشياء لا تخلو من أن يكون غيرها جعلها أو هي جعلت أنفسها، فلما أن كان ذلك كذلك، نظرنا في خلقها لأنفسها فاستحال عندنا، وامتنعت من قبوله عقولنا، لأنها كانت من قبل الجعل عدماً، والعدم «لا»[1] يجعل موجوداً، ولا يخلق جسماً، لأنه ليس بشيء وما لم يَعن بشيء فلا يفعل شيئاً أبداً، فضلاً عن أن يخلق جسماً.

---

(١) في الاصل: فلا.

فلما أن بطل، لما ذكرنا، أن تكون جعلت أنفسها، ثبت أن الجاعل لها غيرها، المصور المقدر لخلقها، وأنه مباين في كل الأمور لها، غير مشاكل لشيء منها. .

فلما أن صح بُعْدُه عن مُشَاكلتها صح عجز المجعولات عن درك جاعلها، وثبت انحسارها عن تحديد خالقها، فلما أن صح عجزها عن دركه وثبت انحسارها عن تحديد خالقها، ثبت بذلك، أيها السائل، ما أنكرت من معرفته سبحانه.

فلما ثبتت لك معرفته، صحت لك بلا شك وحدانيته، ولما صحت له الوحدانية وجبت له، سبحانه وجل جلاله الربوبية. فافهم ما عنه سألت وانظر فيه إذا نظرت بلب حاضر ورأي وارد صادر، يَبِن لك في ذلك الصواب وينكشف لك عنه الحجاب، إن شاء الله، والقوة بالله، وله.

حجج العقل والنقل ـ هل تتضاد؟

ومن الحجة أيضاً في ذلك ، ولمن قال ذلك ، أن يقال له : أخبرنا عن العقل الذي «تريد ، بزعمك »[1] أن تقف به على معرفة ربك ، أَحُجة هو لله فيك أم ليس بحجة له عليك؟ فلا يجد بداً من أن يقول هو حجة لله فيَّ ، ركبها سبحانه للاحتجاج بها علي ، فإذا قال ذلك وكان الأمر عنده فيه كذلك؟

قيل له : أوليس كذلك القرآن هو حجة عليك وعلى غيرك من الرحمن؟ فإذا قال : نعم ، كذلك أقول ، وإلى ذلك اعتقادي يؤول .

قيل له : فهل يجوز أن تضاد حجج الله وتختلف ، وتباعد المعاني فلا تأتلف ، فتدل إحداهن على معنى وتبطله وتنكره الأخرى؟ فكلما أثبتت حجة العقل لله حجة على العباد أنكرتها ودفعتها وخالفتها وأبطلتها حجة الله في الكتاب ، وكلما أثبتت حجة الله في القرآن شيئاً دفعته حجة العقول دفعاً؟ فإن قال : نعم ، يكون ذلك ويوجد ، استُغني عن مناظرته بجهله ، واستدل على كفره بذلك ، وخالف الخلق أجمعين ، وقال بما لم يقل به أحد من العالمين ، وافتضح عند نفسه فضلاً عن غيره ، لأنه يزعم أن حجج الله تتناقض وتتضاد وما تناقض وتضاد فليس بحجة لله على العباد .

وإن رجع إلى الحق ، وتعلق من القول بالصدق فقال : لا يجوز ذلك ، ولا يكون أبداً كذلك ، لأن حجج الله على الخلق يؤكد بعضها بعضاً ويشهد ناطقها من القرآن لمستجن مركبها في الإنسان ، ويشهد عقل الإنسان لنواطق حجج القرآن ، وكذلك ما نطق به الرسول يشهد له القرآن والعقول .

---

(١) مطموستان في ب .

من ذلك ما يروى عن النبي، المصطفى عليه أفضل صلاة أرحم الراحمين، من أنه قال: سيُكْذَب علي كما كذب على الأنبياء من قبلي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله فليس مني ولم أقله.

فأخبر، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه لا يأتي منه قول مخالف للكتاب، لأنه حجة لله على خلقه، لا يوضح ولا يدل إلا ما دل عليه القرآن وأوضح.

فإذا فهم ما قلنا به من ذلك، السائل، وقال به، من أن حجج الله يؤكد بعضها بعضاً، ولا يبطل شيء منها شيئاً، قيل له: كيف ـ يا لك الخير ـ تريد من العقل المخلوق أن يصف لك الخالق ويقف عليه بتحديد، وفي ذلك إبطال ما نطق به القرآن من التوحيد لله الواحد الحميد؟ وذلك قول الرحمن فيما نزل من النور والفرقان حين يقول: ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1]، وحين يقول، سبحانه: ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[2]، والكفو هو المثل والنظير، في الصغير كان من الأمور أو الكبير.

وهذا كله، وما كان من القرآن مثله، فينفي عن الله التشبيه، فكذلك حجة الله من العقول في الإنسانْ تنفي ما نفاه عن الله المحكم من القرآن، ولو ثَبَّت لك عقلك أو صحح لك لبك، أن ربك كغيره من الأشياء، فتعالى عن ذلك العلي الأعلى، ولو كان ذلك لتناقضت حجج الرحمن في كل قول وبيان، ولو تناقضت حججه لبطلت فرائضه، ولو بطلت فرائضه لبطل معنى إرساله للرسل، ولو بطل معنى إرساله لرسله، لبطل معنى أمره ونهيه، ولو بطل معنى أمره ونهيه لبطل معنى ثوابه وعقابه، ولو بطل معنى ثوابه وعقابه لبطل معنى خلقه لدنياه وآخرته، ولو بطل معنى خلقه لدنياه وآخرته لبطل معنى خلقه لسماواته وأرضه، ولو بطل معنى خلقه لسماواته وأرضه لبطل معنى خلقه لما فيهما وبينهما من خلقه، ولو بطل معنى خلقه لما فيهما وما بينهما من خلقه لما كان لما أوجد من ذلك معنى، ولو لم يكن لجميع

---

(١) الشورى: ١١.
(٢) الأخلاص: ١ ـ ٤.

ما أوجد من الأشياء أو بعضها معنى ثابت مفهوم صحيح بَيِّن معلوم لدخل بذلك على الحكمة الفساد، لأن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لسبب وأمر ومعنى. ومن فعل فعلاً لغير معنى فإنما ذلك منه عبث أو جهل، ولو دخل على الحكيم ضد الحكمة لكان اسم الجهل له لازماً، ومن لزمه اسم الجهل فليس بخالق، والخالق «هو»[1] الحكيم غير الجاهل. فتعالى الله الرحمن الرحيم، الخلاق الحكيم لا إله إلا هو الواحد الكريم، عما يقول المبطلون، ويضيف إليه الفاسقون، ويصفه به الجاهلون.

فلينظر من نظر في كتابنا هذا إلى ما يؤول إليه قول من قال بتناقض حجج الرحمن واختلافها في الشرح والبيان، فإنه يؤول إلى جحدان الخالق وإبطاله ودفعه له مما يُدْخِل عليه من الجهل في خلق ما يخلق إذ خلق بزعم من جهل وفسق لغير معنى.

وقد نعلم أن من فعل فعلاً لغير سبب ولا معنى فإنما عبث واستهزأ وضاد الحكمة فيما به أتى، والله، سبحانه «مخالف»[2] لذلك، ومتعال، سبحانه، عن الكينونة كذلك.

فقد بان، بحمد الله، لكل ذي عقل وعرفان، وفهم وتمييز وتبيان، أن من قال بتناقض حجج الرحمن غير عارف به ولا مقر، ومن لم يعرف الله جل جلاله فلم يعبده، ومن لم يعبده فقد عبد غيره، ومن عبد غيره فهو من الكافرين، ومن كان من الكافرين فقد خرج، بحمد الله، من حد المؤمنين. فنعوذ بالله من الجهل والعمى، ونسأله الزيادة في الرحمة والهدى، وحسبنا الله «ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير، والحمد لله رب «العالمين»[3]، وصلى الله على سيد المرسلين، محمد وأهل بيته الطيبين[4].

---

(١) في الاصل: فهو.

(٢) في الاصل: فمخالف.

(٣) مكشوطة في الاصل.

(٤) عبارة أ: وكفى، وصلى الله على محمد المصطفى، وعلى من طاب من عترته وزكى.

المراجع

ابن الأثير «أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم»

- الكامل في التاريخ. جـ ٢ . تحقيق: عبد الوهاب النجار. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

ابن جني (أبو الفتح عثمان)

- الخصائص. جـ ١، ٢ . تحقيق: محمد علي النجار. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢، سنة ١٩٥٥ م.

ابن حابس (أحمد بن يحيى بن حابس الصعدي اليماني)

- المقصد الحسن والمسلك الواضح السنن. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. (٣٧ ٢٩١ ب).

ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي)

- تهذيب التهذيب. جـ ٢ . الطبعة الأولى. حيدر آباد، الهند. سنة ١٣٢٥ هـ.

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)

- كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. الطبعة الأولى. القاهرة سنة ١٣١٧ هـ.

ابن رشد (محمد بن أحمد)

- تهافت التهافت. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

- الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة. تحقيق: د. محمود قاسم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، بدون تاريخ.

ابن سعد (محمد)

- كتاب الطبقات الكبير. جـ ٥. طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ.

ابن عربي (محيي الدين)

- فصوص الحكم. تحقيق: د. أبو العلاء عفيفي. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

ابن قتيبة

- المعارف. تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

ابن المرتضى «أحمد بن يحيى»

- المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. (٢٧٧٩٨ ب).

ابن النديم «محمد ابن إسحق»

- كتاب الفهرست. طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م.

أبو حيان التوحيدي

- البحر المحيط. طبعة القاهرة الأولى.

آرنولد (توماس. و)

- الدعوة إلى الإسلام. ترجمة: د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة الاسكندرية.

د. ألبير نصري نادر

- فلسفة المعتزلة. جـ ١. طبعة الاسكندرية.

أوتو بريتزل

- مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين في الاسلام. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة (وهو منشور كذيل لكتاب: مذهب الذرة عند المسلمين). طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

أوليري
- مسالك الثقافة الأغريقية إلى العرب. ترجمة: د. تمام حسان. طبعة القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.
بيتس (د. س)
- مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذهب اليونان والهنود. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة/ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.
التهانوي (محمد أعلى بن علي)
- كشاف اصطلاحات الفنون. مجلد ١، ٢، طبعة كلكتة، الهند سنة ١٨٩٢ م.
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
- الحيوان. جـ ١، ٢، ٣، ٤، ٦ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الأولى ١٩٣٨ - ١٩٤٤ م.
- البيان والتبيين. جـ ١، ٢، ٣ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة الأولى ١٩٤٨، ١٩٤٩ م.
- رسائل الجاحظ. جـ ١ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ١٩٦٤ م.
- ثلاث رسائل (الرد على النصارى، ذم أخلاق الكتاب، القيان) تحقيق: يوشع فنكل. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.
الجرجاني (علي بن محمد بن علي)
- التعريفات. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
جمال الدين القاسمي
- كتاب تاريخ الجهمية والمعتزلة. طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان)
- الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. تحقيق: د. بيبرج. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

الرازي (فخر الدين)
ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. تحقيق: د. علي سامي النشار
طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
الرازي (محمد بن زكرياء)
ـ رسائل فلسفية. تحقيق: بول كراوس. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م.
روزنتال (فزانز)
ـ المفهوم الإسلامي للحرية قبل القرن التاسع عشر. طبعة ليدن «الانجليزية» سنة ١٩٦٠ م.
رينان (أرنست)
ـ ابن رشد والرشدية. ترجمة: عادل زعيتر. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م.
الزمخشري (محمود بن عمر)
ـ الكشاف. طبعة القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ.
ـ أساس البلاغة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.
زهدي حسن جار الله
ـ المعتزلة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م.
الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي)
ـ أمالي المرتضى. القسم ١، ٢ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٤ م.
الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)
ـ الملل والنحل. جـ ١، ٢. تحقيق: محمد سيد كيلاني. طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م.
الصاحب بن عباد
ـ الابانة عن مذهب أهل العدل. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. طبعة بغداد (ضمن مجموعة) سنة ١٩٦٣ م.

ـ رسائل الصاحب بن عباد. تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، د. شوقي ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٣٣٦ هـ.

طاهر الجزائري

ـ أصل المعتزلة. (مقال منشور ضمن كتاب: القديم والحديث. لمحمد كردعلي) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥.

قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني

ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل. جـ ٤، ٥، ٦: ق ١، ٢، جـ ٧، ٨، ٩، ١٣، ١٦، ١٧، ٢٠: ق ١، ٢ تحقيق مجموعة من الأساتذة، بإشراف د. طه حسين، ومراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور. طبعة القاهرة.

الغزالي. (أبو حامد محمد بن محمد)

ـ تهافت الفلاسفة. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م. سبينوزا. طبعة القاهرة الأولى.

د. فؤاد زكريا ـ سبينوزا. طبعة القاهرة الأولى.

د. فيليب حتي، د. إدوارد جرجي د. جبرائيل جبور

ـ تاريخ العرب «مطول» جـ ٢، ٣. طبعة بيروت الثانية سنة ١٩٥٣ م.

قدري حافظ طوقان

ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

القشيري (عبد الكريم بن هوازن)

ـ الرسالة القشيرية. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

كراوس (بول)

ـ التراجم الارسطوطالية المنسوبة الى ابن المقفع. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م(ضمن مجموعة عنوانها: التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية).

الكندي (يعقوب بن إسحق)

ـ رسائل الكندي الفلسفية جـ ١. تحقيق: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م.

الكواكبي (عبد الرحمن)
ـ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. طبعة القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.

الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي
ـ شرح عيون المسائل. جـ ١. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (٢٧٦٢٣ ب).

محمد بن سليمان الكوفي
ـ خبر الإمام الهادي إلى الحق ودخوله اليمن. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية (٢٩٠٩٢ ب).

د. محمد ضياء الدين الريس
ـ النظريات السياسية الإسلامية. طبعة القاهرة الثالثة سنة ١٩٦٠ م.

د. محمد عبد الهادي أبو ريدة
ـ إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م.

محمد فؤاد عبد الباقي
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. طبعة القاهرة سنة ١٣٧٨ م.

د. محمود قاسم
ـ نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني. طبعة القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية.

مونتجمري وات
ـ الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام. طبعة أدنبرة «الانجليزية» سنة ١٩٦٢ م.

نلينو (كرلو ألفونسو)
ـ بحوث في المعتزلة. ترجمة د. عبد الرحمن بدوي طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ (ضمن مجموعة عنوانها: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»).

النوبختي (الحسن بن موسى)
- فرق الشيعة. طبعة النجف. سنة ١٩٥٩ م

يوسف كرم، د. مراد وهبة، د. يوسف شلالة
- المعجم الفلسفي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

يوليوس فلهوزن
- الخوارج والشيعة. ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهـرة سنـة ١٩٥٨ م.

كشاف الجزء الثانى

فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(جـ)

(ض)

(ع)

(ف)

(ن)

فهرس
الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية

فهرس الموضوعات

صفحة

كتـاب

كتـاب

رقم الإيداع : ٨٧/٤٠٤٩

ترقيم دولى : ١ ـ ٠٩٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE